بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة مؤته

عمادة الدراسات العليا

فتيان الشّاغُوريّ:حياته وشعره

عبدالله سويلم فرحان الخطيب

رسالة

مقدمة إلى

عمادة الدراسات العليا

استكمالا لمتطلبات الحصول على

درجة الماجستير في الأدب قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة مؤتة 2003

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة مؤته

إجازة رسائل جامعية

عمادة الدراسات العليا

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالب عبد الله سويلم الخطيب والموسومة بـــ:

"فتيان الشاغوري: حياته وشعره".

استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها .

القسم : اللغة العربية وآدابها

الاسم	التوقيع	التاريخ	
أ.د شفيق الرقب		٢٠٠٣/١٢/١٥	مشرفا
أ.د. سمير الدروبي		٢٠٠٣/١٢/١٥	عضوا
أ.د. جهاد المجالي		٢٠٠٣/١٢/١٥	عضوا
أ.د محمد المجالي		٢٠٠٣/١٢/١٥	عضوا

عميد الدراسات العليا

د.ذياب البدايـــــة

الإهداء

إلى نجمين تعانقا في الأوج، فأضاءا لي دربي الطويل، إلى زهرتين نشرا شذاهما، فمنحاني العزم والإصرار، إلى والديَّ العزيزين ثمرة من ثمار غرسهما.

عبدالله سويلم الخطيب

شكر وتقدير

أنطقني الواجب بالشكر الجزيل ووافر الامتنان إلـــى أســـتاذي الفاضل،الأســـتاذ الدكتور شفيق الرقب، الذي رافقني في هذا البحث منذ البداية، فنهلت مـــن علمـــه و تعلمت خلقه وحسن المعاشرة ما كان له الفضل الكبير في أن يرى هذا البحث النور.

ويسعدني أن أتقدم بخالص الشكر لأساتذتي الكرام في جامعة مؤتـــة وأخـــصّ الأستاذ الدكتور محمد المجالي الذي كان عونا لي فـــي جميـــع مراحـــل الدراســـة الجامعية، كما أقدر لزملائي في العمل جهودهم في مساعدتي، فأشكر الأستاذ احمـــد الحيصة، والأخ محمد قبيلات الذي ساعد في طباعة هذا البحث.

عبدالله سويلم الخطيب

جدول المحتويات

المحتوى ..... الصفحة
الإهداء .... أ
الشكر والتقدير .... ب
جدول المحتويات .... جـ
الملخص باللغة العربية .... د
المخلص باللغة الإنجليزية .... ز
الفصل الأول: الشاعر في عصره
المقدمة 1
1 – الحياة السياسية والاجتماعية 2
2– الشاعر حياته ونسبه 16
الفصل الثاني: الدراسة المضمونية لشعر الشاغوري
أولا: الشعر ومجالات الحياة السياسية والاجتماعية 21
شعر الجهاد 21
المدح 33
النزعة الاجتماعية 46
ثانيا: الشعر ومجالات الحياة الوجدانية 62
وصف الطبيعة والحنين 62
الفخر 72
الرثاء 77
الغزل 84
الاخوانيات 97
الفصل الثالث: الدراسة الفنية
أولا: بناء القصيدة 103
ثانيا: الصورة الشعرية 109
ثالثا: الأسلوب واللغة 120
قائمة المراجع 143

الملخص

فتيان الشّاغُوريّ:حياته وشِعره

عبدالله سويلم الخطيب

جامعة مؤته 2003

تهدف هذه الدراسة للكشف عن أحد الشعراء البارزين في القرن السّادس الهجريّ وهو الشاعر فتيان بن علي بن فتيان الأسدي الشّاغُوريّ، وقد ولد فتيان في مدينة بانياس في الشّام سنة 534هـ، وقد عاش منذ طفولته في مدينة دمشق فعمل في مهنة التعليم التي يبدوأنّه اكتسبها من والده فكانت له حلقة للتدريس في الجامع الأموي، وقد تتلمذ فتيان على أيدي أشهر العلماء في ذلك العصر، منهم: ابن عساكر وملك النحاة وزيد بن الحسن الكندي، واتصل الشّاعر ببعض حكام عصره يخدمهم ويعلم أولادهم النحو والآداب العربية والخط، ولم توفر المصادر التاريخية أو الأدبية أية معلومات عن شخصية الشاعر وتفاصيل حياته الخاصة، غير أن شعره يشفّ عن بعض ملامح هذه الشخصية، فقد كشفت الأشعار عن تشيعه أو على الأقل أنّه كان ذي ميول شيعية. وعلى الرغم من اتصاله ببعض حكام عصره إلا أنّه عاش حياة ميسورة فقد شكا فقره وإملاقه. وقد كانت وفاته في 615 هـ فدفن في مقابر باب الصغير في دمشق.

وقد عاش فتيان فترة حاسمة في التاريخ العربي الإسلامي، فقد شهد مشرق العالم الإسلامي نهاية القرن الخامس الهجريّ إحداثا جسيمة تمثلت بالغزو الصليبي لبلاد الشّام، وقد فقدت الأمة قدرتها على التوحد في مواجهة هذا الخطر الداهم وظلّ الأمر على هذا النحو إلى أن تولاه عماد الدين زنكي،فشرع في توحيد البلاد الإسلامية من جهة ومجاهدة الصليبيين من جهة ثانيه حتى فتح الرها أولى إماراتهم.

وقد واصل نور الدين محمود بن زنكي عملية التوحيد وصدّ الغزاة وفتح البلاد الإسلامية بعد استشهاد والده، وقد تمكن الملك نور الدين من ضمّ بلاد شتى للدولة الإسلامية وأهمها توحيد مصر والشّام، كما شهد عهده مزيدا من الفتوحات

وإلحاق الهزائم بالصليبيين وفي هذه الأثناء ظهر أحد القادة العظام في التاريخ الاسلامي وهو الملك الناصر صلاح الدين الأيّوبيّ الذي شهد عهده أعظم الانتصارات في تاريخ الحروب الصليبية؛ فكانت معركة حطين الفاصلة في التاريخ الاسلامي وفتح بيت المقدس سنة 583هـ للهجرة.وامّا الحياة العامة والمجتمع الشامي فقد ضمّ أجناسا شتى فبالإضافة للعرب كان هناك الاكراد والتركمان والفرنجه وتعددت الطوائف والمذاهب الدينيّة وتميزت الحياة العامة بالبساطة في معظم مراحلها فعاشت الطبقة الخاصة حياة الترف بينما ظلّت العامة تعاني ظروف الحياة القاسية، وقد تميز هذا العهد بالتّوسع في بناء المدارس والمساجد وخاصة في عهد الدولة النورية والصلاحية فقد جاهد الحكام من أجل وحدة الصف المسلم ونشر العلم وبسط العدل وانصاف الرعية وقد شجعوا الحركة التجارية والصناعية.

وكان لكل ذلك أثر كبير في توجيه شعر فتيان الشاغوري وتشكيله الفني، وقد قال فتيان الشّاغُوريّ في الأغراض التقليدية، فجاء شعر الجهاد مصورا لبعض الاحداث السياسية والعسكرية بين المسلمين والفرنجه فتحدث عن طرفي النزاع وعقيدة كلّ منهما ودوافع الجهاد ثم عرض لدور القادة والحكام وخاصة بني أيوب في الدفاع عن البلاد الإسلامية والتصدي للغزاة الفرنجة وجاء هذا الشِّعر سجلا لأدوات القتال وأجناس الجند وبعض الوقعات، أمّا شِعر المدح فإنّه يشكل قسما كبيرا من ديوانه فقد مدح فتيان الرسول عليه الصلاة والسلام وآل البيت وحكام عصره وأعيانهم وأصدقاءه فأشاد بما يتصف به الممدوح من مكارم الأخلاق والصفات الحميدة، وقد غلب التكسب على قصائد المدح عند فتيان فلا تكاد تخلو قصيدة مدح من شكوى الفقر والحرمان سواء أصرح بذلك أم لم يصرح، وقد كان الشاعر على صلة وثيقة بالحياة العامة التي تعج بالمشكلات الاجتماعية، فعبر في شعر النزعة الاجتماعية عن معاناته الذاتية من جهة، وتصدى للدفاع عن قضايا الناس وهمومهم من جهة أخرى، فعرض في شِعره لبعض مظاهر الفساد الإداريّ والاقتصادي فانتقد بعض الولاة والعمال وهجا بعض الولاة والفقهاء والعامة فكان نقده لاذعا جارحا، ومن ناحية أخرى فقد شكا فتيان فقره وإملاقه، وعرض لبعض

مظاهر الحضارة والعمران في الشّام كالقصور والمساجد والحمامات والمنتزهات، وذكر بعض العادات والتقاليد التي يتميز بها الشاميون بشكل عام والدمشقيون خاصة.

ويصور شِعره في القسم الآخر شُعوره الوجداني وعواطفه وخاصة في شِعر الغزل الذي تيمز بالرقة والسهولة وشكوى الفراق والبعد، فتغزل فتيان بالمذكر والمؤنث، كما عبر عن افتتانه بالجمال، كذلك عبر عن افتتانه بالطبيعة الدّمشقيّة على نحو كبير وقد تمثل ذلك في وصفها وارتياحه لها وإكثاره من التغني بها حتى غدا شعره نوعا من الهروب إلى هذه الطبيعه بحثا عن السكينة والطمأنينيه في آفاقها، وعبر مراثيه عن احساسه بالفقد بالأصدقاء، فأعلن حزنه وأسفه وعزى بهم أبنائهم وذويهم مخلدا مآثرهم ومناقبهم، وكان الشِّعر الإخواني وسيلة لبث شكواه وشرح حاله ودعوة الاصدقاء لزيارة دمشق والتمتع بمناظرها، كذلك كان العتاب موضوعا لإخوانياته، كما عرض فيها للتفكّه والتندر، وقد تميزت هذه الأشعار بجمالها وأثرها في النفس.

وقد حافظ فتيان الشاغوري على الصورة الاصيلة للشِّعر العربيّ سواء أكان ذلك في بناء القصيدة، أو صورها، أو لغتها، أو أساليبها فأخذ بالأساليب الرصينة والجزلة في موضوعات المدح والجهاد والفخر، وبالأساليب السهلة في موضوعات الوصف والغزل والحنين، واقترب من اللغة الشعبية في النقد الاجتماعي وتصويره للمجتمع، وكان لثقافته الشَّاعر أثر كبير في التشكيل الفني، تمثل ذلك في الاستدعاء الديني والأدبي الذي اتّخذ صورا متعددة في شِعره، وتفنن في بناء الصورة معتمدا على التجسيد والتشخيص والتجسيم والحركة الألوان.

Abstract:

Al_shaqori s Fatyaan: his life and his poesy

Abdullah seewlim Al_Khateeb

An university mu'ta 2003

This study is near the uncovering from the one of prominent poets in the century the sixth the Tran migratory the poet is the Fatyaan of Ben Ali Ben the fetyaan alasadi Al_shqouri ، and fetyaan had given birth in banyans city in the year (534)A.A is in the northern region she , and he had lived since his childhood in Damascus's city then working in a profession of the teaching which he is possessed it from his father then a ring was by him for the teaching al_amawi is in the mosque , and maybe the pupilage of a Fetyaan the most famous of the savants are at the hands of in that pressing , from them : the son of an armies and thegrammarians and Zeid Ben Hessian possessed and connect is the poet Al_Kindi by some of Empire he pressed out it waiting on them letting their boys know the manner Arabia and the section , and why abundant the references are historical or[1] any arts is an information from personality the poet and the details of his life are specialization ، jealous that as for his hair , this ، specialization ،lets some of outlines shimmer through , then you had pulled the poems away from you spread him or at least he was that is the sects likings. On the despite from his connections pressing is by some of empires resort he lived an easy life then he had made a complaint then- his and his destitution. His death had

been in 615 she then a burial in the cemeteries of the young door in Damascus.

The Fatyaan of a decisive period , the Arabs , had lived in the history my the Islam my , then the East of the world had witnessed the Islam's of the fin de sickle the fifth the Tran migratory the production of a particle assimilate the cross is by the invasion my for the northern region's countries , and maybe then you pandered the bondmaid ability on special unites is in opposition of this danger and the warrant remained on this manner until- supervene his a support of the religiousness is my zinc , then Islamic began the unification of the countries on the one hand and the jihad of a Christian on the one hand his the second till then be destined a first their city (al_raha) emirates.

A light of the religiousness had been close friends with Mohamed Ben my zinc ‹ operation is the unification and the repulsion of the invaders the invaders and the openings of the Islamic countries is after the martyrdom of his father , and maybe you will be possible recuperating a light of the religiousness from the joining of a countries is voluminous for the Islamic state and they her the unification of a country and the northern region , as Christians witnessed his convention more and more from the conquests and the annexation of the defeats and than my this during the back of the coryphaei one is the bones in the Islamic history and he is King helper the goodness of the debt the two Ayyoubs my as for which witnessed his Christian convention

made the victories to become great in the history of the warfare's; Then the disjunctive(Heteen) battle was in the Islamic history and Jerusalem's openings a year 583 she is for the emigration ‹the life is the sheaf and the society is the moles my then voluminous had brought together races then additionally for the Arabs there was Turkmen's , turkey and Christian his and the sects were transitive with the religious schools of thought his favored the life is the sheaf by the simplicity in most of her phases then the layer passed individual life of the luxury while the sheaf is preoccupied with the adverbs of the hard life , and maybe you separate this convention is expansionary in the building of the schools and the mosques and(alsalaheya and alnooria) is in the convention of the state then empires had struggled against an unity for you fluoresce the Moslem guess ‹the grass , spread out the flag and carpets of the justice and they , the move , had been courageous trading and industrial. He was to devour that , the egoistic of a senior in the sending of Fetyaan alshqoori hair and its formation and than me , and Fetyaan alshqoori had spoken about the aims traditional ‹ then hair of the jihad ‹ photos ‹came to militaries for some of political events between the Moslems and Christian his then you happen from my edge the dispute and a belief everyone who their and sends of the jihad‹ then is an accident for the role of the coryphaeus empires specials of ayyoubieen was built in defending the Islamic countries stopped the invaders have the Land of the Franks and this poesy arrived records for tools of the fight and the

races of the soldiers and some of the falls , they went to a poesy of the praise then he is dubious a big part from his divan then the Fatyaan of the messenger had praised the prayer on him and the peace and the families of the house empires pressed out him and their dignitaries are his friends then I build by what is align compliment is by him from ethics 's noble deed and the paused qualities , and portability had subdued kasidas of the praise at Fatyaan then not the kasida of a praise is on the Pointe of being empty from the complaint of the poverty and the two Holy Place whether I become pure by that or he doesn't become pure , and the poet was on the connection of a document the sheaf is by the life which you turn off the road social is by the questions , then a crossing sociality is in the hair of the trend immanence is from his sufferance on the one hand , and stopped for the defense From the rest of the people and their anxieties on the one hand another , then he turned to some of the apparels of administrative decay in his poesy and the economy my then some of the rulers criticized employees tops some of the rulers and the jurists and the sheaf then his criticism was burning injurious , and on the other hand then Fetyaan had made a complaint then bitumen his and his destitution , and he turned to some of the civilization apparels and the building in the northern region like the alcazars and the mosques and the pigeons and the parks , and some remembered the habits which severalty (shame people) is by her Damascus people is by the form of a year.

الشاعر في عصره :

المقدمة

تكاثر الشّعراء في بلاد الشّام في القرن السّادس الهجريّ على نحوٍ ملحوظ، ومن هؤلاء الشّعراء: فتيان الشّاغُوريّ المُتَوفّى سنة (ستماية وخمس عشرة)، وقد ترك هذا الشّاعر ديوانا كبيراً لم يُدرس دراسة مستقلّةً، في حدود ما اطّلعت عليه، باستثناء بعض الدراسات الّتي استشهدت بشعره في سياق دراستها لأدب العصر أو لبعض قضاياه، ومن هذه الدّراسات،(الأدب في بلاد الشّام عصور الزّنكيين والأيُّوبيين والمماليك: عمر موسى باشا)، (عصر الدُّول والإمارات: مصر والشّام: شوقي ضيف)، (الشّعر في بلاد الشّام في القرن السّادس الهجريّ: شفيق الرّقب)، (بيت المقدس في أدب الحروب الصّليبيّة: عبد الجليل عبد المهدي). ومن ثَمَّ فإنّ هذه الرّسالة تسعى إلى دراسة شعر فتيان الشّاغُوريّ من النّاحيتين المضمونيّة والفنيّة، بالإضافة إلى دراسة حياته وشخصيته، لبيان عناصر البناء والتكوين لهذه الشّخصيّة، لما لذلك من أثر في الشّعر الّذي قاله .

وقد أفادت هذه الدّراسة من مناهج متعددة، فهي تفيد من المنهج التّاريخي في دراسة شخصيّة فتيان الشّاغُوريّ، وفي دراسة شعر المدح والجهاد،وتفيد من المنهج الاجتماعي في تبيان علاقة هذا الشّعر بالقضايا الاجتماعيّة في عصره، وتصويره للمظاهر الكبرى للمجتمع الشّامي آنذاك، وتفيد من المنهج الفنيّ في دراسة السّمات الفنيّة والأسلوبيّة في شعر فتيان الشّاغُوريّ.

وتتكون هذه الرّسالة من ثلاثة فصول وخاتمة، يدرس الفصل الأول الشّاعر في عصره في قسمين، أولهما: الحياة السياسيّة والاجتماعيّة ،وثانيهما: الشّاعر، حياته ونسبه. وخُصّص الفصل الثاني للدّراسة المضمونيّة ضمن إطارين كبيرين، في الأول: الشّعر ومجالات الحياة السياسيّة والاجتماعيّة ويتضمن،(شعر الجهاد والمدح والنّزعة الاجتماعيّة)، وفي الثاني: الشّعر ومجالات الحياة الوجدانية،ويشمل(الغزل والفخر والرّثاء والإخوانيات والوصف) .

وتحلل في الفصل الثالث الأدوات الفنيّة الّتي عبّر بها الشّاعر عن عواطفه وأفكاره، وتنتهي الرّسالة بخاتمة تُعرض فيها النتائج الّتي توصّلت إليها.

أولا: الحياة السياسية والاجتماعيّة

شهد مشرق العالم الإسلامي في نهاية الخامس القرن الهجريّ أحداثاً جسامًا أدّت إلى تفرق الأمة وتمزقها، فبعد وصول السّلاجقة إلى بغداد سنة (1056/449) وبلاد الشّام(الحسيني، 1984،18)،أصبح هناك قوتان تتنازعان البلاد الإسلاميّة هما: السّلاجقةوالفاطميون غير أنّ نفوذ السّلاجقة سرعان ما اضمحلّ في الشّام بعد مقتل تتش بن ألب ارسلان صاحب دمشق(أيبك،1966،6:444)، فاقتسم أولاده البلاد فكان دقّاق في دمشق، وعبد الله في حلب، بينما انفرد رضوان بمدينة حماة(ابن كثير،1993،12:182). ولم يكن دقّاق ورضوان على وئام، فقد جرت بينهما الوقعات بمساعدة من سقمان بن أرتق التركماني، وانتهت بانهزام دقّاق.

وخطب رضوان في ولايته للمستعلي بأمر الله العلوي(ابن الأثير،1980،8:184) صاحب مصر،ثم أعاد بعد ذلك الخطبة العباسيّة. وفي هذه الأثناء أخذت جيوش الصليبين تتجه نحو بلاد الشّام، وتمكّنوا خلال فترة قصيرة من تأسيس عدة كيانات لهم في أنطاكية والرهاوطرابلس وبيت المقدس(ابن الأثير،1980،8:189).

ويبدو أنّ الأمة فقدت قدرتها على التوحّد لمواجهة هذا الخطر الدّاهم،باستثناء بعض الوثبات الفرديّة التي لم تكن تقوى على صدّ الغزاة،وظل الأمر على هذا النحو حتى تولاه عماد الدّين زنكي الذي مضى في الجهاد الشّاق في اتجاهين الأول:توحيد البلاد الإسلاميّة، فحاصر مدينة حمص وفيها معين الدّين أنرالذي رفض تسليمها، وملك بعلبك سنة(1137/533)، وحاصر دمشق عدة مرات لكنّه عاد عنها بعد أنّ استنجد معين الدّين بالصليبين،وسار نحو شهرزور وأعمالها،وكانت عملية توحيد البلاد الإسلاميّة تواجه معارضة شديدة من بعض الأمراء المحليين(ابن الأثير،1980 ،8:367). ولم يغفل عماد الدّين الخطر الصليبي الذي استفحل في بلاد الإسلام فشرع يجهز العساكر لمواجهة الفرنجة،وخاض ضدّهم معارك مظفرة انتهت بفتح الرّها أولى أمّارتهم(عباس،1998،102).

وفي سنة(1146/541)توجّه عماد الدّين لمحاصرة قلعة جعبر،ولكن الله لم يمهله طويلا واختصّه بالشّهادة أثناء محاصرته لهذه القلعة،إذ قتله أحد مماليكه غيلة

(المقدسي، 1997،1:154). وقد آل القسم الشرقي من دولته (الموصل) بعد وفاته إلى ولده سيف الدّين غازي،في حين ملك ابنه الآخر نور الدّين محمود حلب.

وما كاد نور الدّين يستقر في حلب حتى أرسل جوسلين الفرنجي إلى أهل الرّها –وعامتهم من الأرمن –يحرضهم على العصيان وتسليم البلد إليه، فأجابوه إلى ذلك وتسلم البلد، ولما علم نور الدّين بذلك سار من حلب لاسترداد الرّها ، فخرج جوسلين هارب(ابن خلدون،1971،5:138)، وقد سار نور الدّين على النهج الذي اختطه والده الشهيد، فعمل على توحيد البلاد الإسلاميّة، وكانت دمشق من أهم البلاد التي تطلّع إليها، وتمكن من فتحها سنة 1155/549(ابن الأثير،9:198045).

ظلّ مشروع الوحدة الإسلاميّة يشكل أولوية كبرى عند الملك العادل نور الدّين خاصة بعدما استفحلت الخلافات بين الوزراء المصريين، مما زاد من خوفه على البلاد المصرية من الصليبيين .

وقد ثار ضرغام على الوزير شاور وقتل ولديه فخرج شاور من مصر ولجأ إلى نور الدّين طالباً نجدته مقابل ثلث ما تنتجه الديار المصريّة، فأنفذ نور الدّين أسد الدّين شيركوه على رأس جيش فدخل مصر واستقر أمر شاور في الوزارة، لكنّه تنكّر لما كان بينه وبين نور الدّين، واستنجد بالفرنج وملكهم (مري) فأقبلت الفرنج في قوات كثيرة إلى الديار المصريّة، فعاد شيركوه إلى الشّام،(ابن شداد،1969، 390)، ثم اشتد أذى الفرنج على المصريين، وعند ذلك أرسل العاضد يستغيث بنور الدّين وبعث إليه بشعور النساء والتزم له بثلث الخراج، وقد دخل شيركوه مصر للمرة الثالثة وتمكن صلاح الدّين الأيوبي من الإيقاع بشاور وقتله، فوزر أسد الدّين شيركوه للعاضد ولقب بالملك المنصور وفي نفس السنة توفي أسد الدّين ووزر بعده صلاح الدّين يوسف وكان ذلك سنة (1169/56 (ابن كثير،1993،12:308) .

وقد واكب عملية توحيد البلاد الإسلاميّة جهاد مستمر للصليبيين، فقد أخذ نور الدّين يعد العدة لعملية شاملة تستهدف تطهير البلاد منهم فاستعاد حصن العريمة(البنداري،1979،39) سنة1148/543 وهزم الفرنج في يغرى، وغزا انطاكية سنة (1149/544) وحاصر إنّب، وقتل صاحبها البرنس، وملك بعده ابنه بيهمند،

ثمّ فتح حصن أفاميا وغزا بلاد جوسلين الفرنجي، فانهزم المسلمون لكنهم ثأروا لهزيمتهم وأسروا جوسلين سنة 1151/546(المقدسي،1997،1:195).

و توجه نور الدّين إلى حارم و تل باشر ،وهزم الفرنجة وأسر عددا من قادتهم منهم صاحب طرابلس ،ومقدم الرُّوم،وابن جوسلين. كما تم في هذه السنة (1164/559) فتح قلعة بانياس.(المقريزي، 1973،3:247)، و ظل الملك العادل نور الدّين يواجه الصليبين ويتصدى لهم ويفتح الحصون والقلاع إلى أن توفي –رحمه الله–في دمشق سنة (1174/569).

وقد ذكُر سابقا أنّ نور الدّين أرسل شيركوه على رأس حملة إلى مصر وبرفقته ابن أخيه صلاح الدّين يوسف، ولكن فترة وزارة أسد الدّين شيركوه لم تطل بسبب وفاته(ابن الأثير، 1980،9:101) فتسلم الوزارة من بعده صلاح الدّين ولقبه العاضد بالملك الناصر، وقد تمكّن من البلاد المصريّة في حياة نور الدّين وقطع خطبة العاضد وأقامها لبني العباس كما تمكن من إخماد ثورة السودان سنة (1169/564) وسبب هذه الثورة قتلُ مؤتمن الخلافة فقد علم صلاح الدّين أنّ مؤتمن الخلافة قد أرسل إلى الفرنج يدعوهم للقدوم إلى مصر من أجل إخراج صلاح الدّين والقضاء عليه فأمر صلاح الدّين بقتله فثار السودان وكانوا أكثر من خمسين ألفا فقتلوا وحرقوا . (البنداري،1979، ،43)، ولم يألُ السلطان صلاح الدّين جهدا في المحافظة على وحدة مصر والشّام، لاسيما بعد وفاة نور الدّين واضطراب أحوال الشّام(الرقب،1993، 18) فدخل دمشق حينما استدعاه الدمشقيون سنة (1175/570) بسبب خوفهم من سيف الدّين غازي صاحب الموصل. وبعد أن استقرت الأمور لصلاح الدّين في دمشق استخلف فيها أخاه سيف الإسلام طغتكين وعزم على دخول حلب لما هي فيه من التخبط والتخليط، وفي طريقة تسلم حمص وحماة، وعندما وصل حلب وجد مقاومة شديدة من الحلبيين الذين جهزوا الجيش لمواجهة السّلطان، وكان يحثهم على ذلك الملك الصالح فقاتلهم السلطان حتى استعانوا عليه بالفرنجة إلى أن تم الصلح(المقريزي،1956،1:61). هذا ولم يتوان صلاح الدّين في فترة بناء الوحدة عن الإغارة على القلاع والحصون والمواقع الصّليبيّة في بلاد الشّام، ففي سنة (1178/573) هاجم صلاح الدّين الداروم وقصد عسقلان ووصل الرملة فانقض الفرنج على المسلمين وقتلوا وأسروا جماعة

منهم،(ابن واصل،1953،59:2)، وقد جهز الملك الناصر (1179/574) ابن أخيه فروخ شاه لقتال الفرنج فقتل الهنفري صاحب الناصرة، وفيها بنت الفرنج قلعة عند بيت الأحزان للداوية. وعندما أغار الفرنج على حماة سار صلاح الدّين إلى حصن بيت الأحزان لتخريبه وقاتل من به من الفرنج وأسر منهم الكثير، كما انتصر السلطان على الصليبين سنة (1180/575) في وقعة مرج عيون،(ابن كثير، 1993 ،368:12) وفتح فروخ شاه الشقيف من بلاد الفرنج(1183/578) وحاصر بيروت وعبر الفرات ثم عددا من البلاد الشّامية(ابن الأثير، 1980 ،155:9) ثم تسلم السلطان آمد صلحا، ثم حاصر حلب وقاتله أهلها قتالا شديدا واتفق مع عماد الدّين أن يسلمه حلب مقابل سنجار، وسعى الفرنج (1183/578) للوصول إلى المدينة النبوية فلحق بهم حسام الدّين لؤلؤ وردهم على أعقابهم.(المقريزي، 1956،79:1).

وقد توالت محاولات صلاح الدّين فتح القلاع والحصون والمدن في جميع أنحاء بلاد الشّام وحاصر الكرك المرة تلو الأخرى وقام إبرنس الكرك بنقض الصلح مع صلاح الدّين فنازل السلطان طبرية ، وجرت وقعة حطين العظيمة التي انتصر فيها المسلمون، وكانت إيذانا بانتهاء دولة الصليب وإخراجهم من بيت المقدس، وقد قتل في هذه المعركة أشهر القادة الصليبين ومنهم أرناط صاحب الكرك.(ابن كثير، 1993،393:12)، ثم توجه صلاح الدّين بالجيش الإسلامي نحو عكا وفتحها دون قتال، وتسلم عسقلان، وجمع الجيوش وتوجه إلى القدس، وحاصره فطلب الفرنجة الأمّان فكان رد السلطان حازما ((لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها)(ابن الأثير، 1980 ،182:9) فهدد الفرنجة بقتل أسرى المسلمين وتخريب الصخرة والمسجد الأقصى فاضطر صلاح الدّين إلى إعطائهم الأمّان وتم هذا في سنة (1187/583)، وقد استمر صلاح الدّين والملك العادل(ابن شداد،1969، 68 -78) بفتح الحصون والبلدان فقد فتح صلاح الدّين صفد وكوكب وانطرسوس وجبلة واللاذقية وحصن صهيون وبكاس والشغر، ثم فتح الظاهر غازي سرمينية وحصن برزية ودرب ساك وقلعة بغراس أمّا الملك العادل فقد فتح حصن الناشرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والتولع والطور

وسبسطية وغيرها من الحصون والقلاع.(الحنفي، 1982،1:248). ولقد صدمت أوروبا باسترداد بيت المقدس.

وقام رجال الدّين عندهم بحملة ضخمة للثأر من المسلمين، وكان على رأس تلك الحملة ملوك فرنسا وألمانيا وانجلترا واتجهوا نحو عكا وجرت معارك هائلة أسفرت عن سقوط عكا بأيدي الصليبين، وعقدت هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات وثمانية اشهر يقرهم صلاح الدّين على ما بأيديهم من البلاد السّاحلية.(ابن الأثير، 1980،9:221) هذا ولم يعش صلاح الدّين طويلا بعد عودته إلى دمشق إذ توفي في السابع والعشرين من صفر سنة (589/1193). بعد أن قسم البلاد بين أولاده، فملك الأفضل على دمشق والساحل وبيت المقدس، واستقر العزيز عثمان في مصر، والظاهر غازي في حلب، وكان الملك العادل في الكرك.(ابن العبري، 1997،223) فكان هذا التقسيم سببا للنزاع بين أبناء صلاح الدّين.

ومهما يكن من أمر فقد أدت هذه النزاعات بين أمراء الدولة الإسلاميّة إلى أن قصد الفرنج عكا، و عزموا على فتح بيت المقدس، فتم الصلح بينهم وبين الملك العادل ثم أغار الكرج (610/1213) على بلاد الإسلام ناحية أذربيجان، وكثرت الغارات الفرنجية على بلاد الشّام،(ابن الأثير، 1980،9:231) في سنة (614) هـ اجتمع الفرنج بعكا ثم ساروا إلى دمياط، فتصدى لهم الملك الكامل بن العادل، واختلف الأمراء المسلمون، مما تسبب في سقوط عكا بأيدي الفرنج، ليستنجد الكامل بأخويه الأشرف والمعظم عيسى فتسلموا دمياط بعد نزال شديد"(ابن الفرات، 1971،1:228).

الحياة الاجتماعية

كان المجتمع الشّامي زمن الحروب الصّليبيّة يضم أجناسا شتى، فبالإضافة إلى العرب السكان الأصليين، هناك الأتراك والأكراد والفرنجة، كما تعددت الطوائف والمذاهب الدّينية، ما بين روم أرثوذكس ولاتين وموارنة ويعاقبة، أو سني وشيعي هذا مع تفاوت بيّن في المظهر الاجتماعي.

وقد شكّل العرب عنصرا هاما في تركيبة المجتمع الشّامي في عصر الحروب الصّليبيّة، فكانوا قبائل تنتشر في مواقع عدة من بلاد الشّام دون أن يكون لها نفوذ سياسي في المدن والقلاع، باستثناء بني منقذ في شيزر.

فقد كانت قبيلة طئ منتشرة ما بين مصر وفلسطين، وبنو كنانة وبنو هوبر وبني خالد جنوب شرقي الأردن، وقرب الكرك والشوبك كانت مواطن بني عقبة وبني زهير،(الرقب، 1993،24)، وكان آل مرا من ربيعة في حوران وآل فضل بجوار الفرات(القلقشندي،د.ت،8:184)، وآل علي في غوطة دمشق وبنو مهدي يسكنون البلقاء(العمري، 1992،103). وتواجدت فرقة أُبي في منطقة الجفر(ابن منقذ،1930،14)، وبني سالم في غزة(ابن بطوطة،1981،74)، والكلابيون في جعبر(ابن شهبة، 1971،173).

ولم تكن القبائل العربيّة في منأى عما يدور من أحداث في بلاد الشّام في القرنين السادس والسابع الهجريين، فقد شهد العرب دخول الفرنج هذه البلاد ولم يتخاذلوا عن الالتحاق بالجيوش الإسلاميّة وجهاد الفرنج وصدهم عن ديار الإسلام فعندما قصد الفرنج دمشق سنة (1129/523) سار الأمير مرة بن ربيعة بالقبائل العربيّة وانضمّ إلى الجيش الإسلامي للدفاع عن دمشق،(ابن شهبة،1971،96)، وما انفكت هذه القبائل تساند نور الدّين محمود في جهاده الفرنج كما في حوادث سنة(1152/546) وقاتل أسامة بن منقذ إلى جانبه أيضا عند حصاره (حارم) سنة(557-1163)(ابن الجوزي، 1971،8:209). ولقد وقف عرب الجزيرة والحجاز بحزم لصد الفرنج القادمين من الشّام لنبش قبر الرسول -صلى الله عليه وسلم- سنة (1179/575)(الحنبلي، 1973،1:317)، وقد اعتمد صلاح الدّين الأيوبي على العرب للقيام بعمليات عسكرية مهمة فقاموا بحصد غلات العدو وجمع القوت في صيدا وبيروت سنة(1178/574)، وخطف الجنود الصليبين من خيامهم والعودة بهم مع خيولهم وأموالهم إلى السلطان(الأصفهاني،1987،3:158). وقد " علم السلطان أن جماعة من الفرنج يخرجون للاحتشاش من طرف النهر فأكمن لهم جماعة العرب، قصد العرب لخفتهم على خيلهم وأمنه عليهم فخرجوا ولم يشعروا بهم فقتلوا منهم خلقا عظيما..(ابن شداد، 1969،91). ولقد كان العرب أحد العناصر الفعالة في معركة حطين الفاصلة في التاريخ الإسلامي(1187/583) إلى جانب العنصر التركي،واستشهد في هذه المعارك عدد من الأمراء العرب منهم الأمير زامل بن تبل بن مر بن ربيعة أمير النقرة.

ولم يكن العرب يحظون بهذه المكانة على الدوام،فكانوا يتعرضون لسخط الأمراء والسلاطين لأن بعض هذه القبائل كانت تخرج على الدولة وتتعاون مع الفرنج وتدلهم على الطرق والمسالك المؤدية لبلاد المسلمين من جهة،(ابن الجوزي، 1969،1:293)، وقطع الطرق ونهب قوافل الحجاج والقوافل التجارية من جهة ثانية.

وأخذ الحكام يستميلون هذه القبائل باقطاعهم الاقطاعات لئلا يتعرضوا للحجاج كما فعل نور الدّين أو بحربهم وضربهم كما فعل صلاح الدّين بهم بعد معاونتهم للفرنج أثناء حصار السلطان للكرك والشوبك سنة (1172/568، " إذ نهبهم السلطان وقتل البعض وأجلى من بقى عن أرض الكرك وكتب إلى نور الدّين يخبره بما جرى وقد وصفهم بأنهم آفة على المسلمين ودليل الكفار على الإسلام. وقد ركب الملك المجاهد شيركوه بن محمد بنفسه لقتال العرب (1185/581) لاعتداءاتهم على المسلمين(الحنبلي، 1996،281).

ولا يمكن إغفال العناصر الأخرى غير العربيّة التي ازداد انتشارها واتسع نفوذها في بلاد الشّام حتى غدت ركنا أساسيا في بنية المجتمع الإسلامي في بلاد الشّام في عصر الحروب الصّليبيّة ومن هذه العناصر: الأتراك الذين جاءوا من تركستان وبلاد ما وراء النهر الذين دفعت بهم دولة السلاجقة على هيئة أفواج متلاحقةوقد دخلت جماعة من التركمان السّلاجقة بلاد الشّام هربا من السلطان السّلجوقي (طغر لبك)، ثم اتجهوا إلى الرملة وبيت المقدس مرافقين لمحمود المرداسي " وفي مرحلة تالية أسكنهم صلاح الدّين الأيّوبي مع جماعة أخرى من الأكراد والجراكسة –بعد أن سكنوا غزة – في لبنان وساحله(الغزي،د.ت،1:252).

وقد أشادت المصادر بشجاعة التركمان في قتالهم الفرنج إلى جانب أتابك طغتكين،ثم في صفوف الجيش النوري . وقد اعتمد عليهم نور الدّين كثيراً في معاركه وحملاته على الفرنج ، فعندما هُزم المسلمون من قبل جوسلين سنة (1150/545)، كلّف التركمان بأسر جوسلين، وبذل لهم الرّغائب بذلك،(المقدسي، 1997،1:246)، ونظراً للشجاعة الّتي يتمتع بها التركمان فقد أختار نور الدّين ستة آلاف فارس منهم لمرافقة صلاح الدين إلى مصر. وبعد وفاة شيركوه عاد هؤلاء التركمان إلى بلاد الشّام للالتحاق بنور الدّين حيث شكّلوا جزءاً هاما في الجيش زمن

نور الدّين " حيث كانوا يحصلون مع الأكراد والأتراك على رواتبهم كاملة(العريني،د.ت،155).

وبعد وصول الأيوبيين إلى الحكم أخذ عدد الأكراد يتزايد ويشكل عنصراً مهماً في الجيش الأيوبي ، حيث اعتمد صلاح الدّين عليهم كثيراً في جهاده الفرنج وتحرير المدن الإسلاميّة(27،1985)، ومن هؤلاء الأكراد بزغ نجم الدّين أيوب وشيركوه وصلاح الدّين يوسف وهم من الأكراد الراودية "وهذا القبيل من أشرف الأكراد(ابن الأثير، 73،1963).

وكان ضمن تكوين المجتمع الشّاميّ في عصر الحروب الصّليبيَّة عنصر آخر له الأثر الكبير في الحياة الاجتماعيّة ، وهو العنصر الفرنجي الطارىء على البلاد الإسلاميّة والمتحصن في المدن والقلاع والحصون السّاحلية وبعدد يقارب المليون جندي غربي(يوسف، 111،1988)، وتألفت هذه الفئة من عدّة أجناس، منهم الأنكتار والفرنسيسةوالألمان.

وضمن هذه التركيبة المتعددة للمجتمع الشّامي نجد فئات دينية ومذهبية، ومن هذه الفئات وأهمّها وأكثرها انتشاراً مذهب أهل السّنة والجماعة،الذي دأب الملوك الأيّوبيون والزّنكيون على نشره وتثبيته.

ولقد جاهد حكّام الشّام من أجل وحدة الصّف المسلم ضد الفرنج فكان لا بد من وحدة المذهب ومحاربة البدع بشتى الوسائل فاتّخذ الزنكيون لتحقيق تلك الغاية بناء المساجد والمدارس ورتبوا فيها المدرسين والعلماء، ورسموا لهم تدريس مذهب السنة على أئمته الأربعة الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي، ومن هذه المدارس: المدرسة العصرونية التي بناها نور الدّين (1161/545)(علي، 67:6،1983)، وهناك المدرسة الأسديّة في دمشق التي أنشأها أسد الدّين شيركوه والأكزية وأنشأها أكز حاجب نور الدّين والإقبالية، وكلها شافعية،والجركسية والخاتونية الجوانية التي أنشأتها خاتون بنت معين الدّين انر زوجة نور الدّين وهاتان المدرستان للحنفية، والشرابيشية والصلاحية وأمَّا الحنابلة فمن مدراسهم المدرسة الحنبلية الشريفة، والمدرسة الصاحبية التي أنشأتها ربيعة خاتون بنت نجم الدّين أيوب(النعيمي، 152:1،1948).

ولقد حظى الصوفية بمكانة متميزة لدى حكام الشّام لما بذلوه من جهد كبير في جهاد الفرنج بالسيف،والحثّ على الجهاد ،وشحذ الهمم في المساجد والمدارس وقد شجع الحكام الصوفية وبذلوا لهم الأموال والإدرارات والجرايات وبنوا الخوانق والزوايا، فقد كان لنور الدّين صلات كثيرة لهم وكان يقول: " لا أرجو النصر إلا بأولئك " وجعل لهم نصيبا من بيت المال، كما أنه قرّبهم منه وكان يحضر عند مشايخهم ويتواضع لهم،وسار على هذه الخطى صلاح الدّين في إرساء مذهب الجماعة ووقف الخانقات للصوفية في مصر والشّام،ويصف ابن جبير هذه الفئة – الصوفية – بأنّهم " الملوك بهذه البلاد،وهناك جماعة من أهل السّنة تعرف بالنبوية سلطهم الله على الرّافضة من الشّيعة، أمّا الفئة الدّينية الثانية وهم الشّيعة فيكفينا أن نقرأ ما قاله ابن جبير عنهم في رحلته عندما زار دمشق " وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة وهم أكثر من السنيين بها وقد عموا البلاد بمذاهبهم وهم فرق شتى منهم الرّافضة وهم السّبابون ومنهم الأمّامية والزيدية وهم يقولون بالتفضيل خاصة ومنهم الإسماعيلية والنصيرية وهم كفرة يزعمون الألوهية لعلي – رضي الله عنه – وتعإلى الله عن قولهم، ومنهم الغرابية وهم يقولون إنّ عليا – رضي الله عنه – كان أشبه بالنبي– صلى الله عليه وسلم –من الغراب بالغراب وينسبون إلى الروح الأمين عليه السلام قولا تعإلى الله عنه علوا كبيراً إلى، فرق كثيرة يضيق عنها الاحصاء ..(ابن جبير،د.ت،196).

وثمة إشارات وحوادث كثيرة تدل على الخطر الذي شكلته الفرقة الاسماعيلية (الباطنية) على الإسلام والحكّام المسلمين حيث قتلوا من جماعة أعيان حلب سنة (1126/520) واشتدوا في قتل أهل بانياس وسلموا البلد للفرنج (1129/523) وفي أكثر من مرة حاولوا قتل السلطان صلاح الدّين ،منها وثوبهم عليه وهو محاصر لعزاز.

ولقد تعامل نور الدّين وصلاح الدّين مع هذه الفئة بحزم، فقد أبطل نور الدّين (1148/543) شعارهم في الآذان (حي على خير العمل) وعاقبهم لسبّ الصّحابة وساعده في ذلك جماعة من أهل السّنة ، كذلك فعل صلاح الدّين (1171/566)" وقاتلهم في حصن مصياف سنة 1177/572 ونصب عليهم المجانيق وأوسعهم قتلا

وأسرا وساق أبقارهم وخرب ديارهم،(ابن واصل، 1953،47:2)، وإلى جانب هذه الفئات كان أهل الذّمة من يهود ونصارى يتعايشون والمسلمين في كنف الدولة الإسلاميّة آمنين على أنفسهم وأموالهم.

فقد كانت قارا قرب حمص آهلة بالنصارى،وكانت علاقات الود تحكم التعامل بين المسلمين والنصارى، وينقل ابن جبير صورة نصارى جبل لبنان تجاه المسلمين المنقطعين في الطريق حيث يأخذونهم ويجلبون لهم القوت(ابن جبير،د.ت،201)، إضافة إلى ذلك فقد شغل هؤلاء النصارى وظائف في الديوان المعد لنزول القوافل أمّا اليهود فقد انتشروا في مناطق متعددة من بلاد الشّام: كاللاذقية وطرابلس والخليل والقدس(النقاش، 1958،184) يمارسون أعمالهم وأشغالهم بحرية واسعة غير أنهم سواء اليهود أو النصارى كانوا يتعرضون لسخط الحكام المسلمون إذا ما قاموا بمعاونة الفرنج على المسلمين كما حدث أن أغار صلاح الدّين على فرقة السامرة اليهودية وأعمل فيهم القتل والأسر.

وبعد هذا العرض للطوائف العرقية والفئات الدّينية والمذهبية في المجتمع الشّامي عصر الحروب الصّليبيّة فإنّه يمكن القول عن العلاقات بين هذه الفئات أنّها كانت مستقرة، وأنّ الخلافات لم تكن تشكل خطرا على الوحدة الإسلاميّة ولم يكن هناك إلا بعض الخلافات الصغيرة بين العرب والأكراد أو العرب والتركمان وقد أشارت المصادر التاريخية إلى الخلافات بين أهل السّنة والشّيعة، قد مر ذكرها سابقاً " سببها الغلو في التّشيّع والاساءة للسّنة والسّنيين، وعلى الرغم من طول فترة الصراع بين المسلمين والفرنج واتساع ميدان المعارك إلا أننا نطالع في ثنايا المصادر التاريخية ونتبين سيادة روح التفاهم والتساهل وغلبة الطبيعة البشرية على الطرفين فيورد لنا البعض ممن زاروا البلاد في ذلك العهد كابن جبير ما كان فيه سكان البلاد وأبناء ملته خاصة- من ترفيه في ظلّ الحكم الفرنجي الجديد كما هو في تبنين.

ولقد كانت معاشرة المسلمين عاملا قويا في تحويل القوم وتبديلهم مما كانوا فيه من غلظة وخشونة إلى ما أصبحوا عليه من دماثة في الأخلاق وأنس بأهل البلاد وقد يطول القتال ويشتد ويتبادل الفريقان القتل والأسر والنهب والسّبي ثم يجلسان

يتبادلان الفكاهة،وربما أنس البعض بالبعض بحيث أن الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال وربما غنى البعض ورقص البعض الآخر ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة، وكانوا يجلسون ويدعون صغارهم يتصارعون(ابن شداد،1969، 101).

كما كان المسلمون والفرنج يجتمعون في الأعراس الفرنجية وأعياد النصارى فنجد أهل شيزر اهتموا بحضور عيد النصارى وكذلك نرى اجتماع أمراء آل تنوخ مع صاحب بيروت الفرنجي في الصيد فضلا عن هذا العلاقات التجارية بين الطرفين. وقد تعرف بعض الفرنج إلى أطعمة أهل البلاد حتى أعجبتهم فأقبلوا عليها واتخذوا الطراز الإسلامي في بناء بيوتهم(منقذ،1930،...).

وإذا ما تجاوزنا ذلك إلى النشاط الاقتصادي في بلاد الشّام في هذه الفترة فيمكن القول إنّ هذه الحروب الطويلة لم تكن لتقضي على التجارة والصناعة والزراعة الشّامية ، فكانت بلاد الشّام دائما حلقة الوصل وملتقى قوافل التجارة من المشرق والعراق من ناحية ومن آسيا الصغرى والشّمال من ناحية ثانية وشبه الجزيرة العربيّة ومصر من ناحية ثالثة، وكثيرا ما كان العامل التجاري يدفع بالمسلمين والصليبيين إلى عقد هدنة، أو صلح ليتمكن الطرفان من استئناف التجارة دون عائق(خير، 1969،164).

وقد اهتم حكام الدولتين الزنكية والأيوبية بالتجار والتجارة فأنشأ نور الدّين الخانات للتجار، وأزال المكوس المفروضة عليهم، وعمل على توفير أمن والحماية للقوافل التجارية من أي اعتداء ،وظلّ صلاح الدّين يتبع ذلك الطريق في إزالة المكوس وحماية التجار.

ولقد شهدت بلاد الشّام ازدهارا في أسواقها ، فكانت متقنة البناء، لكل سلعة سوق خاصة فهناك دار البطيخ والبقل وسوق الرياحين(المقدسي، 1997،32:1)، وسوق الصّاغة والحدادين وسوق العطارين، والخضروات والقماش،بالإضافة لوجود سوق للعسكر، وسوق للرقيق،وقد بلغت الأسواق في مدينة دمشق وحدها مائة وتسعة وثلاثين سوقاً(خير، 1969،169).

وكان إسقاط المكوس عن الناس سمة بارزة في العصر الزنكي والأيوبي، كما كان لوظيفة المحتسب أهمية كبيرة في ذلك العصر، فيقوم بالنظر في الأسواق

والتعرف إلى أخبار أهلها وما يرد إليها من السّلع وما تستقر عليه الأسعار،وتم إنشاء مخازن للصادر والوارد للدولة،(الشيزري، 1946،74)، وكان للتجار نصيب ليس بالهين في الجهاد وتجهيز الحملات ضد الفرنج بأموالهم وأنفسهم.

وبرع الشّاميون في ضروب الصناعات منها ما يحتاجونه في حياتهم اليومية كالغذاء والألبسة ومنها ما فرضته الظروف السياسية عليهم متمثلة بدخول الفرنج كالأسلحة والآلات الحربية .

ولاقى أرباب الصنائع والحرف التشجيع والاهتمام من الأتابكة والأيوبيين فانتشرت صناعات القماش والنسيج والزجاج والمجوهرات في حلب، ووُجد الطباخون والشواءون والحلوانية، وهناك القصابون – وهم الذين يقومون بذبح الأغنام – واشترك في الأخيرة المسلمون واليهود والنصارى وهناك صناعة الورق الملون وصناعة الجبن والهريسة واللبن والنّفط، والذّهب والصّابون ووصفت الّسروج المصنوعة في غزة بأنّها غاية في الحسن.

هذا ولم يصب الزراعة عصر الحروب الصّليبيَّة إلا قليل من العطل حيث يصف المؤرخون بلاد الشّام بأنها جنان في شجرها وثمرها ومائها،ولقد كان الفلاحون المسلمون يؤدون للفرنج نصف الغلة وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط .

وحرص الملوك مثل نور الدّين على رعاية الفلاحين وإصلاح أمورهم وحمايتهم إذ كثيرا ما كانوا يتعرضون للغارات الفرنجيّة ، وتخريب الزروع وحرقها،(الرقب، 1993،32)، وقام نور الدّين بأبطال رسم الإتّبان (566-1171) الذي يؤخذ من أعمال دمشق وضياعها،ومزارعها، وقد انتشرت معظم أنواع المزروعات في بلاد الشّام كالجوز والموز وقصب السكر في طرابلس، والفاكهة في الشوبك، وهناك الزيتون والتين والفستق في قنسرين. وزادت الغلال وغدت حاصلات دمشق والشّام تنقل إلى بلاد الغرب وتكون هذه الحاصلات عونا للمسلمين في مصر أوقات القحط والجدب.

ووجدت بساتين ومزارع خاصة بالأمراء مثل بستان نور الدّين محمود في دمشق،وفي المقابل قاسي أهل الشّام الأمراض وانعدام الأقوات وغلاء الأسعار وتوالي سنين القحط وتسبب ذلك في فناء وهلاك الناس وخروج الأمر عن الضبط

كما حدث سنة (573-1178)، وفي سنة (537-1142) أن فاضت السيول والأنهار وأخربت ما يجاورها، وجاء الجراد فخاف الناس ، ثم عرض لأهل دمشق (547-1152) مرض أهلك كثيرا من الخلق وصعب أمر المغسلين والحفارين لكثرة الموتى.

وتعرضت بلاد الشّام لزلازل أتت على الكثير من الخلق وأخربت العمائر والدور ، فقد خربت الزلازل (533-1138) كثيرا من البلاد ففارقها أهلها وخرجوا إلى الصحراء ، ومن تلك الزلازل الشديدة التي ضربت حماة وشيزر وحلب وكفر طاب وأكثر المدن الشّامية (552-1158) ولم يبق من أهل هذه البلاد وخاصة حماة إلا القليل فكان تحت الردم ما لا يحصى ، وهلك من الصبيان في المكتب الكثير وكان صاحب شيزر قد أقام حفلا لختان ولده ودعا الناس في داره فجاءهم الزلزال فهلك بنو منقذ تحت الردم وهلك من معهم في القعلة(الغزي، 1993،70).

وعلى الرغم من ثقل وطأة الحروب وشدتها واستغراقها قرنين من الزمان إلا أنّ المجتمع الشّامي لم يعدم وسائل الترفيه والتسلية فعاش البعض حياة الترف واللهو وأقبل على الشّراب(الحموي، 1981،20) واقتناء الجواري الحسان مع وجود المغنياتوتعددت الاحتفالات منها عيد الفطر والأضحى وشهر رمضان والمولد النبوي والسنة الجديدة كما احتفل الأمراء بختان أولادهم وهناك أعياد النصارىوالشّيعة .

وأقبل الشّاميون وخاصة الأمراء على الصيد والتنزة قرب شواطئ الأنهار والبرك والبساتينوتولّع أمراء الدولة الزنكية والأيوبية باللعب بالكرة مثل الملك نورالدّين وكان صلاح الدّين يمارس رياضة التسابق على الخيل واللعب بالصولجة والرماية، ولقد تفنن الشّاميون بالعمارة وخاصة المساجد والحمامّات والقلاع والحصون، و تزخر رحلة ابن جبير بالحديث عنها واتقان صنعها.

وتميز الشّاميون ببعض العادات والتقاليد آنذاك منها أنهم يتوخون يوم عرفة ليقفوا في مساجدهم كاشفي الرؤوس إثر صلاة العصر لبركة الساعة ولا يزالون واقفين حتى غروب الشمس .

كذلك تعظيمهم للحاج فإذا وصل ركب الحاج عائدين خرج الناس لتلقيهم نساء ورجالا يصافحونهم وكانت النساء تناول الحاج الخبز فإذا عضّ منه اختطفنه من أيديهم وتبادرنّ لأكله تبركا بأكل الحاج له.

ولأهل الشّام أيضاً تقاليد خاصة في الجنائز إذ يمشون أمّام الجنازة يقرأون القرآن بأصوات شجية وتلاحين مبكية، ومن تلك العادات شيوع ألفاظ التسويد والتقدير في مخاطبتهم بعضهم. ويتحدث ابن شداد عن عادة فرنجية إذا ما أخذت مدينة أو حصن لهم فأنهم يمرغون وجوهم بالتراب(ابن شداد، 1969،163).

ولا بد من عرض شيء من الإصلاحات وعمليات التطهير التي قام بها الأمراء في الدولة الزنكية والأيوبية في البلاد الشّامية والمصرية على السواء، ومحاربة المنكرات والمحرمات والنهوض بالمدن الإسلاميّة، فقد أبطل نور الدّين المكوس على جميع الأسواق والفلاحين ، وكذلك فعل صلاح الدّين مع التجار والحجاج ووقفوا في وجه الزعار والمفسدين وقطّاع الطرق(ابن قاضي شهبة 1971،،26).

وكان الاهتمام عظيما بنشر العدل ورفع الظلم عن الرعيّة، فكان نور الدّين أول من بنى داراً للعدل لهذه الغاية، (المقدسي، 1997،41:1) وكان الحكام يتحققون من صحة الادعاء فكان نور الدّين يطلب الشهود ويطبق العقوبات الشرعية دون تعد ، ويتم الجلوس فيها يومي الاثنين والخميس بحضور القاضي والفقهاء من المذاهب الأربعة، وحرص نور الدّين على رعاية الغرباء والطارئين، فعين للمغاربة زاوية المالكيّة بالمسجد الجامع ، وأوقف عليها الأوقاف، وأنشأ صلاح الدّين سنة (581-1185) داراً للضيوف في دمشق.

أمّا الفقراء واليتامى فبنى لهم نور الدّين في ربوة دمشق قصرا ، ووقف عليه قرية داريا لتكون قصور الفقراء جانب قصور الأغنياء،(علي، 1952،257)، وأقام المكاتب ونصّب جماعة وأجرى الأرزاق والجرايات عليهم وعلى معلميهم في بلاد المسلمين عامة.

وقد تبرع الملوك في هذا العهد لعمارة القلاع في وجه الفرنج كما فعل الملك العادل لعمارة قلعة دمشق سنة 604-1207(الحموي، 1981،56)، كما تم حفر الرمل

على السّاحل واستخراج الماء العذب(الأصفهاني، 1987،57:3) وترتيب الجند الإسلامي وتدريبه، وصناعة الأسلحة وإعداد سبل النصر والدفاع عن البلاد الإسلاميّة.

ثانياً: الشّاعر: حياته ونسبه.

تكاد تجمع المصادر على أنّ اسم الشّاعر هو فتيان بن علي بن فتيان بن ثمّال أبو محمد الأسدي، وأضاف ابن خلّكان (الحُريمي)، ولعلها تحريف، وقد لُقّب بالشّهاب أو شهاب الدّين (الموصلي، 1990،532:5).

وقد ولد فتيان الشّاغُوريّ سنة (534) هـ في مدينة بانياس، في حين ذكر مصدر آخر أن ولادته كانت سنة503هـ(الغزوي، 2000،36:1) – وهذا مستبعد – وجاء في بعض المصادر أن ولادته في سنة 530هـ(ابن خلكان،د.ت،26:4)، إلا أنّني أرجح أنّ ولادته كانت سنة 534 هـ، لأنّ ابن الشّعّار الموصلي نقل عن أبي عبد الله محمد بن محمود بن النّجار البغدادي أنه قال: " سألت فتيان بن علي الأسديّ عن ولادته فقال: ولدت في سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ببانياس"(الموصلي، 1990،532:5).

ويبدو من نسبته أنّه ينحدرُ من أصول عربيّة، وأنّه ينتمي لقبيلة (أسد) التي سكنت مدينة دمشق وحولها ، كما يبدو أنّ أسرته انتقلت من بانياس إلى دمشق واستقرت في (الشّاغُور) والشّاعر لم يزل طفلا، ولا نملك أية معلومات عن طفولته الأولى سوى أنّه قضاها في الشّاغُور.

ولعل في هذا إشارة إلى أنّ أسرته لم تكن ميسورة الحال، حيث أنّها لم تتجه نحو دمشق المدينة بل آثرت الاستقرار في إحدى نواحيها ولقد كان لعمل والده في التعليم دور واضح في توجيه ابنه نحو طلب العلم، ومن المؤكد أنّه كغيره من الصبيان قد دخل الكتاتيب التي كانت أبوابها مشرّعة لطلبة العلم في ديار الشّام آنذاك.

وقد تتلمذ فتيان على شيوخ عدة ،كانوا من مشاهير ذلك العصر في مجالات علمية متنوعة وذكرت المصادر عددا من هؤلاء العلماء، فسمع الحديث من أبي القاسم علي بن الحسن الشّافعيّ المعروف بابن عساكر،وأخذ العلم بالعربيّة والنحو عن أبي نزار الحسن بن صافي البغدادي، الملقب بملك النّحاة،وعن أبي اليُمن زيد بن الحسن الكندي،ولعل هذه المعرفة في مراحلها الأولى أهلته لأن يُعلّم الصبيان

الصبيان قد دخل الكتاتيب التي كانت أبوابها مشرّعة لطلبة العلم في ديار الشّام آنذاك.

وقد تتلمذ فتيان على شيوخ عدة ،كانوا من مشاهير ذلك العصر في مجالات علمية متنوعة وذكرت المصادر عددا من هؤلاء العلماء، فسمع الحديث من أبي القاسم علي بن الحسن الشّافعيّ المعروف بابن عساكر،وأخذ العلم بالعربيّة والنحو عن أبي نزار الحسن بن صافي البغدادي، الملقب بملك النّحاة،وعن أبي اليُمن زيد بن الحسن الكندي،ولعل هذه المعرفة في مراحلها الأولى أهلته لأن يُعلّم الصبيان في دمشق،غير أنّه وبعد أن قطع شوطاً بعيداً في الدرس والتحصيل تصدر لإقراء النحو والآداب والعربيّة في الجامع الأموي بدمشق، وكانت له حلقة فيه،كما كلفه ابن عساكر بمتابعة خطباء المساجد في دمشق أثناء إلقائهم الخطب وقد طلبه – بسبب شهرته وسعة علمه – أمراء بني أيّوب لتأديب أبنائهم وتعليمهم العربيّة.

كما طلبه بعض قادتهم مثل بدر الدّين مودود الذي طلبه أن يُعلّم أولاده الخط وقد تتلمذ على يديه عدد من العلماء منهم:الشيخ شهاب الدّين القوصي،وتقي الدّين اليلداني،كما روى عنه بالإجازة عمر بن القوّاس. وإذا جاز لنا أن نعد العلاقة بين الشّاعر وبين من نقلوا عنه أبياتاً أو قصيدة من الشّعر علاقة تلمذة ، فيمكن القول أنّ عدداً من مشاهير ذلك العصر كانوا من تلاميذ الشّاعر.

ويشفُّ شعرُ فتيان عن بعض ملامح شخصيته ومجريات حياته، فقد كشفت بعض أشعاره عن تشيعه، أو على الأقل إنّه كان ذا ميول شيعية، فقد ذكّر بقتل الحسين، وبكاه، وتحدث عن تشتت شمل الشّيعة وأثر ذلك في نفسه،إذ يقول:

لمَ لا أسحُّ بيوم عاشوراء؟ من مقلتي دماً يُما زِجُ ماء
يوماً به قُتلَ الحسين بكربلاء قتلاً حَوَى كرباً به وبلاء
ضحك الأعادي من تشتتِ شَملنا واخجلتي من ضحكهم وبكائي

كذلك ذكر وقعة صفّين بين علي ومعاوي، وما كان فيها من ظلم علي – كرم الله وجهه – على حسب رأيه–، ولعل في انصراف فتيان عن مدح الملك نور الدّين محمود – على الرغم من معاصرته له من ناحية، وعظمة الفتوح التي قادها

وبصماته الواضحة في تغيير معالم العصر في بلاد الشّام من ناحية ثانية –، لعل في انصرافه هذا ما يدل على تشيّع فتيان الشّاغُوريّ، فقد ذكرت المصادر التاريخية الموقف الحازم الذي وقفه نور الدّين من الشّيعة سنة (1148/543) عندما أبطل شعارهم في الآذان (حيّ على خير العمل)، وعاقبهم لسبِّ الصّحابة، هذا ولم يكن فتيان مغالياً في تشيّعه، فقد زخر شعره بمدح الأمراء المسلمين من السّنّة وخاصة أمراء بني أيُّوب .

ولعل المشكلة الكبرى التي كانت تؤرق فتيان الشّاغُوريّ – على الرغم من اتصاله ببعض حكام عصره – هي فقرة وإملاقه، فقد شكا في إحدى قصائده عدم قدرته على إعالة أولاده وتأمين العيش الكريم لهم ، وذلك إذ يقول:

أشكُو إليه جَورَ دهرٍ قاسطٍ ظُلماً فكم كَبَدٍ به كابَدتُهُ
عندي أُطَيفَالٌ كأفرَاخِ القَطَا في مَسكَنٍ كالنَّا فِقَاءِ سَكنتُهُ
أصحو بلا ماءٍ ولا شجرٍ ولا بِرٍّ ولا خَبزٍ لدي أَفُتُّهُ

وتكثر مثل هذه الصورة لأبنائه الصّغار الذين يعانون وطأة الفقر، كما في قوله:

هيهات يأبى الشُّربَ من في قَلبِهِ بَلَبال هَمٍّ بالعيال مُوسوسِ
عندي أويلادٌ كأفراخِ القطا إن بِنتُ عنهم ما لهم من مُؤنسِ

وكثر حديث فتيان عن فقره وحرمانه، لذلك كان يتخذ شعره وسيلة للتكسب، و الاستشفاع لدى حكام عصره، ويرسل إليهم المدائح مبينا لهم ما هو فيه من الحاجة والعدم، مستعطفا إياهم، حتى أنّ صلاح الدين قرر له راتباً شهرياً مقداره خمسة دنانير، بيد أن ذلك لم يكفه، فأمّل أن تصبح عشرة . فقال:

وغايةُ البُغيَةِ أن تجعلَ تلكَ الحسناتِ الخمسَ عندي عشرا
أو أن أراها أُشبَهَت سُيوفَهُ يَردنَ بيضاً ويَعُدنَ حُمرا

(محمد)، حيث جاء في ديوان فتيان في الصفحة الأولى منه- بتحقيق أحمد الجندي-: " هذا ما وجدته بخط والدي أبي محمد فتيان بن علي بن فتيان بن ثمّال الأسدي النحويّ من شعره لنفسه رحمه الله(الشاغوري، 1976،1) وبهذه الكنية عرّفت به المصادر التي ترجمت له.وعلى الرغم من فقره، فقد كان ذا ميل قوي للّهو، والتمتع بمباهج الحياة، وتكثر عنده الأشعار الدالة على ذلك كقوله:

وشربناها جَهَاراً لم نَخَف من ثمانينَ ولا من أربعين

ويصف فتيان بعض مجالس الشرب والندماء ، فيقول:

سقى اللهُ ديراً فيه نادمتُ قسيسا فكان شريفاً ظاهرَ البشر قدّيسا
سقاني مُدأمًّا قُرقُفاً ذهبيّةً كأنَّ على حافاتِها الدُّرَّ مَغروسا
مُعَتَّقَةً من صَيدَنَايا سَبَأتُها يهزُّ بها الرَّاووقَ أعطاف إبليسا

وقد تعرض فتيان – كغيره من الشعراء والأدباء في مختلف العصور- للوشاية والسِعاية، ومحاولة الإيقاع به عند الأمراء والأعيان، مما جعله يحسّ بالغربة في دمشق ، فقد عاب عليه أهلها أنه من بانياس. فقال:

وما ألومُ حسودي في تقوّله زوراً ولم أفعَل ولم أقلِ

كذلك قوله:

وإن عابني أنّني من بانياسَ فَكَم عيشٍ نعمتُ به في ظلِّها الخَضِلِ

وقد وقف فتيان حيال ذلك- الجوع والفقر والحرمان والسعاية-موقف سلبياً من الدهر والصديق وحظّه الساكن، فنجد في بعض قصائده- وخاصة لاميّته التي عارض فيها الطغرائيّ- أنّه يؤمن بأنَّ حكمَ الدهر نافذٌ ولا يمكن منه فرار، فالأيام دول، ولا بد للإنسان من عثرة ، وما هو – الشاعر- إلا قليل الحظ فيها.ويحذر فتيان من الصديق الذي لا يمكن الوثوق به ، ولا يشبهه إلاّ بالنار التي تحرق ما حولها، وهناك من يعيب

الآخرين وينسى نفسه ، فهؤلاء يرفضهم الشاعر ويفضّل هجرهم، فلا أنس بقربهم، ويؤمن فتيان بالقناعة ، وإرضاء النّفس وعدم إتباع الهوى، ويحثّ الشاعر على التقوى والعلم المقرون بالعمل، والاقتداء بالسلف، فالإنسان بعقله وعلمه لا بقوته وبطشه، ومن يعطه الله لا يمنعه أحد

وقد توفي فتيان الشّاغُوريّ في الثّاني والعشرين من المحرم سنة ستمائة وخمس عشرة،(الموصلي،1990،2:533). وقد ورد هذا التاريخ في جميع المصادر التي ترجمت للشاعر، غير أنّ ابن تغري بردي أورد روايتين ذكر فيهما تاريخ وفاة الشّاغُوريّ: ففي أولاهما يتفق مع باقي المصادر في أن سنة (615 هـ) وهي سنة وفاته، بينما يرد في صفحة أخرى من الكتاب نفسه- النجوم الزاهرة- أن وفاة الشّاغُوريّ كانت سنة (627 هـ)(ابن تغري،1936،6، 274،622).وقد دفن الشّاغُوريّ في مقابر باب الصغير بدمشق، ودفن في هذه المقابر عدد من أجل العلماء والشيوخ والفقهاء والأعيان، منهم: أبو البيان"الزّاهد، وملك النّحاة،وابن عساكر.

الفصل الثاني

الدراسة المضمونية لشعر الشاغوري:

أولا : الشعر ومجالات الحياة السياسية والاجتماعية

شعر الجهاد

كان الصراع بين المسلمين والفرنجة صراعاً عقائدياً بين الإسلام والنصرانية، وقد أشارت المصادر التاريخية الإسلاميّة القديمة والحديثة إلى ذلك فنجد في رسائل الفتح والاستنفار أمثلة على ذلك، فسفارة القاضي الهروي إلى بغداد عند دخول الفرنج بيت المقدس سنة (492 هـ) – مهما كانت نتائجها – فإنّها تصوّر المشاعر الإسلاميّة المشتركة نحو هذا الصّراع، كما تدل على فهم واحد له وللقضية التي يدافع عنها الشّاميون(ابن الأثير، 1980،8:189).

وهذا ما نجده في الرسائل التي وجهها الأمراء المسلمون حين كان الفرنج يحاصرون المدن الإسلاميّة،وتوضح هذه الرسائل بأن السلطان لم يقم إلاّ لنصرة دين الله، كما وصفت المسلمين بأنهم جنود الله في الأرض، وترجو من الله أن يمدهم بجنود السماء، وخيل المسلمين خيل الإيمان، يقابلها خيل الكفر والمشركين الأنجاس وحزب الشيطان.

وقد قام زعماء الفرنج من القساوسة والبابوات في الغرب بالدعوة لهذه الحرب، واستغلال الشعور الدّيني عند شعوبهم أبشع استغلال، فأذكوا نار التعصب الحاقد ضد المسلمين، وحرّضوهم على تحرير القبر المقدس منهم، فقام الرهبان والقسوس والفرسان،ولبسوا السّواد وأظهروا الحزن على خروج بيت المقدّس من أيديهم سنة (583هـ) ، وقد، ودخلوا بلاد الفرنج، يحثهم على الأخذ بالثأر، وقد صور المسيح– عليه السلام– وجعلوه مع صورة عربي يضربه والدماء على صورة المسيح، وقالوا لهم: إن هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين.(ابن الوردي، 1996،2:152).

وقد كانت الجيوش الصّليبيّة المتجهة نحو الشرق تغير وجهتها نحو الأندلس لمساندة الصليبيين الذين يقاتلون المسلمين في بلاد الأندلس، ويدل هذا على أن الحرب التي خاضها الصليبيون في المشرق والمغرب ذات طابع واحد ، فقد جعل ابن الأثير ابتداء الحروب الصّليبيّة في الأندلس ثم امتدت إلى الشّام.

وقد دلل شعراء الحروب الصّليبيَّة على طبيعة هذا الصراع، فقد رأى فتيان الشّاغُوريّ أن انتصار صلاح الدّين على الفرنج في حطين، وفتحه بيت المقدس، إنّما هو انتصار لعباد الله المسلمين وأهل التوحيد على عبدة الصليب وأهل التثليث.

لله يوسُفَ كم أَغاث وغاثا وأبادَ من عَبَد الصّليبِ وعاثا
أهداهم التّثليث للتّوحيد يوم لقيتهم فقسمتهم أثلاثا

وقد وضع فتيان انتصار المسلمين على الفرنجة في بيت المقدس في إطاره الإسلامي الشّامل، فقد ربط هزيمة النصارى بطقوس عقيدتهم، وانتصار المسلمين بشعائر دينهم، مستخدما لذلك ألفاظا مرتبطة بعقيدة طرفي النزاع مثل (عبدة الصليب، أهل التوحيد، التثليث)،وتكثر مثل هذه المعاني في شعره ، وذلك إذ يقول:

إذا أشرقت للأشرف" القيلِ رايةٌ تنكّست الصُّلبانِ بالكسر تنكيسا
وقد نَطَقَت بالنّصر بيضُ سيوفِهِ كما أخرَسَت رناتُهُنّ النّواقيسا

كما وصف الفرنج (بحزب الشرك، عبدة عيسى، عصب الكفر)، بالمقابل تظهر صورة البطل المسلم، فارس المسلمين، وناصر الإسلام، مردي الكفر.

ويحمدُهُ عيسى على فَتَكاتِهِ بِجَحفَلِهِ في أمَّةٍ عَبَدة عيسى
ما زال يرضي الله سرّا وجَهرَةً ويُسخِطُ في كل المواطن إبليسا

فاعتقاد الشّاعر ببطلان عقيدة الفرنج الذين يؤلّهون عيسى، يجعل قتلهم، والفتك بهم إرضاء لله تعالى، وسبب شكر عيسى عليه السلام للملك الأشرف ويؤكد الشّاعر فهمه الإسلامي الشّامل للصراع حيث يجعل الملائكة تقاتل جنود الكفر، ورد صلاح الدّين دين الله بعد قطوبه،ووأد الشرك، حينما جاشت جيوش المشركين، فيربط بين الفتح الصلاحي لبيت المقدس والفتوح الإسلاميّة الأولى.

فلقد وأدت الشّرك يوم لقيتَهم وعدوتَ للإسلام عين المُنشرِ
ورددت دينَ الله بعد قطوبِه بالمسجدِ الأقصى بوجهٍ مسفرِ
ما قوبلوا بجحافلٍ بل قوتلوا بملائكَ حضرت بأيمن محضرِ
وأعدتَ ما أبداه قبلك فاتحاً عمروٌ فأنت شريكه في المتجرِ

ويلاحظ أن فتيان الشّاغوريّ لم يواكب أحداث الصّراع على نحو منتظم في شعره، على الرغم من طول الفترة التي عاشها، ومعاصرته للكثير من المعارك المظفرة، وقد يصعب على الدارس تعليل ذلك غير أنّه يمكن القول إنّ قصيدة الجهاد عند فتيان هي قصيدة مدح أصلا، لم يكن مأخوذا فيها بتتبع المعارك قدر اهتمامه بالتغني ببطولة الممدوح وأمجاده.وقد مدح الشّاعر صلاح الدّين بعد فتح بيت المقدس سنة (583 هـ) بقصيدة طويلة، قرر منذ بدايتها بأن الممالك والدول لا تقوم ولا تبنى إلا بالسيف والجهاد، فقال:

تُبنى الممالك بالوَشيجِ الأسمرِ والبيضُ تلمعُ في العَجاجِ الأكدرِ
وبكلِّ أجردَ شيضمٍ يعدو إلى الهيجاء بمُقتَحَمِ المهالك مِسعرِ

وبين الشّاعر كيف استنقذ البيت المقدس عنوة من المشركين الأنجاس، وقد تمكن من ملك السواحل الشّامية وتحريرها في ثلاثة أشهر.

لِمَ لَم تَدِن له شوسُ الملوكِ وقد ملك السواحل في ثلاثة أشهرِ
واستنقذ البيت المقدّس عنوة من كل ذي نجسٍ بكلِّ مطهَّرِ

وبعد فتح البيت المقدس، وحديث الشّاعر عن مجريات الحدث، تطلع إلى فتح مدينة صور، وإلحاقها بأنطاكية والبلاد الساحلية، وتعد صور من أقوى البلاد الساحلية التي تملكها الفرنج، وأشدها حصانة،لكنها لن تعجز الملك النّاصر، فلن تكتمل فرحة المسلمين إلا باسترداد جميع البلاد من أيدي الفرنج.

هل تُعجِزنَّ صُورٌ مليكاً ناصراً لله أين يَسِر يُسَرّ وينصرِ
ما سورُ صورٍ عاصمٌ منه وهل سورُ المعاصمِ عاصمُ لمُسَوِّرِ
فانهد لصورٍ فهي أحسنُ صورةٍ في هيكلِ الدُّنيا بَدَت لمُصَوِرِ
لما ملكتَ حصونَ أنطاكيّة يئسَ الصَّليبُ وحزبُهُ من مُظهِرِ

وتم فتح قلعة كوكب في سنة (584 هـ) في فصل الشتاء، بعد حصار أكثر من مرة، وبنى حائط ليستتر وراءه السلطان من النشاب، كما كانت الرياح شديدة،

وقام النّقّابون والرماة بنقب سور القلعة حتى سقطت، ويهنئ فتيان الأمير بدرالدّين مودود والي دمشق بهذا الفتح إذ يقول.

عجبتُ ولكن لاتَ حينَ تَعَجُّب وهل عَجَبٌ بَدرٌ يَهنأُ بكوكبِ
مجانيقُه إن تمسِ ضيفان بلدةٍ يصبِّحنَ من فيها بيومٍ عَصَبصَبِ

لا يعجب فتيان من فتح كوكب، فمجانيق الأمير إن دكت بلدة حولتها إلى أيام خوف ورهبة، ويبان جمال التورية في (بدر وكوكب) فالممدوح يستحق هذا الفتح وهذه القلعة.وعندما حاصر الفرنج دمياط، تصدّى لهم السلطان صلاح الدّين و هزم جيوشهم الجرّارة.

ولما أتوا دمياطَ بالبحرِ طامياً وليس له من كثرةِ القومِ ساحلُ
لا غَروَ أن عاد الفرنج هزيمةً ولو لم تعُد لم يبقَ للشِّرك ساحلُ

وقد كثرت غارات الفرنج على حمص في سنة (604هـ)، فخرج الملك العادل من مصر وقصد عكا ثم سار إلى حمص، فارتدَّ الفرنج عنها خائبين، فيسخر منهم فتيان، ويشمت بهم ويتوعد قائلا:

قُل للفرنجِ الأولى في عُقرِ دارهم غُزوا فجاست خلال الدّار غاراتُ
عودوا إلى حمص فالسيفُ الذي زَهِقَت به نفوسكم يدعوا بأن تأتُوا

وعندما ملك نجم الدّين بن العادل خلاط سنة (604هـ) خافه الكرج وتابعوا الغارات عليه، فاستنجد بالملك الأشرف، وقد خرج عليه بعض العسكر الخلاطية، فجدّ الأشرف في قتالهم حتى تسلم خلاط، ويتحدث فتيان عن هؤلاء القوم، وقد تنّمروا وتكبّروا وهم غير واثقين من النّصر، وقد رمى الأشرف الأبراج بجنوده، ويشبه الشّاعر الخلاطية والكرج بفرعون الذي تكبّر حتى أغرقه الله، وعرفه بأنه لا يملك حولا ولا قوة.

سائل خَلاط به غداة تنمرت مُرَّادُها بِتَغَشمُرٍ و تَغَطرُسِ
مَلِكٌ رمى بجنوده أبراجها فكبت على الأذقان كبو المُعتَسِ
شَقُّوا العصا وتفرعنوا فأتاهم موسى فأهلك كل فرعون مُسي

هم أوضعوا يا ويحهم في غيهم فتعثرت أقدامـــهم في الأروؤس

ويجعل الشّاعر فتح خلاط عبرة للفرنج، ولأهل البلد العاصين، فقــد زلــزل الفتح الأرض من ماردين حتى قبرس.

فخِلاط زَلزَلَ فتحُها الأرضين حتى ماردين إلى جزائر قُبرُسِ

وقد نزل الفرنج على الطُّور في سنة (614هـ)، فوقف الملك الأشرف فــي وجههم، وحشد الجيش من عرب وأكراد وأتراك، وكان للمسلمين نصر مــؤزر ، فأعاد الملك الأشرف القداسة لهذا المكان، بعد أن سبقه اليها سيدنا موسى – عليــه السلام–

على الطُّورِ ناجى اللهُ مُوسَى بنصرهِ فالبِطُّورِ ثَغرُ السِّلمِ أصبحَ مَحرُوسَا
عِمَارتُه تخريبُ أعمَــار عابــدي الصَّليب وفيه أُسِّس النَّصر تأسيسا

ويستغلُّ الشّاعر النَّصر على الفرنج ليحث الملك الأشرف على متابعة الجهاد وإعادة المدن التي استولى عليها الفرنج المشركون، مثل صور وعكا وتفليس.

مُظَفّر دين الله كُن في زماننا سليمان لما جاءه عرش بلقيسا
ورد إلى الإسلام صورا وعكَّةً وسائرمدن المشركين وتفليســـا

و إذا ما أراد فتيان مدح الأمراء، أو السُّخرية من الفــرنج، يتــذكر تــاريخ الفتوحات الإسلاميّة الأولى، فقال في مدح صلاح الدّين

فلا يوم إلا فيه فتح مجدد تزيد به بشرا وتهدي لنا بُشرى

ويمدح الأمير سرا سنقر، ويذكر شجاعته أمَّام الفرنج في عكا والمرج.

سَل به عَكَّةَ والمَرجَ وقد دَفَنَ الأعداءَ في الخَندَق دَفنا
فكأنَّ القومَ لمَّا ساقَهُم ساقَهُم للنَّحر يومَ النَّحر بُدنا

ولقد وصف فتيان الشّاغُوريّ معارك المسلمين مع الفرنجة، وقد حرص فــي هذه الأشعار على وصف نتائج المعارك، لا نقل تفاصيلها ، وعنــدما يعمــد إلــى

التفاصيل فلا تكون في تصوير الأحداث، وإنَّما في تصوير قوة الجيش، وكثرة عدده، ووصف آلات القتال، ووصف القتلى. ويصف معارك السواحل، وتحرير البيت المقدس، بأنَّه ملحمة عظيمة فيها من الفرسان ما لا يحصى، وكانت المعارك فيها شديدة ، فلا يسمع إلاّ وقع السيوف بأنواعها، والسهام بأشكالها، فمن كثرة القتلى كان الدم كالبحر، بعد أن جاشت جيوش الفرنجة، واهتاجوا، فيصفهم بالبحر المتدافع الموج وهم يحملون أنواع الأسلحة المختلفة، وهنا تظهر صورة الجيشين، من حيث العدد والعدة.

أنشأتَ مَلحَمَةً تُملُّ مقاتـــــلَ الفرسان بالعدد الذي لم يُحصَرِ
إعرابها ضربُ الحُسَامِ ونَقطُها وقعُ السِّهام وخطُّها بالسَّمهري
والحبرُ بحرٌ تَغَطمَطَ موجُـــهُ إذ ليس ثَمَّ سوى الثرى من دفتر
والبيضُ تنثر وهي غيُر خَواطبٍ والسّـُمر ناظمةٌ وإن لم تَشــعُرِ
والخيلُ مُطرِبَةٌ كأنَّ صَهيلَـــــهَا شَدو النَّحيلةِ في نسيب البحتري

ومقابل ضخامة الجيوش الفرنجية هذه، تظهر صورة الجيش الإسلامي العظيم، والمؤزر بملائكة السماء، تقاتل إلى جانبه، وهذا الجيش يملأ الصحارى ولا يوازيه جيش الهرقل و لا كسرى، ولا قيصر.

فلجيشـــهِ ولعَزمِهِ مُتَضائلٌ جيشُ الهِرقلِ وعزمة الاسكندرِ
ما قوبلوا بجحافل بل قوتلوا بملائكة حضرت بأيمن محضر
شكت الفيافي ثقلَ وطء جيوشه فبناهم رصفا كبســط المَرمَــر

وبعد هذه الموازنة بين الجيشين ، ينتهي الشّاعر إلى نتيجة المعركة:

فهناك لم يُرَ غير نَــجمٍ مُقبلٍ في إثر عِفريتٍ رجـيم مُدبـِرِ
ولوا وعقبان المــنون مُسِفَّــةٌ والخيلُ تَعثرُ بالقــنا المُتكــسّـِرِ
فالقوم نهبٌ للِّســباعِ تَنُوشَــهم من كلِّ ذي نابٍ وصاحب مِنسَرِ
فمن الذي من جيشهم لم يخترم قبلا ومن من نجيعهم لم يؤســـــر
حتى لقد بيعت عقائـــل أُرهِقَت بالسبــي بالثمنِ الأخَسِّ الأحقَــرِ

آضت أسودهم ثعالبَ ذلّةً | فهم فرائس كلِّ ليثٍ قَسوَرِ
ماتوا بغُلَّتهم وأروى منهم | بيضَ الصَّوارم بالدَّم المُثعَنجِرِ
صرعى كأنَّهم تماثيلٌ من الكَافُورِ | من دمهم رُدِعن بعنبرَ

ويصور الشّاعر في هذه الأبيات الجيش الفرنجي كالعفاريت منهزمين والجيش المسلم يحاول اللحاق بهم، وقد قُتل من العدو عددٌ كبير، فأصبحوا غذاء للسّباع والجوارح، وهم ما بين قتيل وجريح وأسير، ويسخر الشّاعر منهم وهم في حالة الذعر، والخوف والجبن، وقد تبدل حالهم وانقلب بعد المواجهة مع المسلمين فقد أتوا المعركة كالأسود، لينقلب بهم الحال إلى ثعالبٍ تفر من المعركة، ولم يتمكنوا من حماية نسائهم، اللاتي بِعنَ بعد السبي بأبخس ثمن، حيث بيعت المرأة بخمسة دنانير،وقد ماتوا مفجوعين بغلتهم على ما ضاع من أيديهم.

وتكرر صورتان في شعر الجهاد عند فتيان الشّاغُوريّ، الأولى: وهي صورة الطَّير المتتبع لمسير الجيش الإسلامي، فقد عرفت السِّباع والطيور انتصار المسلمين في معاركهم، والثانية: تبدُّل حال الفرنجة أثناء القتال عما كانوا عليه قبل مواجهة المسلمين.

وقد سخر فتيان من جند الفرنج أشد سخرية عندما جعل ذكورهم يتمنون أنهم خلقوا إناثا، حتى يتجنبوا مواجهة المسلمين، وقد يكون السبب بما رأوا ما فيه سباياهم من رفاهية مع الجند المسلمين، إذ يقول:

لمَّا سَبَيتَ نِساءهم وقَتَلتَهُم | ودَّ الذُّكورُ بأن تكون إناثا

ولا يرى فتيان أي مقارنة بين الجيش الإسلامي والفرنجي في معركة الطُّور، فقد سار جيش المسلمين يقوده الملك الأشرف، ويرافقه الطير، وتظهر عظمته عندما يبتلع كل ما يعترضه.

وجيشٍ لهام حلَّقَ الطَّيرُ فوقَهُ | ستُضحِي لكُم أحشاؤهنَّ نواويسا
ورَمي سِهَامٍ عن قِسيٍّ بِنَبضِهَا | تُغَادرُ مَن رَامتهُ في التُّربِ مَرمُوسَا

ويكشف الشّاعر عن عناصر الجيش الإسلامي، وأسلحته فهناك الأكراد والأتراك والعرب.

كأنَّ كُمَاةَ التُّركِ عندَ نِزَالِهم ملائكةٌ بالشُّهبِ ترمي الأباليسا

وقد جَالت الأكرادُ بالسُّمرِ والظبى تصيد الملوك الصِّيد والأسد الشوسا

إذا العرب الشُّم الأنوفِ تَنَمَّروا به كان كلٌّ بالمُثَقَّفِ دعّيسا

وأمَّا الجيش الصليبي ، فقد ترك لنا الشّاعر الحكم عليه في هذه المعركة، ومن المؤكد أنَّه يتصف بالجبن والخيبة والهزيمة، وفي قصيدة أخرى قدم لنا الشّاعر صورةً ساخرةً لهم، فهم يشبهون الضأن الممزق شملها، وأصبحت النتائج معروفة ، فهي إمّا قتيل أو جريح أو أسير.

وتتكرر مثل هذه المعاني في قصائد عديدة، حيث مدح صلاح، وقد وصفه بالأسد، والجندي المسلم لا يخاف المخاطر، فيدخل ساحة القتال بوجه مشرق يقابله الجندي الفرنجي الضعيف المنهزم، وقد وصف فتيان ملك الرُّوم (بالكلب) الذي خاب أمله في دخول دمياط، فرحل ذليلا كالنعام الجافلة.

رجا الكلبُ ملك الرُّوم إذ ذاك فَتحَها فَخَابَ فأمُّ المُلكِ والرُّوم هابلُ

وبالانتقال من صورة الجيش الإسلامي إلى صورة البطل المسلم، فإنَّني لا نضيف شيئا جديدا، فالممدوح في شعر فتيان هوالفرد البطل، و منه يستمد الجيش القوة والشجاعة والنصر، فتبدو البطولة جليّة، وإن كنا نجد وصفا وحديثا عن الجماعة.

ويسعى القائد المسلم إلى إرضاء الله تعالى بدوامه على الجهاد، والفتك بالعدو، كما هو حال الملك الأشرف، إذ مدحه فتيان بقوله:

مازالَ يُرضِي الله سِراً وجَهرَةً ويُسخِطُ في كلِّ المَواطِنِ إبليسا

وهذا القائد يشارك جنوده القتال مشاركة فعليّة، فهو بمنزلة السِّنان من الرُّمح.

وجيوشُهُ كالرُّمحِ وهو سِنَانُهُ عن قَلب جَيشٍ ما له إحجام

وقد يصاب القائد في المعركة، فهو يتمنى الشهادة كما تمناها الملك المظفر تقي الدّين عمر:

رجا قتلَهُ الملكُ المُظَفَّر في الوغى شهيداً ونارُ الحَرب طائرةُ الشَّررِ

ويتصف القائد بالبراعة في القتال، وحسن التخطيط، ودائما يظهر في صورة الشُّجاع، فيصاب العدو بالرعب بمجرد ذكر اسمه، أو سماع خبر مسيره. وقال فتيان في صلاح الدّين:

يَغزُو الملوكَ الرُّعب قبلَ مَسِيرِهِ في عسكرٍ أفتِك به مِن عَسكَرِ

وقد بالغ الشّاعر في هذا الوصف، حيث يُهزم الرُّوم في الصين والأشرف في بعلبك كما يُهزم الفرنجة في الأندلس وصلاح الدّين في الشّام.

ولقد مدح فتيان هؤلاء الأبطال، ووصفهم بصفات تقليدية، كالشَّجاعة، والكرم والعدل، والحلم، وقد كان التقوى والصلاح لا بد منها في صورة البطل المسلم، لذلك نحس بفعل قوى النصر الغيبيَّة من إرادة الله وسيطرته في معاضدة البطل فالقضاء والقدر والرُّعب والملائكة كلها جندٌ عاملة في حماية راية الإسلام، وهي عون لصلاح الدّين في حروبه

ولأن البطل في المفهوم الإسلامي ينكر ذاته بالتضحية والفداء من أجل المبدأ والجماعة، فإنَّه يستحق الدعاء المخلص، فيدعو الشّاعر للأمير بدر الدّين مودود بالبقاء في عزه وفي صده للأعداء.

فلا زالَ طولَ الدَّهرِ صَدراً لمَجلِسٍ ونَحراً لأعداءٍ وقَلباً لمَوكِبِ

ودعا لصلاح الدّين:

جَزَاكَ إلهُ النَّاسِ خَيرَ جَزائهِ وخَوَّلَك الدُّنيَا وأوزَعَك الشُّكرَا

وإذا ما وصف الممدوح بالأسد واللَّيث والسَّحاب فهو أمر مألوف، ولكننا نجد وصفا يخرج عن المألوف، وذلك عند وصف الشّاعر الملك الأمجد بهرام شاه وجعله يتجاوز البشريَّة بأن خُلق من نور الله تعالى لا من الماء المَهين:

فهو بالعدلِ بالإحسانِ بالجودِ والإنصافِ في الحكمِ قَمِين

مَلَكٌ بَل مَلَكٌ صِيغَ من النُّورِ نُور العَرشِ لا الماءِ المَهِين

وأمام هذه الصُّور حرص الشّاعر على انتخاب المعادل التاريخي من السجل الإسلامي الحافل بصفحات مشرفة للبطولة، والتضحية في الفتوح الإسلاميّة فألحق أبطال الحروب الصّليبيّة من المسلمين بالخلفاء والصَّحابة، وقد وصل حد الاستغراق الذي شمل به الشّاعر الكرام السابقين إلى المقارنة بالأنبياء عليهم السلام. فالملك غيّاث الدّين غازي بن الملك صلاح الدّين، كالمهدي في عدله وإحسانه وفضله:

كأنَّما صِفَاتُهُ في العدلِ والإحسان والفضل صِفَاتُ المَهدِي

وقد أعاد صلاح الدّين للمسجد الأقصى ثوبه الإسلامي، مثلما فعل ذلك قبله عمرو بن الخطاب، فهما شريكان في الأجر والثواب:

وأعدتَ مَا أبداهُ قَبلَكَ فَاتِحاً عَمروٌ فأنتَ شَرِيكُهُ في المَتجَرِ

وها هو صلاح الدّين يعيد سيرة النبي يوسف عليه السلام، والملك الأشرف موسى أعاد سيرة موسى عليه السلام. وقد جعل فتح صلاح الدّين للقدس كل ما قبله نسيا منسيا:

أهدى صلاحُ الدّينِ للإسلامِ إذ أردى قُبَيلَ الكُفرِ ما لم يُكفَرِ

وما يشبه صلاح الدّين أحمد الكاملي في فتوحاته، إلا بالنبي- صلى الله عليه وسلم- وهذا الفتح كفتح مكة:

بالكاملِ انتَظمت أمورُ الدّين والدُّنيا بأحسن مَنظَرٍ ومَتجَرِ
ولديه أحمد كالنبي محمد في فتح مكة بعد فتح خيبر

والمتفحص لإطار الصُّورة العامة للبطل، يجد أنها ترتكز على قيم معنوية أكثر منها مادية، فالأبعاد النفسية والخلقية أوضح من الأبعاد البدنية.

ومقابل هذا الصُّور العريضة والمفصلة للبطل المسلم، تظهر صـــورة القائـــد الفرنجي في حدود ضيقة، لا تتعدى تصـــوير هزيمتـــه، وحالـــة الـــذل والجـــبن والاستهزاء به والسخريَّة منه.

ففي حطين أُسِرَ عددٌ من قادة الفرنج، منهم: البرنس أرنـــاط، وابـــن الملـــك هنفري، وقد عرض عليه السلطان صلاح الدّين الإسلام، لكنَّه رفض، وقـــد قـــام السلطان بقتل أرناط بعد أن شرب الماء في حضرة السلطان دون إذنـــه، عنـــدما شرب قبله الهنفري:

سَقَتِ الماليك الكرامَ مُلوكَهُم كأساً به سَقَتِ اللئيم الهنفرَي

وعندما خرج صلاح الدّين إلى قائد الفرنجة (نرزيه)، لم يتمكن الأخير مـــن الوقوف بوجه السلطان ، الذي أراده:

بَرزت إلى نَزِريه عزمتُكَ الَّتي مَدَّت يداً عن مَطلَبٍ لم يقصُر
فناولَته بأيـــدها مـــن بـــاذخٍ في الأفق ذي مَثَلٍ يروعُ مُسُيَّرِ

وتكرر صورة القائد الفرنجي الذليل والمنهزم أمَام القائد المسلم، الذي رمـــى بالمركيس في قعر الموت:

وليس لموسى من عَصاً غيرُ صارمٍ تكب على الأذقان ضرباتِهِ الروسا
فيرمي انكِبارا بانكِدارٍ إلى لظـــى ويركسُ في رُكنِ المنية مركيـــسا

وقد نعت فتيان القائد الفرنجي بنعوت ساخرة، بقصد الانتقـــاص مـــن قـــدره والاستهزاء به، وخلق حالة من عدم الثقة به، فقد وصفه بالكلب، الذي خاب ظنـــه في دخول دمياط، وجنى على نفسه، فثكلته أمه:

رجا الكلبُ ملك الرُّوم إذ ذاكَ فَتحَهَا فَخَابَ فأمُّ المُلكِ والرُّوم هابلُ

ومن العناصر الأخرى التي تحدث عنها الشعر، خلال شعر الجهاد: الأسلحة بأنواعها المستخدمة في المعارك كالمنجنيق، والسيوف والرماح والدروع والنشاب.

فذكر المجانيق ذات الأثر الكبير في المعارك، وخاصة أثناء الحصار للقلاع والحصون، فمجانيق الأمير بدر الدّين مودود خلّفت الدّمار والخوف والرّهبة في أي بلد تدكها، كما يصفها الشّاعر بقوله:

مجانيقُهُ إن تمسِ ضيفان بلدةٍ يُصَبِّحنَ من فيها بيوم عَصبصَبِ

وكل سلاح له بارع فيه، فيصف براعة التُّرك بالرَّمي والرشق بالنبال والأكراد يجولون بالرماح، وأمَّا العرب الشمُّ، فهم كالنمور في المعارك حاملين رماحهم المثقفة، فهؤلاء هم عناصر الجيش الإسلامي، الذين هبوا للجهاد، وصد الفرنجة في الطور بقيادة الملك الأشرف موسى بن العادل:

كأنَّ كُمَاةَ التُّرك عند نِزالهم ملائكةٌ بالشهب ترمي الأباليسا
وقد جالت الأكراد بالسمر والظبى تصيد الملوك الصيد والأسد الشوسا
إذا العربُ الكِرامُ تنمَّروا بِه كان كلٌّ بالمثقَّفِ دِعيسا

وقد كانت راية صلاح الدّين صفراء، دل على هذا مجموعة من الأبيات ولكن هذه الراية ترجع من كل معركة حمراء اللون، لكثرة قتلى أهل الكفر:

راياتُهُ صفراً تَرِدنَ وتنثني حُمراً تَمُجُّ نَجِيعَ آل الأصفرِ

ونجد في هذا الشعر الدور المهم، الذي قام به في التحريض على الجهاد، من خلال قصائد المدح للأمراء والقادة المسلمين، أو قصائد التهنئة بهذه الفتوح وتذكيرهم بالمدن التي لم تُحَرَر بعد، وما زالت تحت وطأة الغزو الفرنجي.فقد دعا الشّاعر الملك العادل ، للاستمرار في الجهاد وفتح المدن المتشوقة للحكم الإسلامي تحت إمرة العادل ، فيقول:

إذا سلَّ سيفُ الدّين ماضي عزمه انثنت خيفةً يومَ الهِياجِ القواضبُ
فَسِر وافتح الدُّنيا التي بك أصبحت مشارقُها مشغوفة والمضاربُ

ويدعو صلاح الدّين أيضا إلى فتح صور وذلك برفع معنوية المسلمين والتقليل من شأن المدينة التي كانت تمتاز بالحصانة، ثم يرغّب الملك بهذه المدينة الجميلة:

هل تُعجزَن صورٌ مليكاً ناصراً لله أيـن يَـسِر يُسَر ويُنصر
ما سورُ صورٍ عاصِمٌ منه وهل سورُ المعاصِم عاصِمٌ لمُسوِّر
فأنهد لصورٍ فهي أحسنُ صورةٍ وفي هيكل الدُّنيا بدت لمُصوِّر

وقوله يستثير الملك الأشر ف:

ردّ إلى الإسلامِ صُوراً و عَكَّةً وسائرَ مُدنِ المُشركين وتفليسا

المدح :

كَثُر شعرُ المديح عصر الحروب الصَّليبيَّة، والمتتبع لأشعار هذا العصر يجد أنَّ الشعراء مدحوا أبطال هذه الحروب وخلدوا قادتها في كلِّ مناسبة، كما مدحوا أعيان ومشاهير ذلك العصر، وغيرهم.

ولدى دارسة شعر الشَّاغُوريّ، نجد كثرة المدح والممدوحين من أبطال الحروب مثل صلاح الدِّين،ـ والملك الأشر ف شاه أرمن ، والملك العادل والأمير بدر الدِّين مودود وغيرهم، وسوف أتجاوز عن تحليل ودراسة هذه الأشعار التي قيلت في هؤلاء الأبطال، لأنني أسلفت الحديث عنهم ضمن موضوع شعر الجهاد ولذلك سأدرس في هذا القسم: المدائح النبوية، ومدح آل البيت من ناحية، ومدح العظماء والأصدقاء من ناحية ثانية.

1- المديح النبوي:

لقد اختلف الدارسون في نشأة المدائح النبوية، فمنهم من يرى أنها ابتدأت ببداية الدولة الإسلاميّة والأيام الأخيرة من حياة الرسول –صلى الله عليه وسلم- حيث كان حسَّان بن ثابت ينشئ المدائح فيه، كذلك تقدم لاميَّة كعب بن زهير دليلا على أنَّها من مقدمات المدائح النبوية، (سالم، 1996،65)يرون أنَّ المدائح النبوية فن

استحدثه المصريون في القرن السَّابع الهجريِّ،(رشـيد، 24،2002) هو المقبول فـديوان حسان وابن والشَّاغُوريّ لم تخلُ من مدح –النبي صلى الله عليه وسلم–.

وقد ازدهرت المدائح النبويَّة بأثرٍ من هذه الحروب ، حيث عرف الشُّـعراء أنَّها حرب دينيَّة يشنها الغرب الأوروبي على الرسالة المحمدية ورسـولها الكـريم فاستحثوا الناس للدفاع عن دينهم (ضيف،د.ت،49).

و أمَّا موضوع هذه الدراسة وشاعرنا فتيان الشَّاغُوريّ، فلم يخص النبيَّ عليه السَّلام سوى بقصيدة واحدة، وهي كما باقي القصائد عن شعراء هذا العصر، تتصف بقصر النفس، وعدم التفصيل في الحديث عن صفات الرسول الكريم، ومآثره ، حيث جاءت القصيدة في خمسة وعشرين بيتا، سأتناولها حسب محاورها الرئيسة.

يفتتح الشّاعر قصيدته– متجنبا المقدمة الغزليَّة–بوصف استعداده للرحيل وما بلغ به الشوق والحنين للدِّيار الحجازيَّة وساكينها، فمحمد –عليه الصلاة والسـلام– خير من تسعى إليه القدم، ثم يصف الإبل التي تقل الزُّوار وما تعـاني مـن تعـب ومشقة في قطع الفيافي، وهي صابرة على الطعام، تكاد لشدة شوقها وسرعتها فـي الوصول لديار خير الخلق تطير عن الأرض، وقد أصبح ركبانها كالسِّهام تنطلق من أكباد القسي:

إليك المطايا أعنـقت يـا محمدُ إلى خيرِ من يسعى إليه ويحفدُ
إلى الذروة العلياء من سرهاشم عليهم سلامي كلَّ وقـتٍ يرددُ
قطعن إليك البيد كالبحر آلهاً وظـرنهـا من تحته يتوقـد
إذا حُدِيَت عيسٌ بذكراك أسرعت كأن لم يمس الأرض رجل ولا يد
شواحبُ ألوانٍ براهـا لُـغوبها بفيفاء منـها الأبيض اللون أسود
وركـب عل أكوارهن كأنَّهم سـهامٌ بأكبـاد القسي تشـدد

وقـد أضـفى الشّـاعر علـى الرواحـل المشـاعر الإنسـانيَّة ،بتشـوقها وتلهفهـا للـديار الحجازيَّـة، تـدفعها إلـى ذلـك العاطفـة الدِّينيـة، وكـان حـب الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام، والهيـام بـذكره، وزيـارة ضـريحه، والتعطـر بأريجـه والتعبـد فـي جـواره،و التهجـد فـي ظلالـه

كان ذلك أمنيةٌ للشَّاعر، فقد تمنى أن يزور قبر النبي الكريم راجلا، ويمرغ خده بترابه الطَّاهر في تلك الدِّيار. إذ يقول:

وَدَدتُ بأنِّي زُرتُ قَبركَ راجلا وقبَّلتُ تُرباً أنت فيها مُوَسَّدُ
ومرغتُ خدِّي عندَ قبركِ ضارعَاً بأرضٍ حَصاها لؤلؤ وزبرجدُ

وقد أصبح ذكر الأماكن المقدسة تقليدا ثابتا في المدحة النبوية لدى االشُّعراء فظهر لديهم ولدى المتلقين مشاعر البعد الدِّيني والحنين إلى مهبط الوحي.

ومن خير الله بالمسلمين ولطفه، أن منح سيدنا محمد – عليه الصلاة والسَّلام- الشَّفاعة، والجود والكرم، وهو النبي الذي حوى كلَّ فضلٍ ومعروفٍ وعزٍ وسؤدد.

وذاكَ ضريح يحسد المسك تربه فكل شريف القدر لا شك يحسد
به حل كلُّ الجود والمجد والندى وفضلٍ ومعروفٍ وعزٍ وسؤدد

والشَّفاعة هي مبتغى الشّاعر الأول، فيتوسل برسول الله ويطلب المغفرة من الله تعالى، فيبعث سلامه وحنينه إلى رسول الله مع الزوار، فيشكو وجده ، راجيا قبول الشَّفاعة فيه يوم المحشر.

ألا أيُّها الزُّوار بالله بلِّغوا سلامي إليه وأرفقوا وتأيدوا
وقولوا فتيانُ يَشكُو صَبابَةً إليك ووجداً ليس يَبرُدُ
يرجى غدا تبريد غلته إذا شفعت له في الحشر المعرض المورد

وقد ورد مدح الرسول صلى الله عليه وسلم في ثنايا القصائد الأخرى، فهو يرى أن مدح النبي الكريم وآل البيت هو السبيل إلى رضى الله تعالى، ثم يذكر معجزته القرآن الكريم. ويريد الشّاعر بمدح النبي أن يتوصل إلى مدح آل البيت.

وأمدح سادةً فيهم مديحي يكون إلى رضى الله السَّبِيلا
محمد بن عبد الله خيرُ الأنام إذا هم افتخروا قَبِيلا
رسولُ الله بالقرآن وافى فكان أجلَ مبعوث رسولا

وفي قصيدة يمدح فيها الملك الأشرف بن العادل، يمدح الشّاعر الرسول – عليه السلام–، فخير الشِّعر ما قيل فيه –عليه السلام–، ومن معجزاته أنَّ ربَ السماوات خاطبه بواسطة جبريل عليه السلام:

خيرُ القَريضِ مدحُ مَن مشى وخيرُ من عدا به حِصَانُهُ
محمد النبي ذي الإحسان والذي أجَاد مَدحَهُ حَسَّانُهُ
خَاطَبه ربُّ السموات العُلا إذ جبريلُ الوحيُّ تُرجُمَانُهُ

ويستحث الشّاعر الأصدقاء للتشرف بزيارة الديار الحجازية، والوقوف بمدينة الرسول– عليه الصلاة والسلام– فهناك حاجته ومبتغاه، ففي يثرب خير خلق الله نبي الهدى:

على السَّيرِ حثَّاهَا الغَداةَ سَوَاهِمَاً فلم يدنُ أوطار النفوس سواهَا
إلى أن تنيخاها على بابِ يَثرِب فـثَمَّ مُنَانَـا عندهَـا ومُنَاهَـا
بها خيرُ خلق الله شرقا ومغربا نبي الهدى الثاوي بِطِيب ثَرَاها

وقد مدح فتيان آل البيت والصَّحابة في قصيدة مستقلة، وأثبت بعض أبيات المدح في ثنايا القصائد الأخرى، ومدحهم في إحدى قصائده، بعد أن افتتحها بالمقدمة الغزلية التي لم نرها في مدح النبي، ثم تخلص إلى مدح النبي ثم مدح آل البيت، فهم خير الناس، وأكرمهم، وأغزرهم علما، فسادوا بذلك الخلق:

نبيٌ آلهـم خيـرُ آلٍ وأكرَمَهُم وأغزرهم عُقُولا
فمدحهم لدي أراهُ فَضلًا ومدحُ النَّاسِ كُلُهم فُضُولا

وقد أجاز الشِّيعة التوسل بآل البيت، وقالوا بشفاعتهم، لأنهم الأوصياء على النبوة، ولذلك فقد توسل فتيان بهم، فهم حصنه المانع وسبيل نجاته يوم الميعاد.

هم حِصنِي الحَصِينِ وليس سُواهُم لي غـداً ضـلا ضليلا
وهم يومَ المَعَادِ لنا غياث بهم نرجو إلى اللهِ الفَوزَ الوصولا

ويكاد الشّاعر يمدح علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه– ويفصِّل في حياته أكثر مما فصَّل في مدح الرسول– عليه الصلاة والسلام–، ويشير الشّاعر إلى

شجاعة علي -كرم الله وجهه- في الحرب، وهزيمته للأحزاب والمشركين، كما يذكر سيفه ذي الفقار، الذي صدع به الأبطال، كما يكشف لنا عن معتقد الشيعة وما يروونه من الأحاديث عن علم علي، فلا مساجل له في ذلك، ويذكر زهده في الدُّنيا وما ورد عنه في رفض مغرياتها:

وهل أحدٌ بِمَكرُمَةٍ يُسَامي أبا حَسَن وفاطمة البَتُولا
عليٌ هازمُ الأحزاب قِدمًا وقد هاجت له الهيجاء الذُّحولا
هناك رمى الرؤوسَ عن الهَوادِي وأسمعَ سيفه الجَمعَ الصليلا
وقَطَّع ذو الفقار فقارهم بالظّبَاة ولا فلول ولا كُلولا
عليٌ غادرَ الأبطالَ صَرعَى وأخرسَ عن شقاشقها الفُحولا
هل أحدُ يساجله بعلم أيُغلَبُ علم مَن وَرِثَ الرَّسولا
عليٌ طَلَّق الدُّنيا ثلاثا وما حَابى أخاه بها عقيلا

وبعد هذه الأبيات من المدح، يبكي فتيان الحسين ويشكو فقده، ثم يشير إلى أن مدح آل البيت حق واجب، به تنزل القرآن.وقد مدح فتيان الصحابة رضوان الله عليهم، فأبو بكر الصاحب المختار، له في الناس تفضيل، وعمر حامي قبة الإسلام وناشره، وعثمان الشهيد، وعلي أشجع الناس في ساحات الوغى، ثم باقي الصحابة أجمعين:

على السَّيرِ حُثَّاها الغداةَ سَواهِماً فلم يدنُ أوطار النُّفوسِ سِواها
إلى أن تنيخاها على باب يثربَ فَثَمَّ مُنَانَا عندها ومُنَاهَا
بها خيرُ خَلقِ الله شرقاً ومغرباً نبي الهدى الثاوي بِطيبِ ثَرَاها
وصاحبُه المُختَار أفضلَ مَن مشى على تُربِها من بعده وحَصَاها
وثانيهِ في ترتيبه عمر الذي حَمَى قُبةَ الإسلامِ حين بناها
ومن بعدُ عُثمانُ الشَّهيدُ فإنَّه ثَوى مِن مقاماتِ العُلا بذُرَاها
وبعد علي أشجع الخلق في الوغى إذا حُميت تحتَ العَجاجِ لَظاهَا
ومن بعدُ باقي الصَّحابةِ إنَّهم لدى مِلَّةِ الإسلام قُطبُ رَحَاها

عليهم سلامُ الله ما ذر شارق وما طلعت شمس ولاح سناهـــا

وبذلك يؤمل الشّاعر أن ينال من مدح الرسول والصحابة- رضوان الله عليهم- الشفاعة والمغفرة، فهو يتوسل للخلاص من مصائب الدنيا وهلاك الآخرة فتحدث عن صفات الرسول وهديه ومعجزته، وكذلك صفات الصحابة ونشرهم للإسلام وتمييزهم عن باقي الخ

2 - مدح العظماء من المعاصرين:

شارك فتيان الشَّاغُوريّ شعراء عصره في مدح العظماء من الأمراء والوزراء والأدباء المعاصرين له، وكان من هؤلاء الأمراء والملوك: الملك الأمجد صاحب بعلبك، والأفضل علي بن صلاح الدِّين، الملك غياث الدِّين غازي والأمير زين الدِّين قراجا، وبدر الدِّين مودود وغيرهم، يليهم الوزراء: كالوزير صفي الدِّين بن شكر، والوزير صفي الدِّين عبد الله بن علي، ويعقوب بن محمد الفخري، ثم القضاة أمثال القاضي زكي الدِّين بن محي الدِّين وضياء الدِّين بن الشهرزوري ومحي الدِّين بن الزَّكي ونجم الدِّين بن أبي عصرون، وهناك زعماء القبائل العربيَّة كالأمير سيف الدِّين بن تبل، ثم الأدباء كابن عساكر، وتاج الدِّين الكندي، والعماد الاصفهاني، وابن القلانسي وغيرهم.

وقد لاذ فتيان في مدائحه بالرسوم المتبعة، ويكاد لا يحيد عن منهج رسمه التقليد الشعري خلال القرون الماضية، فالشّاعر يفتتح قصيدته بمقدمة غزلية، يتغزل فيها بامرأة، تكون صورتها رهنا بما يكنه الشّاعر لممدوحه، ورهنا بالعلاقة بينهما، أو بطبيعة الممدوح ونسبه، وصفاته الخُلقية والخَلقية.

وقد تطول هذه المقدمة، بحيث تزيد عن نصف القصيدة، وقد تقصر فتبلغ بضعة أبيات، ثم يتخلص الشّاعر إلى المدح في مجموعة من الأبيات، ويبدأ بوضع أنموذجا لمثل أعلى، يحوي من الصفات، ما يمكن قبوله وتصديقه، وما يشكل تحديا صارخا للواقع، فتظهر مهارة الشّاعر في التعليل، والتسويغ، كي يمكن للسامع قبول هذه التشبيهات والصور والصفات.

ويتبين الفرق بين ملك وآخر من خلال بروز صفة أو صفات مميزة في واحد دون الآخر، ثم أنَّ ثمة اختلافات لا بد من ذكرها، أولها: أن مدح الملك يتضمن

صفات لا يتضمنها مدح الوزير وأن للقاضي صفات لا تليق إلا به، وليس هذا حكما مطلقا أو عاما، فقد نجد في بعض القصائد أن القضاة أو الوزراء قد فاقوا الأمراء والملوك في صفاتهم.

وللوقوف عند قصيدة المدح عند فتيان من حيث بناؤها ومضمونها، سندرس بعض النماذج ونبدأ بالقصيدة الأولى التي قالها في مدح الملك الظّاهر غياث الدِّين غازي بن صلاح الدِّين.

وقد جاءت القصيدة في سبعة وثمانين بيتا، تغزل فيها الشّاعر في ستة وعشرين بيتا، ومن ثم وصف مدينة دمشق وأنهارها ومعالمها في تسعة عشر بيتا، وتخلص إلى المدح في ثلاثة أبيات، ثم جاء المدح في ثلاثة وثلاثين بيتا، ثم عرض حاله وتحدث عن نفسه في ثلاثة أبيات، وختم قصيدته بالدعاء للممدوح.

يتغزل فتيان بامرأة تركية، ويصف حسنها ، ومظاهر جمالها، وما فعلته به فقد ضاقت به الدنيا بما رحبت، ويستطرد الشّاعر ويفصّل بمظاهر الحسن والجمال عند هذه المرأة، فنواظرها كأسان، وخداها ورد، ومبسمها تفاح، فهذه الظبية التركية حوت كل معاني الحسن، فلا يلام الشّاعر إذا ما ترك التّغزل بالعربيّات النّجديّات:

مَن مُنصفِي مِن بديعِ الحُسنِ مُعتدلِ القوام أحوَى كَحِيل الطَّرف شاجِيهِ

ظبيٌ من التُّرك لم تترك لواحِظهُ شيئا من الحُسنِ إلا وهي تَحويهِ

دعني من الرشأ النَّجدي فـــالرَّشأ التُّركي أُقِعَت فـــي أشراك حُبِّيهِ

وهذا الجو الذي ينشره الشّاعر في فاتحة قصيدته لم يأت عفوا، إنَّه استنزال للظَّاهر غازي كي يصغي بكل سمعه، ويحاول الشّاعر في تصويره لهذا الجمال أن يضع كل شيء جميل يمكن أن يستقدم الظّاهر في حلب إلى دمشق، ويزيد على هذا الوصف لجمال النساء، ما وصف به دمشق، إذ جعلها كالجنة أمام الظّاهر.

وقد استعار الشّاعر في وصفه للمرأة التُّركية مظاهر الطبيعة الجميلة المتمثلة بالورد والتفاح ، لما تبعثه من راحة وهدوء للنفس، كذلك استعار لها بعض الصفات من أدوات الحرب والسِّلاح، فلواحظها كالسِّهام، وحواجبها قسي،وكأن بالقارئ يسرع إلى القول: هذه هي دمشق التي تتجمل للظاهر، وتأبى أن تكون لغيره.

ويُكثر فتيان من التغزل بالنساء التركيات، وذلك لأن جل ممدوحيه أتراك وهذا ما يتناسب من المقدمة مع نسب الممدوح، ففي مدحه للأمير سعيد الدِّين بن بشارة، يطلب ترك ذكر الأماكن العربية، ويعلن أن العربيَّات لا يبلغن حسن وجمال بنات الترك:

دع الحِمَى ولياليِ الضَّالِ والعَلَمِ وعدِّ عن ذكرِ أيامٍ على أضَـــمِ
ولا تقل حبَّذا نجدٌ و ســـاكنـــه ولا تُعَرِّج على سلمى بذي سَلَمِ
قَدكَ اتَّئب ما بناتُ العُربِ إن زُهِيَت بالحُسنِ مثلُ بناتِ التُّرك والعَجَمِ

ونجده في مدحه الأمير سيف بن تبل أمير العرب، يفتتح قصيدته بمقدمة غزلية تتناسب ونسب الممدوح العربيّ، إذ ذكر الأماكن في الجزيرة العربية مثل نجد ونعمان والخيف والجرعاء والعلمان، وابتعد عن التغزل بالتركيات في دمشق:

إنِّي إذا لاحَ البَريقُ يمانِـــي لأهيمُ من طَرَبٍ إلى نَعمَانِ
ويشوقني نجدٌ وظلُّ المُنحَنى والخِيفُ والجَرعَاءُ والعَلمَانِ

ولم يكن هذا التزام من الشّاعر وقاعدة يسير عليها في شعره، ففي مدحه للأمجد بهرام شاه تغزل بامرأة عربيّة بدوية، وذكر الأماكن في الجزيرة
ومطلع هذه القصيدة:

ضُرِبت لزينب بالغُوَيرِ خِيامُ فعلى الغُويرِ وساكنيه سلامُ

ويضع الشّاعر أمام الملك الظّاهر مزيدا من المغريات، لاستقدامه إلى دمشق، فيصف دمشق التي فضلها الله على البلاد، ويتذكر أبوابها، ونوافيرها، وأنهارها وجسورها، وبساتينها التي تتوسطها القصور، وأنواع الفاكهة، والكروم، فلا حزوى ولا كاظمة ولا قرى الجزيرة تنافسها في حسنها، فهي الأولى بضم واستنزال الظّاهر: فقال:

وأذكُر دمشقَ فإنَّ الله فضَّلها على البلاد بما لا يُمتَـــرى فيـــه

إلى أن يقول:

تلك المرابعُ لا حَزوى وكاظمةٌ ولا العـــقـــيقُ بَواديـــه بِواديـــه

أقلُّ شِعبٍ تراه في دمشق يوا في شعبَ بَوَّان وافي الفخر والتية

وظاهرة تنافس وتحاسد المدن لوجود أحد الملوك فيها شائعة في أشعار فتيان، وأكثر ما تكون هذه المنافسة بين بغداد ومدن الشَّام، فهذه هي بغداد تحسد حماة، مقام القاضي أبي البركات بن أبي عصرون.

بغدادُ حاسدةٌ حماة به ودجلتها لعاصِيهَا تُطيعُ وتَخدِمُ

وتتمنى بغداد أنَّها جزء من دمشق، ولا تعزى إلى العراق،لتنال جود الأمير بدر الدِّين مودود ووصاله:

سقى الله دمشق غيثا مُحسِبَا ومن مُستَهلٍ دِيمَةِ دِفَاقِها
تودُ زَوراءٌ العراق أنَّها منها ولا تُعزَى إلى عِرَاقِها

ولما كانت دمشق كلها بساتين، وكروم، فالظّاهر غازي هو فصل الربيع بين الخلق، وهو البحر ترتوي منه البلاد، يغني العفاة، ويسيل واديه كرما وجودا:

الظّاهرُ الملكٌ الغازي الغياث متى يُعذلُ على الجُودِ يَزدد في تَناهِيهِ
كأنَّهُ في الوَرى فَصلُ الَّربيعِ زهت فـــي العام أيامه حتى لياليـــــــه
يُغنِي عُــفاة نـــداه سِيــبَ نائــلـــه جُوداً ويُغنِى عِداه ســيل واديــــهِ
وقد عَجبــتُ لبــَحرٍ طابَ فارتوت البلادُ منهُ وربعِي ليـــس يسقـــيهِ

والعدو حول الظّاهر غازي كالنعام عند اللقاء، تهابه الخيل والفرسان، فارس شجاع، بعزمه أمن الثغر، وهو حامي البلاد الإسلاميّة، يمتاز حكمه بالعدل والإحسان، كل المالك ترجو أن تكون له مُلكا، لذلك لا بد أن يرتحل الشّاعر إليه ليعوضه عما فاته من حظوظ، فيكون الترحال إلى صاحب حلب الذي له من اسمه نصيب وافر، فاسمه هو غياث:

تَهابُه الخَيلُ والفُرسانُ هيبتَها ذا اللبدتين جَثَا في الغِيلِ يَحميِه
لمَّا رأو أنَّهم من خوفِ سَطوَتهِ نعامُ دَوٍّ تبارى فـــي نـــواهيــهِ
بني به اللّه للإسلامِ في حَلبٍ سوراً منيعاً تعالـــى الله بأنيـــهِ

أساسُه العَدلُ والإحسانُ يدعمُهُ والنَّصرُ يُثنِيه والتَّــأييد يُعلــيهِ

وعندما يخرج الشّاعر إلى المبالغة في وصف الممدوح، فإنَّه يختار الصور المناسبة لذلك، باحثا عن معنىً جديدٍ فنراهُ يصف الظّاهر غازي بأنَّهُ صفوة الخلق، ولا أحد يضاهيه، يقصر البدرعن مساجلته حسناً وعلواً، والشمس دونه، ولو اجتمعت الأمم وجاءت من فرس وعرب وترك وعجم وروم، لم تبلغ عشر أياديه وجوده، ويستصغر الشّاعر عظماء الملوك إذا ما ذكر الظَّاهر غازي:

يا صــفوةَ اللهِ من بدوٍ ومن حضرٍ أنتَ الذي لــم يكن خَلقٌ يُضاهِيه
فالبدرُ يقــصُرُ باعــاً أن يســاجلــه والشَّمسُ تَصــغُرُ قدراً أن تباهيه
لم يبلغ الفُرسُ والأتــراكُ والــعَرَبُ الماضونَ والرُّومُ عُشراً من أياديه
من تُبَّعٌ من أنوشروان من هو سلجوق ومَن قَيصــرُ فــي أهــلِ نَادِيــه

ومثل هذا التحدي الصّارخ للواقع في المبالغات التي يلجأ إليها فتيان، يتكرر في شعره، فقد جعل الملك الأمجد مخلوق من نور العرش، وآخر يتجاوز السَّحاب جودا، وهناك من يسابق الرياح:

مَلِكٌ بل مَلكٌ صِيغَ من النُّور نُورُ العَرشِ لا الماءِ المَهين

ويدعو الشّاعر بالهلاك لمن يتوجه بالمدح لغير الملك الظّاهر، أو وصفه بالحمد فهو جدير بالشكر، ومدح الناس، ثم يختتم هذه القصيدة بالدعاء للظاهر، بأن يحوز ما حازه الأنبياء، من ملك وعمر مديد:

تَباً لنا أن مَدَحنا غيرَه ملكاً بالحَمدِ والمَدحِ والتنويه ننويهِ
وهو الجدير بشكر النَّاس كُلّهم ومدح كلِّ امرئٍ جادت قوافيهِ
فنال مُلكَ سُليمان وعاشَ به ما عاشَ نُوحُ سعيداً في تَرَقِّيهِ

وأمَّا القصيدة الثانية فقد قيلت في مدح الوزير صفي الدِّين نصر الله بن القابض، وجاءت القصيدة في تسعة وثلاثين بيتا، استهلها بالمقدمة الغزلية في ستة عشر بيتا ، ومدح الوزير في باقي القصيدة.

ونتبين الفرق بين هذه المقدمة ومقدمة القصيدة في النموذج السَّابق، فلا نرى الشّاعر في هذه القصيدة يُفَصِّل في حسن المعشوقة، وهو إن كان معلقا بها فلم تحظ بقوة العاطفة الدافعة له كما هي حاله في المرة الأولى، وبعد تشكيه من هذا الفراق، وحظه القاصر من محبوبته، يعوّل الشّاعر على الوزير أبي الفتح، ليخرج من هذا الجو الانفعالي إلى مدح الوزير الذي يمنح الأمان للشَّاعر، ويعوضه عما أصابه فهذا الوزير انقادت له الدنيا، وسادها، ويبالغ الشّاعر فيما يطلقه على الوزير من مدح حين يجعل الأفلاك تسير بأمره، ولو شاء لأوقفها:

فهو الذي ما المَرءُ يوماً آمــن مِن دَهرِه ما لم يَصلُهُ أمَانُهُ

لقد أصحبت للصَّاحب الدُّنيا وما فيها وما شيء يخاف حِرَانهُ

لو قال للفَلكِ المُدير لسائر الأفـــ لاك قِــف لــم يَتَفِق دَوَرانُهُ

وما جود الغيث وعطائه، وشجاعة الليث وإقدامه، إلا صغائر أمام إقدام الوزير وعطائه وجوده، وهذه الصفات تُعيي وتُعجز أصحاب البلاغة وأرباب القلم عن حصرها، ومن أرفع الصفات في الوزير: تواضعه وإحجامه عن المتكبرين ومن صفات الوزير الواجب توافرها في كل من يعتلي الوزارة أنَّه خبير بعواقب الأمور، صائب الرأي، معين للسلطان في أمور السياسة والحكم:

فالغيثُ والليثُ اللذان هماهما أقمَاهُــما إقــدامُــهُ وبــنَانُــهُ

قِسُ المَقالِ لديه يُمسي باقِلا عَيًّا ويُحـــصر دونـَـه سحبانُــهُ

متكبرٌ عن أن يُرى متكبراً فلذاك مُكِّن في العــُلاء مكانُــهُ

متواضعٌ وهو المَهِيبُ يخافه من كان ثَبتاً في الحُروبِ جَنانُهُ

طِبٌ بأعقابِ الأمورِ وعنده من كلِّ ذي أمــرٍ مشكلٍ بُرهَانُهُ

ويختتم فتيان قصيدته بالدُّعاء للوزير صفي الدِّين ، بدوام سلطانه.

لبست به الدُّنيا ثيابَ جَمَالها أبداً ودامَ دوامها سُلطانُهُ

ولكي تتضح ملامح فن المدح عند فتيان الشَّاغُوريّ، سأعرض أنموذجا آخر لفئة أخرى من ممدوحي الشّاعر وهم القضاة، فقد قال فتيان قصيدة يمدح فيها

القاضي محي الدِّين محمد بن علي القرشي، افتتحها الشّاعر كالمعتاد بمقدمة غزلية ومطلعها:

ما فَتَكاتُ البيضِ والسُّمرِ الأسل يَسطُو بها يومَ الوَغَى كلُّ بَطَل
أفتَكُ مِن لــواحظٍ غــازلــننا بِهِنَّ غُزلانٌ تهادى فــي الكِلل

يشكو الشّاعر في هذه المقدمة فراق المحبوبة، وما فعلت به الأيام بعدها وهذه الفتاة الجميلة أوقعت الشّاعر في حتفه، وقد تضمنت هذه المقدمة مجموعة من الأمثال والحكم، التي تتناسب وما يصبو إليه الشّاعر من مدح القاضي وكسب وده من ناحية، ومع مقام المدح من ناحية ثانية، فالممدوح قاض، قد يقول رأيا أو ينطق حكما، ولا يطاوع قلبه فيه عقله والقاضي لا يسمع لقول الوشاة ولا يقبله، فالمثال الأول يتناسب والقول" مكره أخوك لا بطل" والمثال الثاني يتفق والقول " آليت ألا أسمع فيهم واشيا"، ولأنَّ الممدوح عربي النَّسب ، فقد جعل الشّاعر المرأة التي يتغزل بها عربيَّة من بني ثعل، وجاء هذا في البيت الذي تخلص فيه الشّاعر إلى المدح.

ويبدا الشّاعر بمدح القاضي محي الدِّين، فلفظه أمضى من السِّهام فيمن يناضله، وهو العالم البارع في الجدال، فخصومه كالبغاث أمامه، له يد في كل العلوم وهذه بعض أدوات القضاء التي يحتاجها القاضي ويتزود بها.

بل لفظُ محي الدِّينِ أمضى أسهُماً في صَدرِ من ناضَلَهُ إذا استَدَلّ
حَبْر لديهِ من وراء الدَّهرِ في الجِد ال يَلقى البــحرَ بالمَاء الوَشل
خُصُومُهُ مثلُ البُــغَاثِ ذِلَّـــة وهو يُرى الأجدل في عِلمِ الجَدَل
يَضربُ في كلِّ العُلومِ في اليد البيضاءِ لا ســوء بـــها ولا شــلل

وتظهر البراعة في الشِّعر حينما يشبِّه الشّاعر لفظ القاضي الذي ينطق بالأحكام بالسِّهام وعلمه بالبحر وخصومه بغاث، ومن صفات القاضي ومتعلقات القضاء ، الإخلاص والوفاء والبلاغة، وهو جواد كالغيث، علمه أغزر من بحر خِضَمّ، وحلمه أرزن من كلِّ جبل، وكلام محي الدِّين مقرون بالعمل، فلا ينطق إلا خيرا ولا يعمل إلا بما نطق.

شاوِرهُ أو حَاورهُ أو جاور تجد قيساً وقُسا والسَّموأل الأجلّ
استغفر الله وأين منه في السُّؤدد أربـــاب المـــكـــارم الُأول
قدمتَ خير مقدم فكنت كالغيـــ ث أتى من بعد جَدبٍ فَهَطَل
أغزرُ من بَحرٍ خِضَمٍّ علـــمُهُ وحِلمـــهُ أرزنُ من كلِّ جَبَل
يفعلُ خيـــراً ويقـــولُ مثـــلَهُ وكـــم رأيـــنا قائلا وما فَعَل

ويستغل الشّاعر سفارة القاضي صفي الدِّين من دمشق إلى حلب، كما يستغل اسمه " محمدا" ليستفيد منها في توريته، ليظن ظان أن الشّاعر يتحدث عن النبي محمد –عليه الصلاة والسلام–، فالخير ساع برفقة القاضي محي الدِّين، ونازل أينما نزل.

قُدُومهُ سرَّ دمشقَ بعدما ساء وجوه أهلها حين رَحَل
فالخير ساع معه حيث سعى مصاحـــبا ونازل أين نـــزل
يا حلب البيضاء قد وفاك من محمد في دهرنا خير الرُّسل

ويمدح فتيان القاضي بحل المشكلات، وقد أصبح بين العلماء كملة الإسلام بين الملل حين شرَّفها الله، ويختتم الشّاعر قصيدته بالدعاء للقاضي بالبقاء في سعادة ونصر عاجل.

ذاكَ هو القاضي الذي أقلامُهُ بـــها الأقاليم تُساسُ والدُّول
كـــم مُشـــكِلاتٍ حلَّها ببابِهِ فكانَ مفتاحا لـــما منها انقفل
يا محي الدِّين ابقَ في سعادةٍ ما سار في البلادِ ركب وقَفَل

ويمكن القول أن قصيدة المديح قد طغت على شعر فتيان الشَّاغُوريّ، وقد جاء الكثير من الفنون الشعرية ضمن المديح كالغزل، والفخر، والوصف، وغيرها. وكان الغرض الأول من المديح التكسب، ولم تخل مدحة من مدائح الشّاعر للأمراء والوزراء من طلب العطاء،والحديث عن صفة الجود كثير في مدائح فتيان، فلا تكاد تخلو منه مدحة واحدة،سواء أكانت مدحة في أمير، أو وزير، أو قائد، أو قاضي، أو غيرهم.ونجد أن الشّاعر في مدحه الملك المنصور فروخ شاه قد ابتدأ قصيدته بالحديث عن شجاعة الملك وجوده على الناس عامة، حيث يقول:

لعُفَاتِهِ وعِداتِهِ من جُــودِهِ وجنودِهِ الَّسراء والضَّراء
إبداؤه بالجود تُلفى ماهرا والعّودُ منه يُخجِلُ الإبداء

وبعد أن سجل الشّاعر مكارم الممدوح، يربط بين هذا المديح وبين التكسب،حيث يخص نفسه بالاستجداء ، والطلب ، إذ يقول:

وهو الذي أرجو نداه وعنده لمؤمليه لن يخيبَ رَجَاءُ
فعليه من بعد الإله مُعَوّلي وغناي منهُ لم يشُبهُ عَنَاءُ

ويطلب فتيان من الملك العادل بن أيوب راتبا شهريا فيقول:

وإني لأرجو منه عَطفَةَ مالكٍ على ضيمِ ملوكٍ له الفقرُ ضاربُ
فَجُد لي برزقٍ كلَّ شهرٍ مُعَجَّلٍ أنالك ربُّ العرش ما أنت طالبُ

وقد جعل فتيان لشعره سوقا، يباع ويشترى، ولمدائحه ثمنا، فعليه قول الشّعر وعلى الممدوح دفع الثمن. فقد قال في مدح شمس الدّين قابيا:

ولا السَّحاب هامِياً ربابُهُ مُنبَجِساً مُثعَنجِراً مُنسَكبَا
قامت له السُّهولُ والحزونُ إجلالا وحلَّت فرحـــا به الحُــبَا
يوماً بأندى من يمينهِ إذا وافاهُ من يسألهُ أن يَهبا
نُهدي له المديحَ في أوراقه فنأخذ الوَرِقَ به والذَّهبا

وقد طغى كرم الممدوح على السحاب، وقد أهدى اليه الشّاعر المديح لينال منه المال، وتكثر الأمثلة على تكسب الشّاعر في مدائحه، سواء صرَّح بذلك أم لم يصرّح.والناظر في مدائح فتيان الشَّاغُوريّ يجده يستهلها بالمقدمات الغزلية والطّللية، كما قد تستهل بالحكمة، أو الدخول بالمدح مباشرة كالمدائح التي قالها في النبي – صلى الله عليه وسلم–، ومدائح آل البيت، وقد اتسمت هذه المدائح بالمبالغة وكان الشّاعر في مديحه يتصور شخصية مثالية تتحلى بصفات ومقومات كثيرة تتمثل في أرقى الفضائل الخَلقية والخُلقية

النّزعة الاجتماعيَّة :

1- صور من الحياة الاجتماعيّة

كان للشِّعر الشَّامي في القرن السَّادس الهجريِّ صلة وثيقة بالحياة العامَّة، التي تعجُّ بالمشكلات الاجتماعيَّة والاقتصاديّة، وغيرها وتصدّى بعض الشُّعراء للدفاع عن قضايا الناس، وهمومهم، كذلك عبروا عن معاناتهم الذاتيّة، وصوَّروا عيشهم، ومن هؤلاء الشُّعراء: فتيان الشَّاغُوريّ، الذي تّجَلّت سَعة تجربته وغناها، مما كان له أثر واضح في شعره، فقد عاش حياة الحرمان، وكان على تماسٍ مباشر مع الطّبقات بمختلف مستوياتها بفضل عمله في التعليم، ونتيجة لكلِّ ذلك فقد بدت النّزعة الاجتماعيَّة واضحة في شعره.

اتّسمت الحياة الاقتصاديّة في القرن السَّادس الهجريّ في بلاد الشَّام بالفساد وسوء التوزيع في بعض مراحلها، إضافةً إلى توالي سنوات القحط والجدب والغلاء كالّتي في عامي (573 هـ و 574 هـ)، وتعكس هذه الأخبار سوء الوضع الاقتصاديّ والاجتماعيّ آنذاك، والذي ينعكس بدوره على طبقات العامة، أمَّا الخاصَّة فكانت تنعم بأموالها ولهوها، وقد برزت هذه الظاهرة في الشِّعر الشَّامي، وكان فتيان الشَّاغُوريّ أحد هؤلاء الشُّعراء المحرومين، واستفرغ قسما من شعره في وصف فقره وإملاقه وتعاسته وسوء حظه، وما كان يعيشه من حاجة متصلة، وحرمان دائم وعجز عن توفير الرزق لأبنائه.

ها هو ذا يشكو فقره للأمراء والوزراء، فقد حُرِمَ خيرهم، في حين حظي به من ليس بحاجة، ولا يرى الشَّاعر غيره معدما، ويبث في الأبيات التالية حزنه، وقد ولَّى شبابه، وبلي جسده، ولم يعد يملك قوة ولا مالا، فقال:

هُرِيقَ شبابي واستُشِنَّ لشَقوَتي أديمي فلم أملك شَبَاباً ولا وَفرَا
وكيف يَنَالُ البيضَ والسُّمرَ عاشِقٌ يُرَى مُفلِساً لا يَملِكُ البِيضَ والصُّفرَا
وهَوَّنَ عندي اليأس من عَودةِ الصِّبَى رَجاءُ صَلاحِ الدِّين أن يَهَبَ الوَفرَا
لقد هَتَفَت يُمناهُ في الدَّهر بالغِنَى فما أحدٌ غَيري به يَشتَكي الفَقرَا

ويُصِرّ فتيان على تفرده بالعدم والفقر، فيخاطب الملك المعظم عيسى بن أبي بكر قائلا:

وأنتَ الّذي قد طَبَّقَ الأرضَ جُودُهُ فليسَ بها غيري مِن النَّاسِ مُعدَمُ

ويرسم الشَّاعر صورة مؤثرة لأطفاله الصِّغار، الّذين يتضورون جوعا وهم أقل من أن يكونوا أطفالا، فيجمعهم بصيغة التصغير؛ لنحل أجسامهم، ويشبههم بأفراخ القطا، ينتظرون عودة الأب بالغذاء، فلم يظفروا بالخبز والفتة، ويصف منزلهم الضَّيق كجحر اليربوع، وذلك إذ يقول:

عندي أُطَيفَالٌ كأفرَاخِ القــطَا   في مَسكَنٍ كالنَّافقَاءِ سَكَنتَهُ
أصحُو بلا مَاءٍ ولا شَجَرٍ ولا   بــُرٌ ولا خُبــزٍ لــدَيَّ أَفَتُّهُ

ويبدو أن هذا الفقر قد ولَّد عند فتيان شُعوراً بالعجز والضآلة وإحساسا بعدم الثِّقة بالنَّفس، لذلك نرى لإفلاسه أثراً في عجزه عن قول الشِّعر البليغ، كذلك يمنعه من الإحسان، ومن زيارة الأصدقاء وكيف له عشق النِّساء، وهو لا يملك المال، حيث قال:

من مُجِيري مِن زَمَانٍ غَادِرٍ   غَادَرَ اللّسنَ من الإفلاسِ لُكنَا

وقوله:

مُذ خَلا مَنزِلي مِن البرِّ بالبُرِّ   طَحَا بي في الهَمِّ عُدمُ الطَّحِين

ويندب فتيان حظَّه السَّاكِن، ويستكنّ بسبب تقصير أُولي الأمر بحقه، وتقديمهم من لا يستحق، وذلك إذ يقول:

عَلامَ تَحَرُّكي والحَظُّ سَاكِن   وما نَهنَهتُ في طَلَبٍ ولَكِن
أرَى نَذلا تُقَدِّمُهُ المَسَاوي   على حُرٍّ تُؤخِّرُهُ المَحَاسِن

وقال في هذا المثال من تقديم أُولي الأمر لذوي النُّقصان وحرمان أهل الفضل:

ذو الفَضلِ مَحرُومٌ وذو النُّقصَانِ مَرزُوقٌ يُخَصُّ بزِينَة التَّخصِيص
ونَدَى المُلُوكِ نَظِيرَ أحرَاحٍ لأبكَارٍ حِمًــى إلا عــَن الحُــرقُوص

لقد كشفت لنا أشعار فتيان أنَّهُ كان ذا مَيلٍ لحياة اللّهو، فقد أفرد قصائد غير قليلة في وصف الخمرة ومجالسها، ومعاقرتها، وتذكر المصادر أنّ الملك العادل

قد منع دخول الخمرة إلى دمشق كليا، فأخذ الناس يحتالون في إدخالها،وقد ساء هذا الأمر فتيان الشَّاغُوريّ، وأظهر تذمره، وصوّر غضب إبليس، فقال:

سطوات السُّلطان سَلَّت سُيوفاً   سَاطِيَات فأسخطت إبليسا
سَلَبتنَا حَسو السُّلافةِ ســـــرا   فَسَرَى يَسلُب النَّفيسَ النَّفيسا

وعندما يعاقر الملك الأمجد الخمرة، يتحرر فتيان من قيده، ويعود يشربها جهاراً دون خوف من العقاب، وهذه الخمرة لا تزيد الأمجد إلا مكارماً، وفي ذلك يقول:

تَطرَبُ الخَمرَة إذ يَشربَها   عَجَبًا من عَقله الوَافي الرَّصِين
لو يكون النَّاس فِيهَا مثلَهُ   لــم يُحَرَّم شُربَها في المتقين
وشربناها جهاراً لم نَخَف   من ثمــانينَ ولا مــن أربعينَ

ولا شك أنَّ عشق فتيان للخمرة، كان ملاذا له لإخفاء عناصر الألم داخله فهي سبيل للهروب من الواقع المؤلم وحياة الهموم التي عاشها الشَّاعر، ففيها راحة للروح، جلب للفرح، وجلو للأحزان، ويقول فيه:

لا أرتضي يا صاح أنِّي صاحـــــي   فالرَّاحُ فيها راحــةُ الأرواحِ
أمسيتُ في ظلــمات إيحــاش فقــم   وأقدح زناد الأنس بالأقــداحِ
وأشرَب وهات الكأسَ صِرفاً واسقني   حَمرَاء تُغنيني عن المِصبَاحِ
وأصرِف بصرف الرَّاح تجلو صُورَةَ   الأفراح عني سورة الأتراحِ

وتَجلِبُ هذه الخمرة السُّرورَ للشَّاعر، وتنفي الهمّ عن قلب كلّ محزون، خاصة إذا كانت من صريفين أو صيدنايا.

وفي ذلك يقول:

قُم واسقني قَهوَةً مُشَعشَعَةً   من صَيدنَايَا ومن صُرَيفِين
وراحةَ تَجلِبُ السُّرورَ وتَنفِي   الهَمَّ عن قَلبِ كُلِّ مَحزُون

ويعدد فتيان أسماء مختلفة للخمرة (كالشُّمول والمدام، والحُمرة، والإسفنط، والسُّلافة...) كذلك نجده خبيرا بالبلاد التي تشتهر بها فنراه يفضل خمرة صيدنايا، ويذكر بلادا أخرى تعمل فيها الخمرة، مثل قطربل، وبابل، حلبون والبقاع.

ويظهر فتيان تعلقه بالخمرة من خلال استخدامه الأساليب الإنشائية في خمرياته، كالطلب والأمر إذا ما أراد الشُّرب، والنِّداء للسَّاقي، والنَّهي عن اللوم في شربها، ومن أمثلة ذلك قوله:

قم فأجل بنت الكرمة الخضراء في الكأس كالياقوتة الحمراء
يا لائمي في شربها أغريتني باللـــوم فيـــها غاية الإغراء

ونجد فتيان يختار الندماء من عقلاء الناس وظرفائهم، ولم تكن الخمرة لتثنية عن صلاته، وفي ذلك يقول:

ما العيشُ إلا في المُدام وشُربِها لكن مع الظُّرفَاءِ والعُقَلاءِ

كذلك قوله:

وإنني لأصلي الخَمسَ مُجتَهِداً ولن تَصُدَّني الصَّهبَاءُ عن دِيني

وإذا أراد فتيان الشُّرب، ففي أمكنة معينة أشهرها الأديرة المتناثرة في بلاد الشَّام، وقد ألم بها فتيان مرات كثيرة، وحوت هذه الأديرة أشخاصا من مختلف الديانات، وقد تحدث فتيان عن أحد القساوسة الذين كان ينادمهم، منوها بأخلاقه الحسنة والحميدة، فقال:

سَقَى الله ديراً نَادمتُ فيه قسيسا فَكَانَ شَريـــفَا ظَاهـــر البِشرِ قِدِّيسَا
لَهُ خُلـــقٌ يُرضِي النَّبي مُحمَداً ويأتـــي بما أوصَى بهِ قَومَهُ عِيسَى
وَيَطـــرَبُ إنَّ غنيتـــه فكأننـــي ضَرَبتُ لَهُ في الدَّيرِ بالصُّبحِ نَاقُوسَا

ولا تكتمل مجالس الشَّراب إلا إذا انبعثت منها الألحان، فالدَّعوة إلى الغناء من مستلزمات الشَّراب، فيصف فتيان مجلس الشَّراب وهو مصطخب بالغناء، فيه من الآلات الموسيقية العود والنَّاي، وفي ذلك يقول:

وخيرُ ما رَوَّحَ السـَّاقي براحَتـِهِ في كأسـِهِ ابن سحـاب بابنـةِ العِنبِ
والعودُ يَخطِبُ إذ نحن الشُّهُوُد وصو تُ النَّاي مُصطَخِب في زي مصطحبِ

كذلك قوله:

وأنتَ يا مُطرِب غَرِّد فمَا تَرغِيدُ عَيشِي غيرَ تَغريد
أجلُ العَجُوزَ البِكرَ بين النَّدا مَى بالمزاميـرِ و داوودِ

ويستطرد الشَّاعر في حديثه عن الخمرة، ويمعن النَّظر في وصفها، فهي قرقفٌ ذهبيَّة، والدُّر مغروس في حافتها، وهي أيضا اللؤلؤ المنظوم الذي يعلو الفضة الذائبة، فتتراءى كالذَّهب، وهي أيضا حمراء شمطاء بكر، فتستخرج من العنب لا من الزّبيب، وهي في مرة أخرى كالعجوز:

أطيب شيء في الزّمان مَشرَبَا مُدامَةً في الكأس تجلو حَبَبَا
كاللؤلؤ المنظومِ يعلـو فِضَّةً ذائبةً بالمَزجِ صَارت ذَهَبَا

وينتقل فتيان من وصف الخمرة إلى السَّاقي، وأكثر ما يكون غلاما رشيق القدِّ، من بني التُّرك، شادنٌ، نواظره تصمي القلوب، يبدي له الشَّاعر حبه وإعجابه، فيتغزل به، ويعدد محاسنه، وذلك إذ يقول:

يَسعَى بها طِفلٌ رَشِيقٌ قـدَّهُ واكبدي من صدغه مُعَقرَبَا
ريم من التُّرك متى رَنَا رَمى بأسهمٍ عن مَقتَلٍ لن يحجبا
يشدُّ في قيد الهَوى العيونَ والقلـوبَ إذ يمـيسُ في بَندِ القَبـا

ومن أهم مظاهر الحضارة والعمران الاجتماعي في شعر الشَّاغُوريّ ،المنشآت العمرانية التي أقيمت في بلاد الشَّام، كالقصور والحمامات، والبرك والمساجد، وغير ذلك، وقد رسم فتيان صورة للقصر الذي بناه الملك الأشرف، فتظهر البراعة والتأنق في عمارته، كأنَّهُ أحدُ قصور الجنَّة، يشقه نهر، وقد تفنن المهندس في سحر هذا القصر وعمارته، وبه يهنأ الأشرف فيقول:

هنئتَ بالجوسَق العالي الّذي عَجِزَت عن وَصفِهِ فُصَحَاءُ العُجمِ والعَـرَبِ
كالقصرِ في الجنَّةِ الفَيحَاءِ يَحسـدُهُ إيوان كسرى على ما فيه من نُخَبِ

يَشُقُّــهُ نَهــرٌ ناهيــك من نهــرٍ كأنُّهُ الكوثــرُ المُعطَاهُ خيــر نبــي
أبدى المهندس خَطيّ الأستــواء به فالماءُ يَركــضُ بالتَّقريب و الخَــبَبِ
كأنَّــمَا قصــره في دستــهِ ملــك كُلُّ القصورِ لــديــه لاثــمَ العَتَــبِ

ويرسم الشَّاعر صورةً زاهيةً وجميلةً للجامع الأموي وقبة النَّسر، وقد زينت بالحجارة الكريمة، من الفص والذهب والآجر والرُّخام، فيقول:

به الجامعُ المَعمُورُ رفرفَ نَســرُهُ بريشٍ أثيث النّبتِ من بعدِ ما حَصَّا
وأفعَمَ بالتَّرخيمِ في الأرض صَحنَهُ وكان به الآجــرُ قد عانــقَ الجَصَّا
ولمَّا عَرَى جدرانه العَريُ فاكتَسَت قَشعَريرةً أوصى بان يُلبَــسَ الفَصَّا

وقد أنشأت بركة للموفق بن المطران، لها أنابيب على شكل سباع تمج الماء بشكل غريب، وقد وصفها فتيان بقوله:

وبركةٍ تُحمَى بأسدٍ وما تَمنَعنَا الوِردَ إذا جينا
وما رأينا أسدا قبلــها تَمــجُّ بالماء ثعابينا

وقد انتشرت الحمامات في دمشق بشكل كبير، واهتمّ الشَّاميّون بالتفنن في عمارتها، والقيام على خدمتها، وقد وصف فتيان تلك الحمّامات، وقدّمها في صورتين متقابلتين، ذمّ بعضها، ومدح الآخر، وقد قال يهجو أهل الزّبداني ويذم حمامهم بما يعانيه الزائر من عناء وبؤس، وما يلاقيه فيه من أذى:

أرى ماء حَمَامِكم كالحَمِيمِ نُكابِد منه عناءً وبؤسا
وعهدِي بكم تَسمِطُونَ الجَدي فما بالكم تسمطون التيوسا

أمَّا الصُّورة الأخرى فهي صورة الحمّام الّذي يتحدث عنه بضمير المتكلم وليس المخاطب كما سبق، هذا الحمّام كالجنّة، يُسعِفُ ببرد الرّحيق، ويجد فيه الزائر المتعة والترويح عن النفس:

إنَّ حمامَنَا الّذي نحنُ فيه ما إليه لعَائــبٍ من طَريــقِ

نحنُ منهُ في جَنَّةٍ فوقَ نارٍ ونجومٍ والشّمس ذاتُ شُروقِ
تُسعَفُ النّار بالحَريقِ وهذا نارُهُ أُسعِفَــت ببردِ الرَّحيقِ

ومن المظاهر الحضارية الأخرى التي وصفها فتيان: المرآة، فيجري معها حوارا، يسألها عن شبابه الذي ولى: فقال:

قد كانت المرآةُ فيما مضى تُهدِي إلى عيني الشَّبابَ الحَسَن
وألان قد صِرتُ أراهَا وقد كَحَّلت الطَّــرفَ بشيــخٍ يفـــــن
قلتُ لها أينَ الّذي كان مِن قــبلُ فقالت لي مَــحَاهُ الــزَّمَــن

وقد اتّخذ النّاس في الشَّام بشكل عام والأمراء بشكل خاص بعض الألعاب تمريناً لهم على فنون القتال ومناورة العدو من ناحية، ولأجل التسلية والترويح عن النّفس من ناحية ثانية، ومن هذه الألعاب اللعب بالكرة أو الصولجة، الذي كان يمارسه نور الدِّين وغيره من الأمراء:

ويصف فتيان نار الشّوق وهي تحرق صدره بأنّها طائر، أو كرة في ملعب الصولجان، حين يتناقلها اللاعبون بسرعة، وذلك إذ يقول:

مَن لِشَجٍ لولا لأماني لم يُمسِ مِن المَوتِ أسىً في أمان
يُشَبِّكُ العَشرَ على أضلُعٍ هَيَّجَن ناراً أسعرت في الجَنان
كأنُّه في صدره طائــرٌ أو كرةٌ فـــي ملعب الصَّولَجَان

ويسخر فتيان ممن يدّعي الشِّعر ولا يمكنه التباري فيه، ويصفه بأحجار الشّطرنج المتأخر في الأهمية في اللعب، في حين يضع نفسه مكان الملك. وذلك إذ يقول:

قد ادّعى الشِّعر اقوام وليس لهم يوما على ما ادّعوه فيه بُرهَانُ
تفرزنوا وتبيدقوا وما برحــوا بيادقا وأنا في الصّدر فزران

ومن هذه الألعاب ما يسمى (يقطين القبق)، وقد قال فيها فتيان:

وهاربةٍ من سَورَةِ الطَّعنِ خِيفَةً لِما عايَنَت من فِعلِهِم بالدّريَّة

سَمَت فوقَ ســـامٍ سامقٍ فتتابعت إليها على قصدٍ سهـــــــام المنيَّة

2- الهجاء والنقد الاجتماعي

تنوع الهجاء عند فتيان الشَّاغُوريّ، بين هجاء الأشخاص، عـــامتهم وخاصّـــتهم وهجاء المدن أو من يقوم عليها، ويتصرف فيها وإلى جانـــب ذلـــك عقـــد الشَّـــاعر المفاضلات بين مدينة وأخرى، دون ذكر المساوئ والعيوب بهذه أو تلك، وقد أخـــذ الهجاء صورة الهجاء الصّريح والصّارخ، والنَّقـــد الاجتمـــاعي، بـــذكر العيـــوب والمساوئ بهدف تقويم المجتمع .

وقد تناول الشَّاعر الفضائل النفسّية، والخُلقيّة ، فسبلها من أصحابها الذين هجاهم وهذا هو المسلك الصحيح في الهجاء كما يرى النقاد،(جعفر،د.ت،44)،أمّا اتّهام المهجو بالعيوب الجسديّة فذلك سبّ ليس إلا، وتنوع هجاء الأشخاص حسب المهجويين من أصناف النَّاس في مكانتهم، وكلّ ما يتصل بهم، فكان منهم: الوزير، والفقيه، والعالم والأديب والطّبيب، وغيرهم، كذلك تناول فتيان في هجائه بعض الأقوام عامة، دون تحديد، أو تخصيص، مثل بني عصرون، وبني العدل، واتّسعت دائرة الهجاء لتشمل أهل الشَّاغُور وأهل الزّبداني، وأهل دمشق ، حتى وصل إلى أن يهجو جيلاً بأكمله، أو يهجو شخصاً، كالهارب من القدر، وسارق الشّعر والأدب .

أشارت المصادر التاريخيَّة إلى حالات من الفوضى والفساد الإداري والمالي في مؤسسات الدولة الأيوبيَّة – خاصة بعد وفاة صلاح الدِّين– وتنازع أولاده الملك فيما بينهم، وقد تضمن شعر فتيان نقداً لاذعاً للمستخدمين من الوزراء والولاة وغيرهم، فحين تَسَلَّم السَّامريّ وزارة الملك الأمجد "نال من جهته الأموال والنِّعم شيئاً كثيراً حتى صار المدبر لجميع الدَّولة والأحوال، حتى كثرت الشَّكاوي من أهله وأقاربه السُّمرة وكثر منهم العسف وأكل الأموال والفساد،(ابن أبي أصيبعة، 1965،721)، وقد أثار ذلك فتيان، وأخذ يضع اللّوم على الملك الأمجد بسبب تمسكه بالسَّامريّ، ويحرِّض الشَّاعر الملك الأمجد للتّخلص من السَّامريين، وإبعادهم عن مراكز الدَّولة، كما فعل هارون الرَّشيد مع البرامكة، ذلك إذ يقول:

المَلِكُ الأمجد الّذي شَهِدَت لَهُ مُلُـوكِ الزَّمانِ بالفَضـلِ
أصبحَ في السَّامِريّ مُعتَقِداً ما اعتَقَدَ السّامِريّ في العِجل
والسَّامريون كالبَرامِك مِن قَبـلُ فأيـنَ الرَّشِيـدُ للقَتـل

ويستهجن فتيان سياسة بعض الحُكّام، الّتي تخالف المعهود في سياسة الدّولة الإسلاميَّة، فقد تَقَلَّد المناصب أشخاص ليسوا أهلاً لذلك، وهذا شائن للحكام، ولذلك يرى فتيان (العدل) –القائم بأعمال الدَّولة عند حكّام دمشق–، عاطلا من المَكارِم، ويسخر منه، متمنيا أن يراه مشنوقا، حيث قال:

بالعَدلِ تَزدَانُ المُلُوك ومَا شَان ابن أيّوب سِوى العَدلِ
هو دَلوٌ دَولَتِه بلا سَبَـب فَمَتَى يُرى ذا الدَّلوّ في حَبلِ
صِفرٌ خَلا مِن كلِّ مَكرُمَةٍ مع صِبيَتِهِ في النَّاس كالطّبلِ

وقد تَسلَّمَ ضياءُ الدِّين بن الأثير الجَزرِيّ وزارة الملك الأفضل، فقام مع صاحبه الجمال محاسن بن العجمي بالفساد "واستبدلا أرذال النّاس بكبراء الأمراء والأجناد.وساءت سيرة الجزريّ، فوجه إليه فتيان نقدا لاذعا، وهجاه بسخرية مريرة، فليس إلا أن يراه مخلوعا كحبة الجزر، وفيه قال:

متى أرى وزيرَكُم ومَالَهُ مِن وزَرِ
يُقلِعُـهُ اللهُ فـذَا أوان قَلعِ الجَزَرِ

ولم يكن أمرُ وصول المتظلمين إلى الوزير سهلا، خاصة إذا كان الحاجب مثل (عوسجة)، حاجب الوزير بن شكر، فقد وصف فتيان دار الوزير بأنّها جنة،لكنّها مسيجة، ممنوعة الدّخول بأمر هذا الحاجب ، فقال:

دارُ الوَزِيـرِ جَنـَّةٌ لكنـَّهَا مُسَيّـَجَة
سِيَاجُها إذ جُعِلَ البَوا بُ فيها عَوسَجَة

ويأسى فتيان لموجات الغلاء الّتي توالت على بلاد الشّام، ويلتفت إلى أولئك الّذين اكتنزوا الأموال وسكبوها في دورهم، بينما تعاني الرّعيّة من الجوع والضّنك، وفيهم يقول:

هم أطلَقُوا طِرفَ الغَلاء فجَاءَنا عن طِرفِ رُخصٍ بالفَلاةِ مقيَّدِ
ما بين جَدبٍ نَحنُ فيه ورُخصِهِم إلا كَغُلــوَةِ سَهــمِ رَامٍ جَيــدِ

وقد ساء العامّة أمر اللصوص في بلاد الشّام، وكان بعضهم من العاملين في أجهزة الدولة، ففي عهد الملك المعظم عيسى، أمر بأن تسلسل أبواب الجامع الأموي بدمشق، وهذا دليل على الشّك في أمانة سَدَنَة المسجد الذين نهبوا أمواله، ويطعن فتيان في أمانة هؤلاء والقائمين على المدرسة الأمينية، فيجعل مشرف المدرسة مسرفا، وعمالها لا يؤتمنون، وذلك إذ يقول:

إنّ الأمينية الّتي شَرُفــتَ بِمَعشَرٍ في الوَرى لهم شَانُ
مُشرِفُهُم مُسرِفٌ وعامِلُهُم مُعامــِلٌ والأمِيــنُ خــوَّانُ

ويستحث فتيان والي دمشق آنذاك –وهو الأمير مبارز الدّين إبراهيم– على محاربة هؤلاء اللصوص، والاقتصاص منهم، " وكانت قد جرت في عهده عجائب وغرائب، وكان كثير التّستر على ذوي الهيئات من أبناء النّاس والبيوتات(ابن كثير، 1993،124:13)، وذلك إذ يقول:

هم اللصوص السّارقُون الأُلى أذللَتَ منهُم كُلَّ قَاصٍ ودَانِ
خُذ عِملَتِي مِن سَارِقٍ مــَارِقٍ ولا يَكُن من خَوفِهِ في آمَانِ

وما يدلّ على فساد الإدارة، تعين الولاة وعزلهم بسرعة، ويجعلها فتيان عبرة للحكّام والولاة، فلا يفرح الوالي بِخِلعَةٍ ، فقد يعزل ويصرف، ويسخر منه الشّاعر سخرية مريرة فيشبهه بالشّاة، الّتي تُسَمَّن لأجل الذّبح، كذلك هو حال الوالي المخلوع، ويقول:

لا يَفرَحَنَّ في ذا الزَّمَانِ بِخِلعَةٍ والٍ هو المَعزُولُ والمَصرُوفُ

هي زينَةٌ تَعلُو الجَزورَ فإن تَلُح صِح يا سَمِينُ عليه يا مَعلُوفُ
ما يُطعِمُ الجَزَّارُ شَاةً حَبَّةً حُباً ففي تلك الحُبُوبِ حُتُوفُ

وقد عانى الشَّاعر كثيرا من تَعَرُّضِ الوشاة له عند الحكام، وغيرهم، ومع أن النّزعة الذّاتيّة واضحة في هذا الغرض، غير أنَّها تعبر عن هموم الجماعة، ويضع فتيان مجموعة من النَّصائح أمام والي دمشق مبارز الدِّين ؛لاختيار البطانة الصالحة، وإبعاد بطانة السُّوء والفساد، وذلك إذ يقول:

ولا تُصغِيَن إلى مَينِهم وإن وفِدُوكَ برَمي التُّهَم
وجَرِّد حُسَاماً لِحَسمِ الأذَى وشُقَّ إلى البُرءِ قَلبَ السَّقَم
وصاحِب رِجَالا كِرَاماً سَمَت بهم في ذُرَى المَلكوتِ الهِمم
فإنَّ طريقَ الهُدَى واضِحٌ وكم فيه للمُهتَدِي من عَلَم

وكثر هجاء الأدباء والعلماء، وقد تختلف معاني الهجاء باختلاف شخصية المهجو فهجاء الوزير غير هجاء الفقيه، أو العالم، أو العامة .

وقد وقف فتيان الشَّاغُوريّ من بعض رؤساء المصريين، وعلمائهم موقفاً ساخراً فقد جردهم من الفضائل، والحق بهم الخبث واللؤم، وشبه بعضهم بفرعون في طغيانه، وتكبره واستعلائه، ليس لهم خُلق إلا اللؤم، فما هو إلا نمرود به كنعان(الدينوري، 19،1987) يتصف بالرّياء، والنّفاق، وقد بين الشَّاعر لهؤلاء الرؤساء كيف أذلّ الله الطّغاة بأضعف مخلوقاته، وذلك إذ يقول:

لئن كان وافى مصرَ فرعون وحدَهُ من الشَّام فاستعلى وأظهَرَ نَامُوسَا
فقد قَذَفتنَا مِصرُ منها بواحدٍ يُرَى ألفَ فرعونٍ وليس لنا موسى
فعِثنُونه للؤم والخُبثِ مَعدِن فَصَبَّ عليه عاجلا ربنُا موسى
حوى كِبَرَ نَمرُود بن كَنعَانَ أنفُهُ فَليتَ بِهِ من نِقمَةِ الله ناموسا
تَطَأطَأَ حتى الطيلسانِ مُرائياً فكانَ لِما يَبغِيهِ فَخَّاً وناموسا

ويرى فتيان أنَّ بعض المتمكنين من الحكم في مصر غير جديرين به، فقد أساءوا، وجاروا، فلا ترى منهم إلا الأخلاق الشائنة والجور والظلم للرّعية،وبأفعاله هذه سيؤول بدولته إلى الانحلال والسّقوط، ويسخر فتيان منه بطريقة طريفة، عندما يجعل أخلاقه تشبه لفظ نهر (بردى) بحروفه وخلقته تحاكي خلقه الثور، على ما فيها من تورية، فلا يغر هذا الحاكم رأيه، وما يحيط به، فهو كالدّفلى، زاهية المنظر مرة المذاق فقال فيه:

حكى نهرين لو علما بذالك لأصبحا غوراً
حكت ألفاظه بردى وأشبه خلقه ثورا
كَسِرِّ النقص وهو يزيد في أفعاله جورا
فلا تعجب لدولته سيرجع كورها حورا
وإن راقتك بَزّتُهُ فكالدّفلى اكتسى نَورَا

ومن أصناف النَّاس المهجويين في شعر فتيان الشَّاغُوريّ، بعض من يتهمهم بادّعاء الشّعر والأدب، فقد صوّر فتيان هؤلاء الأشخاص بصورة تثير السّخرية وتكشف عن نقد لاذع لهم، فيرى الشَّاعر أن ذلك المدعي لا يستحق إلا الصّفع والصّرف، ولا غرابة في ذلك ما دام ذلك المهجو يتصف بالفساد الخلقي، ويفتقر إلى العقل، كما يبدو في هجائه لابن صفوان الإشبيلي النحوي فقال فيه:

ونَحوِيٍّ تَكلَّم في أَقَاحٍ فأَنبَتَ في قَفَاهُ الصَّفع وَردَا
فثغرُ الأقحوان له ابتسامٌ يُحَجِّلُ عُنقُهُ إذ صار خَدَّا
فلا تشلل يَدٌ فتكت بِهِ إذ رأينَا كَفَّ ليثٍ صَكَّ قِردَا

ويقسو فتيان في هجاء من لا يتذوقون الشّعر، ولا يمكنهم حتى ترديد أشعار الآخرين، وهؤلاء يصفهم الشَّاعر (بالحيوانات)، يؤذون مسامع النَّاس بأصواتهم فيحمد الله من به صمم أمام هؤلاء إذا ما قالوا شعراً، وقد خلت مجالسهم مما يروح عن النَّفس، ويمتع الخاطر، ويقول فيهم لما حضر مأدبة دعاه إليها الرشيد بن النابلسي، ولم يرقه ما سمع:

دعاني الرَّشيدُ إلى دَعوَةٍ له جَمَعت بين كلِّ الأمم
وأقبَلَ يَنهَقُ فيها الفَصيحُ بِنغَماتِهِ ، فَحَمِدنَا الصَّمَم
وَمَرَّ يُرَدد شِعرَ الـرَّشيدِ فما أحـدٌ ثَمَّ إلا أنـزكم

ويعيبُ فتيان على ابن المذيتاني –وهو كاتب الأمجد – شعره الرَّكيك ، ويصفه بصفات نابية، ولا يجده إلا كالخنافس، إذا ما أراد خوض مجالس الشَّعراء:

وما الثَّلج في كانون يَهمِي ربابُهُ مُلِـثَّاً على هضبي سَنَـيرٍ ولبنانِ
بأبـرد من شعـرٍ ركيكٍ تَلوكُهُ كلوكِ الخرا فَكَّيكَ يا ابن المذيتاني
قريض يسد النَّـاس منه أنوفَهُم كأنَّك في تَكتِـيلِهِ (بِنـتُ وَردَانِ)

ويتصدَّى فتيان لهجاء كلِّ من يحاول هجاء الأمير بدر الدّين مودود، حيث يصف أحد الشّعراء(بالكلب) بسبب هجائه الأمير ويمزج الشَّاعر في هذه القصيدة بين مدح الأمير والفخر بنفسه، وهجا أحد الشعراء:

والكلبُ إن يَنبَحُ البدرَ المنيرَ فلن يضيره ويعانـي الذَّلَّ والتَّعَبَا

ويعرض فتيان لشيخه ملك النحاة صورةً ساخرةً، بطريقة، يقدمها على لسان قطٍّ، فينزل ملك النحاة منزلة (الكلاب) ، فقد عَضَّت القطَّة يد ملك النحاة،فعتـب عليهـا فتيان، فقال:

عَتِبتُ على قِطٍّ ملك النُّحاة وقلتُ أتيتَ بغيرِ الصَّواب
عَضَضتَ يداً خُلقَت للنَّـدَى وبَثَّ العُلومِ وضَربِ الرِّقاب
فأعرَضَ عني وقـال اتَّئِب أليسَ القِطَاطُ أعادي الكِلاب

ولم يسلم أبن عنين الشاعر البارع في الهجاء من نقد الشَّاغُوريّ له وهجائه حيث وصفه بأنَّهُ عديم الفائدة، ولا يُرجَي خيره وذلك إذ يقول:

مَن يُرَجِّي خيراً من ابن عنين لم يَنَل مِنهُ غيرَ خُفيٍّ حُنَين

وقد وجَّه فتيان هجاء جارحاً، ونقداً لاذعاً، لبعض الفقهاء و العلماء، كالفقيه ابن جاموس، نصر الطبيب، والحكيم جرجس القنياط، فقد أخذ فتيـان مـن اسـم(ابـن

جاموس) صفة تلازمه في خُلقه وخَلقه، فوصفه بأنَّـهُ مـن هـذه الفصـيلة مـن (الحيوانات)، ثم جرَّده من صفات الواعظ الحق والجيد، وأخذ ينقده ويحذر النَّاس من حضور مجالس وعظه، ومن يحضرها فلا يفقه شيئاً كالبقر وذلك إذ يقول:

رأيتُ بالجَامعِ أعجوبةً والنَّاس يَسعُون إليها زُمر
فَقُلتُ يا قومُ على رِسلِكُم ما يَعِظُ الجَاموسُ إلا البَقر

وكان هجاء فتيان الشَّاغُوريّ جرجس القنياط ، وولده الحكيم يوحنا ، شديداً فقد هجا فيهما الحي والميت، كذلك هجا الأب والأم والابن، وقد ذكر فيها الشَّاعر ألفاظاً نابية وقاسية جداً، لا يستطيع المرء أن يثبتها هنا، وقد لاحق الشَّـاعر فـي هجائـه جرجس إنساناً قد مات، ودعا أن يسقى هذا القبر، بفساد الأشياء، ونعته بـالملعون، وسلبه كلَّ فضيلةٍ، وصفة حسنة، ثم ولج فتيان في هجاء ابنه يوحنا واتَّهمه بالفسـاد والانحلال الخلقي هو و أمه، وقد حاول الشَّاعر في هذه القصـيدة أن ينـال مـنهم بإلحاق كلِّ رذيلة بهم:

وقد قام فتيان بهجاء أقوام كاملين، دون استثناء أحد من هؤلاء القـوم، مثـل بنـي عصرون، القضاة المعروفين زمن الدولة الأيوبيَّة، وبني العدل، وقد يلجأ الشَّاعر إلى نقد قوم دون ذكر أسمائهم، أو يهجو المجتمع، ووضع سلبياته أمـام عيـون النَّـاس والحكَّام.

وقد هجا فتيان بني عصرون، وقسى عليهم، حيث جرَّدهم من كلِّ فضيلة وسلبهم كل المكرمات، وليس لديهم ما يفخرون به، قديما وحديثا، فهم كالبغال التي يركبونها ليس لهم في الودِّ شأن، لا يرجى منهم خير، وفي ذلك يقول:

على بيتِ عَصرُون العَفَاءِ فمالهم قديمٌ ولا عند الفـَخَارِ حـَدِيثُ
إذا ركبَ القَومُ البِـغَالَ أو ابتدوا فمالهم في المَكرُمَـاتِ حَدِيثُ
بِغَالا تَرَى أذنابـها كلِـحَاهـُمُ فَتَضرِطُ من أفواهـهم وتَرُوثُ
ومالَـهُم ودٌّ، بلـى إنَّ كلـَّهم يَعُوقُ عن الجَدوَى وليس يَغُوثُ

وقد هجا فتيان بني العدل، لمماطلتهم في إنجاز الوعود، ويرى أنَّــهُ لا رجــاء للخير منهم ، ومن يؤمل فيهم خيرا فهو أحق النَّاس بالصَّفع، وذلك إذ يقول:

من كان يرجو خيركم بعدها   فهو أحقُ النَّاس بالصَّفع

ووجَّه فتيان نقده وهجاءه لأهل الزَّبداني، بسبب بخلهم، وعــدم احتفــالهم بالنزيــل وإكرامه، ويرى أن القوم غير كرام، يتصفون بــاللؤم، وتمســكهم بالــدُّنيا وحفــظ المال.وذلك إذ يقول:

وبالزَّبداني الكُرومُ كثيرةٌ   لكنَّها أضحت لغير كِرَامِ

ولو حفظوا أعراضهم مثل حفظها   لكانوا لعمر الله غير لئام

أمَّا أهل الشَّاغُور، فإنّهم قوم لصوص، لا يكسبون الرِّزق الحلال، ولا يســلكون إلا طريق الكذب والخداع، وقد هجاهم فتيان، وحذر من ائتمانهم، ودعــا الأميرمبــارز الدّين ليقتصَّ منهم، ويمنع شرَّهم. فقال:

وبين نُهَيرِي الشَّاغُور قــومٌ   يرون الفَخرَ كونَهُم لُصُوصَا

فكلُّهُم متى يَظفَر بِشَــــــاةٍ   تَحَوّلَ شَوحَةً تَغتَالُ صُوصَا

وما طَبَخَت قُدُورُهُم حَــلالا   فَلَيتَهُم بها طَبَخُوا مَصُوصَا

ولو أنّا نُصافِحُ خَيرِيهــــم   لسَلُّوا من خواتِمنا الفُصُوصَا

مبارز خُذ بِحُكمِ النَّص فيهم   فأنتَ تُعَلِّم النَّاسَ النُّصُوصَــا

ويطلب فتيان من الشُّعراء هجاء أبناء جيله، فليس فيهم إلا الحسد واللؤم، ولا يجد مادحهم خيرا، وإنَّما الأماني في هجائهم. فيقول:

نحنُ في جِيلٍ لِئَــامٍ   كُلُّهُم سُخنَةُ عَين

هجوهم أحسنُ صِدقٍ   مَدحُهُم أقبحُ مَين

ما لِمَن يَمدحُهم مِنهم   سِوَى خُفَّي حُنَين

فاهجُهُم تلقَ الأمــاني   منهم كابن عُنَين

ومن أصناف المهجويين أيضا، ما قد عَرضت لهُ ضمن حديثي عن شــعر الجهــاد، وهو هجاء الصَّليبيين، قائدهم وجيشهم، وقد وصف فتيان الشَّاغُوريّ القائد الفرنجــي

بصفات تثير السُّخرية، فهو جبان، لا يحتمل مواجهة القائد المسلم، كما نعته(بالكلب واللئيم، وغير ذلك من الصّفات التي تنتقص وتحطُّ من قدره، وتجعله موضعا للسُّخرية، والتّهكم، ومثال ذلك قوله:

رجا الكلبُ مَلِكُ الرُّوم إذ ذاك فَتحَها فخابَ فأُمُّ الملك والرُّوم هابِلُ

فَعَادُوا على الأعقَابِ مِنهَا هَزِيمَةً كأنَّهُم ذُلا نَعَامٌ جَوَافِلُ

وقوله: مجرّدا رجال الجيش الفرنجي من معاني الرُّجولة والبطولة:

لمَّا سَبَيتَ نِسَاءهُم وقَتَلتَهُم ودَّ الذُّكورُ بأن تَكُونَ إناثا

ثانياً : الشّعر ومجالات الحياة الوجدانيّة :

وصف الطبيعة والحنين.

لم يكن وصف الطّبيعة غرضاً جديداً في شعر القرن السّادس الهجريّ وبالأخص عند شاعرنا فتيان الشّاغوريّ، ولكن ما يميز شعره، إنَّهُ بالإضافة للصُّور التقليديّة – من تصوير الممدوح باللّيث في الشّجاعة، والسّحاب في الجود، وتصوير المحبوبة بالغزال في الخفّة والرّشاقة، والقدّ بغصن البان في اللّين، وخدّها بالورد...، وتصوير وتشخيص الجماد والحيوان والنبات – يميز هذا الشّعر إنّه خص البيئة الدمشقيّة – مقامة ومنزلة – بأشعار غاية في الحسن صورة ومعنى، فهو دائم الحنين إليها، وقد وصف ربيعها، وأنهارها، ومتنزهاتها ورياضها، ليلها، ونجومها، وكل مواطن الجمال فيها.

ولا عجب في ذلك، فقد حازت دمشق على إعجاب الكثير من الرّحالة والأدباء،والمؤرخين، ويصفها بعضُ من زارها بقوله: " دمشق بلد عربيّ قديم يقع على مرتفع من الأرض وسط سهول فسيحة،....والعرب يسمُّونها عروس الأرض وجنة الدُّنيا، واشتهرت غوطتها في الأشعا(علي، 1983، 28)

ويجري إلى دمشق نهر بردى، وسمي كذلك لبرد مائه، وتحف به الرياض والبساتين العامرة بصنوف الفاكهة، والزّهور كالريحان والياسمين، وقد أعجب ابن جبير بهذه المدينة لدى زيارته لها، فقال: "جنّة المشرق، وخاتمة بلاد الإسلام التي استمريناها، وعروس المدن التي اجتليناها، وقد تحلّت بأزاهير الرّياض، وتجلت في

حلل سندسيّة من البساتين، حلّت من موضوع الحسن بالمكان المكين(ابن جبير،د.ت،234)، وقد أُلّفت الكتب في فضائل دمشق والشام عبر العصور.

ومثلما رآها هؤلاء، رآها فتيان الشّاغوريّ وفُتن بجمالها، فألبسها حلة جميلة، أمتع بها القارئ، فبدت دمشق كالعروس ليلة زفافها، ويستوقف الشّاعر الركبان ويتمنى أن يعرجوا على دمشق، ويهدوها سلامه وشوقه، ويتعلق الشّاعر بدمشق حتى زال الفرق بينها وبين جنان الآخرة في الحسن، ولا تضاهيها مدينة، كأنّما جنّة الفردوس في الأرض وأنهار دمشق أنهارها، ويصورها في الشّتاء والصّيف، فماء ربوتها يطفئ نار الصيف:

يا راكبَ النَّاقةِ الـوجناء يُزجِيها   والشّوق والسّوق هادِيها وحاديها
عرّج على جلّق الفيحاء غوطتها   فحيّ جامعهـا عنـي وأهليهـا
لولا الخلود الـذي لسنا نؤمّلـه   لقُلتُ إنّ جنـان الخلـد تحكيهـا
فإنها بلـدٌ ناهيـك مـن بلـدٍ   في الحسن ليس لها مثل يضاهيها
كأنّمـا جنـّة الفـردوس جلّـق والأنهار أنهـارها تجـري بـواديهـا
فماء كانون سلسـال ربوتهـا   تطفي به نـار آب حيـن تحميهـا

وتحلو هذه الرُّبوع عند فتيان، فيدعو لها ولأهلها، ويصف أيام ربيعها، حيث تبدو كالبدر، فتطيب أنفاس الربيع ويطربه شدو الطّيور، ويرسم لهذه المتنزهات لوحة فنيّة في غاية الجمال، فالورد يبدي خدود الغانيات، والشحارير كأنّها الرّهبان في الصّوامع يتلون طقوسهم الدّينيّة بنغم وترنيم، وطيور لها ترديد كألحان الناي، ومما لاشك فيه أنّ دمشق بلغت ذات العماد في حسنها، بكل ما فيها من عناصر طبيعية.

تلك الرّبوع حلَت عندي معانيها   من أهلها لا خَلت منهم مغانيها
تبدي سبوتها الأزهـار مونقـة   منها محاسن كان البردُ يخفيها
يا طيب أزهار أنفاس الرَّبيع بها   والطّير تطربُنا أصوات شاديها
والوردُ يبدي خدود الغانيات بها   وللثغـور ابتسام في أقاحيها
تحكـي الشحاريـر رُهبانـاً صوامعها البانـات تتلو زبوراً في أعاليها

تحكـــي الشحاريـــر رُهبانـــاً صوامعها البانـــات تتلو زبوراً في أعاليها
وللهـــزاراتِ ألحانٌ مناقرهـــا تُعيدُهـــا فهي نايـاتٌ وتبديها
كأن عيدانها العيدانُ تطربنا منها المثالث إذ تتلو مثانيها
دمشق فـــي حسنها ذات العمـــاد بـــلا شكٍّ ولا مرّيـــةٍ فيهـــا لرائيهـــا

وتكرر صورة البساتين الدمشقيّة ذات الحسن، فيشبهها الشّاعر بالبحر وكأنّ القصور مراكب راسية فيه، أو أنّ هذه البساتين كالسّماء ووادي دمشق هو المجرَّة والقصور نجومها، فلا غير دمشق من المدن حازت هذا الجمال فبشرى لها ولأهلها بساحتها فالله حافظهم وحافظها:

حكت بساتينها بحـــراً جواسُقها فيه المراكب ملقاةً مراسيها
أو السّمـــاء ووادِيهـــا المجرة والقصور فيه نجـــومٌ سار ساريهـــا
تلك المرابع لا وادي العقيق ولا نجدٍ ولا شعب بـــوّانٍ يدانيها
بشرى لها ولأهليهـــا بساحتهـــا فالله كالئهم فيهـــــا وكاليهـــا

وأشجار دمشق الخضراء أصبحت حلية في جيد العاطل، تهدي الأماني لزوارها، ويذكر فتيان أبواب دمشق، كأنّها أبواب الجنة.

أيام مشمشها لا شيء يشبهـــــها في الحسن كلاّ ولا في الطيب يحكيها
تهـــدي وتُهـــدى الأمانـــي للنفـــوس وللعيـــون اللـــه هـــاديهـــا ومهديهـــا
فيهـــا ثمانيـــة الأبواب تضمنُ جنـــّة عـــروشـــاً لقـــاريهـــا وراقـــيهـــا

ولا توجد مدينة أخرى تضاهي دمشق في الحسن في خيال الشّاعر، فمن يلفها إنّما يلفِ جنات الخلود، زُينت بحلة من الأزهار، والرّياض والأطيار، والبنفسج مثل خدود فتاةٍ أدماها قرص العُشّاق، وفيها من النرجس ما يشبه الفتاة التي ترنو بنواظرها، وقد بدت دمشق وببراعة التّصوير كالعروس، فتحسدها بغداد وتتمنى أنّها تنسب إليها:

وعُـــج على دمشق تُلفِ بلدةً كأنَّمـــا الجنات مـــن رستاقهـــا
مدينـــة ليس يضاهي حُسنها فـــي سائر البلدان مـــن آفاقهـــا

وتــود زوراء العراق أنّهــا　　　منها ولا تُعزى إلــى عِراقهــا
أهــدت لها يدُ الرّبيع حُلَّــة　　　بديعــة التَّفويف مــن خَلّاقِهــا
بنفســج مثل خــدودٍ أدميت　　　بالقرص والتجميش من عُشّاقِها
ونرجــس أحداقــه رانيــة　　　عــن مُقل الغيد وعــن أحداقها

وتظهر الطّبيعة الدمشقيّة منافسة للشّمس في إشراقها والسّماء وفي بهجتهاو أمّا مياه دمشق عند جريانها بين الرّياض فتبدو كالثعابين في سباق، تبعث الرّاحة والطمأنينة في النفوس، ويفك نسيمها الهمّ ويزيله، فلا سأم ولا ملل يتملك زائرها.

فأرضُها مِثلُ السَّماءِ بَهجَــةً　　　وزهرَهَا كالزُّهر في إشراقها
مياهَها تجري خِلال روضِها　　　جري الثّعابين لــدى استباقِها
مسفــرةٌ أنهــارها ضاحكــة　　　تنطلق الــوجوه لانطلاقهــا
نسيم رَيَّا روضها حتى سرى　　　فكَّ أخــا الهموم مــن وثاقها
لا تسأم العيونُ والأنوف من　　　رؤيتــهــا ولا استنشــاقهــا

ويحنُّ فتيان إلى مدينته (دمشق)، التي فيها عاش وتعلّم، ولا عجب فإنّ الله فضّلها على البلاد، ويرتبط وصف الطّبيعة الدّمشقيّة بالحنين إليها ،وهو في هذا الوصف يقف عند بعض المظاهر الحضاريّة الّتي تميز دمشق ، ففيها الجامع الأموي وقبة النّسر التي أناخت على الجوزاء وقد شَكَت هلال السّماء بسفودها، ويتذكر الشّاعر ابواب دمشق بلهفة الحنين، كباب جيرون وفوارته التي يصفها بأنّها ظئر للأبراج، وباب البريد والمرج والأنهار والقصور والجسور ، كلّها حلوة المعاني جديرة بإعجاب الشّاعر وفخره بها:

زَهَت بجامِعها والنَّسر ممتطيــاً　　　على البــلاد بما لا يُمتَــرَى فيــه
وقد أناخت على الجوزاء قبتــُهُ　　　تُبدي الهــلال الذي لا شيء يخفيــه
وباب جيرون قد فارت بساحته　　　فوارّة هــي ظئــر الجــدي ترويــه
يا حبذا جنة (باب البريد) بهــا　　　والحُسنُ قد حُشيــت منــه حــواشيه
فالمرج (فالنهر) (فالقصر) المنيف على القصور (فالشّرفُ الأعلى) مبانيــه

فالجسر جسرابن شواش فنيربها تحـــلـــو معانيـــه لا تخلـــو مغانيـــه

وقد ينكر الشّاعر أي مكان آخر غير دمشق، فاقلّ شِعبٍ فيها يوافي شعب بّوان في الفخر والتيه، فلا حزوى ولا وادي العقيق ولا غيرها:

تلك المرابعُ لا حَزوَى وكاظمةٌ ولا العقيـــقُ بواديـــه بواديـــه
اقلُّ شِعبٍ تراه في دمشق يـــوا في شعب بوّان في الفخر والتيه
بها الجواسق أمثال المراكب في بحرِ البساتين تعلوها صَوَاريـــه

ويصف فتيان حبه وحنينه للزَّبداني ووادي بردى، وبعض ألاماكن الأخرى مثل: سنير، مضايا، بقين، كفر عامر، الكبرى، عين حور، الدُّلة، دير قبيس، بلودان دُمَّر، آبل، والجديدة. ويتمنى على الركبان الوقوف على بردى ولو بلفتة نظر، ويروا الرّوض ذات الخمائل، هذا النهر العظيم، تصغر كل الأنهار عنده، طيوره بردى كأنَّها عرائس في أبهى مناظرها، وتبدو الصّورة الفنيّة الجميلة في وصفه للأسماك كأنّها الفرسان يرتدون دروعاً من التّبر، وهو بادي المقاتل، وتصبح الطّبيعة الدّمشقيّة ذات أحاسيس ومشاعر، فالنّهر يتأذى من جريانه فوق الحصى وخريره أنين، وتنعكس صورة النجوم في مياهه فتبدو منارة في الأرض ترينا ضوء المشاعل. وذلك إذ يقول.

إذا جزْتما بالعيسِ دورةَ آبـــل فداست بـــأيديها تـــرابَ المـــزابل
أعيرا يَسَار الرَّكبِ لفتة ناظرِ إلى بردى والـــرَّوضِ ذات الخمائلِ
هنا لكُما نَهـــرٌ يُرى النّيل عنده إذا فاض من مصر كبعض الجداول
كأنّ طيور الماء فيـــه عرائس جلين على شاطيـــه خُضـــرَ الغلائل
وكم سمك فيـــه عليه جواشِنٌ من التبر صيغت وهو بـــادي المقاتل
جريحٌ بأطراف الصّفا فخريرُهُ أنينٌ لـــه مـــن مـــسٍّ تـــلك الجنادلِ
إذا قابل النَّهرُ الـــدُّجى بنجومه أرانا بقعر المـــاء ضـــوء المشاعلِ

ويأتي فتيان بمشهد تمثيلي حين يصف نهر بردى يسير في الوادي وقد أتى خاطباً، فيوافي فتاة منعمة حسناء، جديرة بأن تكون عروساً له، وتبدأ بينهما القصّة الغراميّة بالعناق، وتحمل هذه الفتاة فتضع طفلاً، وهو عين الفيجة أحد فروع نهر بردى.

يغلغل في الوادي فوافى كفيَّة		مُنعَّمةً حسناء ليسـت بعـاطِـلِ
فعانقها حتـى انثنت مُشمعلَّةً		تفكُّ على ظهر الصَّفا بطن حاملِ
فأولد عين الفيجة الأنهر التي		دمشق بهـا فـي أبحرٍ وسواحلِ

ويتذكر فتيان بعض الأماكن ويحن إليها وإلى ما فيهامن طبيعة جميلة، فالظباء الكحيلة، والبلابل والمنازل التي ينعم بها الشّاعر، فيتأوه عليها، وتلك الليالي التي قضاها في هذه المواضع فحاز الرّضى، والهوى، وعاش رغداً في الزّبداني، ويصف الحسن البديع والعيش الهنيء فيها:

وبالسّقح مـن أعلـى سنير منازلٌ		نعمت بهـا واهـاً لهـا مـن منازلِ
مضت بمضايا لـي ليالٍ حميـدةٌ		جنيتُ الرِّضى منها بإسخاط عـاذلي
ليـاليك يـا بُقيـنُ بيقن فـي الحشا		هوىً جارياً مجّرى دمي في مفاصلي
وبالزَّبداني زبدة العـيش جـاءني		بها المحضُ من محضِ الضُّروع الحوافلِ

ومنها:

ومـا زال ربع الأنس من كفر عامرٍ		يُرى عامر الأرجاء عَذب المناهـلِ
وكم فزت في الكبرى بكبرى المنى من		الزّمان وصُغراها بتـلك المحافـلِ
وفي عين حُورٍ حور عينٍ فواتـك م		اللّحـاظ فِصَاحُ اللفـظ خرسُ الخلاخلِ
وبـالدُّلـة الـحسن البديع مخيـم		لـه أثـرٌ فيهـا قـويُّ الـدّلائـلِ
وديـر قبيـس جنـّة أيُّ جنـّة		مشاربـهـا مشفـوعـةٌ بـالمآكـلِ
وزورا بلـودان المنيفـة تظفرا		بـعيشٍ هنـيءٍ ربعـهُ غيـر ماحلِ
أحـنُ إلـى أفيـاء أشجار دُمَّـرٍ		وأصبـو إلـى الـظِّلِّ الظليـل بآبلِ
ويـا حبـذا تـلك الجُديِّدة التـي		مرابـعُهـا معمـورةٌ بـالمنـاهـلِ
مرابع قـد ألقـى الرّبيعُ جرانـهُ		بهـا مُقسِماً أن ليس عنهـا براحـلِ

ويصف ابن خلكان الزّبداني بأنها أرض فيحاء المنظر تتراكم عليها الثلوج في زمن الشّتاء، وتنبت أنواع الأزهار في زمن الربيع. ويترجم فتيان الشّاغُوريّ هذا المنثور في نظمٍ جميل، فيصوّر هذه القرية في فصل الشّتاء، وقد تجمد الخمر في الأقداح، وأخمد الجمر، ويصور هذه الجنة فتاة مسفرة عن وجه حسن في زمان كلح وجهه وتنكر للشاعر، ويكشف عن جمال منظر الثلوج كالقطن تُقطف من السّحب، والجو يرسله، ولا يجد زائرها غير الحسن والملاحة، وزوال الهمّ.وذلك إذ يقول:

قد أجمد الخمرَ كانونٌ بكلِّ قدح وأخمدَ الجمرَ في الكانون حين قدح
ياجنّةَ الزَّبداني أنت مسفرةٌ عن وجه حسن إذا وجه الزّمان كلح
فالثّلج قطنٌ عليك السّحب تحلجُهُ والجو ندّافهُ والقوس قوس قزح
متى يَجُل فيك طرف الطرف من مرحٍ قريته لمحاً تأتي بِحُسنِ مُلَحْ
تلقى النواظرُ من روضٍ نواضر في قلوبنا فرجا من همتها وفرح

وقد تجاوز فتيان الشّاغُوريّ في وصفه وحنينه الطّبيعة الدمشقيّة، فقد وصف شدة حبه وتعلقه بالدّيار الحجازيَّة، كذلك وصف مظاهر الطّبيعة بشكل عام في قصائد ومقطوعات خاصة أنشأت لهذا الغرض، وقد عُني بوصف الرّبيع عناية فائقة، فرسم لهذا الفصل لوحات فنية في غاية الجمال، توضع أمام الناظر فيمعن في التحليل واستكشاف ما تحوي من المعاني والصّور، فهذا الرّوض مدبج ومفوف وكأنّه نسج يمني، والنّسيم يبهج النّفس، ويبدو الماء كالدّروع المحبوكة بتموجاتها وتدرجاتها إذا ما مرّ فوقه، وحول الغدران أشجار كالعرائس تختال وتتبرج، والطّير تصدح على الأغصان كالمغنيات. وفي ذلك يقول:

روض الربيع مفوَّفٌ ومدبّجٌ هل كان في صنعاء قدماً ينسجُ
عجبا له وهو الصحيح مزاجُهُ ونسيمه دنفٌ عليلٌ مبهجُ
وكأنّما الغدران بين رياضهِ حُبُكُ الدروع بمرِّه تتموج
أشجاره كعرائس تختال بين م غلائلٍ من نوره وتبرّجُ
والورقُ في العيدان كالقينات بالعيدان ترمل بالبموم وتهزج

ويلجأ الشّاعر إلى الطّبيعة محاولا الخروج مما هو فيه من عناء وبؤس، بين فقر وعجز وبين إعراض أولي الأمر، وتعرضه للوشاية والسّعاية، فيبدي ارتياحه للمشهد الطبيعي ،لذلك فأغلب الصُّور منتزعة من تمايل الرياح، وتغريد الطّيور وجريان الماء باعتدال وبرودة، يظهر الرّبيع كأنّه شخص ثمل يشارك الشّاعر معاناته والآمة. فيقول:

أوما ترى أنّ الــرّبيــع كأنـــّهُ ثَمِلٌ يُرَنِّحـــُهُ هبــوبُ رياحِ
فكأنّمــا أنفـــاســه مــا بيننـــا عَبَقَت بغاليــةٍ على تُفـّــاحِ
والرّوض يغمزنا بعيني نرجسٍ غضٍّ ويبسمُ عن ثغور أقاحِ
والطّيـــر بيــن مُغَردٍ ومُعَربدٍ ومــردِّدٍ ومُـــعــدِّدٍ نــوّاحِ
والمـــاءُ بين مُسَلسلٍ ومسجسجٍ ومهينـــمٍ ومـــُزمزم سيّاح

ويصوّر فتيان النّسيم محملاً بقطرات النّدى ينشر الذّهب والياقوت. وأنسنة الطّبيعة مظهر يغلب على أشعار فتيان فهو يستعيض بها عن الإنسان، وتزداد الصّورة جمالاً حينما تظهر الأغصان والطّيور وكأنّها نسوة تطرب وترقص:

والدّوح فيـــه الغصون مائلـــةٌ فكلـــُّهُ فاعــل ومفعـــولُ
والنّرجس الغضُّ طرفُهُ غَنـِـجُ بصفرة الزّعفران مكحولُ
والطّير فوق الغصون صادحةٌ كأنـّــها نســوةٌ مثـــاكيـــلُ

وتبدأ معركة بين الصُّبح والليل، فكأنّ الصّبح روميّ أغار على زنجي، وقد أعمل السّيف فيه حتى مزقه وبان الصباح:

والصّبحُ روميّه أغـــار علـــى زنجيٍّ ليل والسَّيفُ مسلولُ
على ظبى السّيف حمرةُ شهدت يا صاح أنّ الزنجيَّ مقتولُ
أدركـــهُ وهـــو راكبٌ سحراً طرفاً لـــه غرَّةٌ و تحجيلُ
فمكّن السَّيفَ مـــن مفارقـــة فهـــو قتيل لم يُبكَ مطلولُ

ويأخذه الحنين إلى أرض الجزيرة، وما يرتبط بها، نباتها ،ورياضها ونسيمها، فيذكر الرّند والبان والشّيح والحوذان والعبيثران وغيرها من النباتات والأزاهير في أرض الجزيرة، كما يحن إلى أيامه في سلع ونعمان الأراك والعذيب. فيقول:

هذا الحمـــى ورنـــده ُ وبانهُ   وشيِحُهُ فأوحـــهُ حَوذانُه
والرّوضُ والنّسيم قد جمّشـــهُ   فَهَبَّ من نـــورٍ عُبيثرانُهُ
والنَّرجسُ الغَضُّ رَنَت أحداقه   وأفتـــرَّ بالعذيب أُقحوانُهُ
يا صاح جُز سَلعاً وسَل عن عيشنا الماضي بها يا حبَّذا زمانُهُ

في حنينه إلى حاجرٍ يصوّر الشّاعر الطّير رهباناً في الصّوامع يتلون طقوسهم الدّينية بصوت شجي.

تألق البرقُ له عشيــــــــاًّ   فحنَّ حيـــن شامـــهُ نجـــديّا
ذكّرهُ لياليـــاً بحـــــــاجرٍ   ولّى بها عيش الصـّــَباهنـــيّا
والطّير كالرّهبانِ في صوامِعِ الأغصانِ يُشجي صوتُها الخليّا

وارتبطت بعض أشعار الحنين بالأماكن الحجازية والمصرية، وحبها وساكنيها قد يكون الباعث لها وجد الشّاعر وفقدان الأعزاء والأعوان والأحباب، فيتخيلهم في أماكن عدة، يرسل لهم بأشعاره لعلهم يسعفونه باللقاء، وقد تكون مناجاة للخالق عز وجل من خلال الحنين إلى الدّيار المقدسة نتيجة ما يمر به من ألم وحرمان، ولا نستبعد أن يكون مجرد تقليد شعري ألفه الشّعراء. ومن حنينه إلى هذه الديار. قوله:

من مبلغ نجداً ومن بنجـــدٍ   سَلامَ مَيتِ الصَّبر حيِّ الوَجدِ
يبكي متى شامَ بَريقاً بالحِمى   وقَلَّ ما يغني البكـــا او يجدي

ويحنُّ إلى جيرانه بذي سلم، ويهديهم سلامه، وقد جن شوقاً وحنيناً، فلا تفارقه طيفهم، فيقول:

أجيراني بذي سلمٍ عليكم   وان شطّت ديارُكـــم سَلامي
أحنُّ إليكـــم فأُجَنُّ شـــوقاً   وأبدي ما أُجِنُّ من الغـــرام

وأهوى النّوم لا للنّوم لكن لعل الطّيفَ يطرقُ في المنام

نلاحظ أنَّ الطّبيعة كانت متنفسا له، والنّسيم علاج الهموم، والطّير يشاركه حزنه وآلامه، فيحاوره مرة، وينشده السكوت مرة، وأخرى يتمنى شدوها وغناءها ويظهر تأثيرها في نفسه حين تنوح وتشدو، فصوت الحمام يذكر الشّاعر عهده القديم بنجد.

ربَّــة الطَّوق طوّقينــا يــداً تبقى بقــاء الأطــواق فــي الأعنــاق
اذكرينا العهد القديــم بنجــدٍ إن نجـــداً مظــنــة الأشــواق
نحن نوحي إليك سراً فنوحي واصدحي واصدعي حشا المشتاق
واسجعي تفجعي المحبِّ بصبرٍ غيــر باقٍ بل مــولــعٍ بالإباق

ويستثير الشّاعر عناصر الطّبيعة فيكسب عطفها وتفاعلها معه، فالطلل يبكي لبكائه، والإبل تتأوه لجرح الشّاعر وبلواه. وذلك إذ يقول:

بكيت بربعهـــم حتـــى بكا من رحمتى الطلل
ففــي قلبـــــي لبــينهــم جــروح ليس تندمــل
وكــم لــي حنّةٍ من حــرِّها تتـــأوه الإبـــــل

وتبدو الأحاسيس والمشاعر عند الحمائم والنّوق لا تختلف عما هي عليه عند فتيان فجميعهم يطرب لقرب الصّديق والرّفيق، ويبكي الفراق ويحن ويشتاق:

دع عنك لوم عاشقٍ تُطربُه حمائم البانات في غصونها
قد زاحم الورق على رنينها وشارك النّيــاق في حنينها
وقد بكى شوقــاً إلى قرينه كما بكت شوقاً إلى قرينها

وتكثر الصورة التقليدية المستوحاة من الطّبيعة في هذه الأشعار، فالممدوح أسد وليث في الشّجاعة، وسحابة وغيث في الجود، والمحبوبة غزال في الخفّة والرّشاقة

وغصن بانٍ في اللين، ونرجس في عيونها، ووردة خدودها، كالشّمس في الإشراق شعرها كالليل في السّواد.

الفخر :

لا يحتل الفخر مكانة كبيرة في شعر فتيان الشّاغُوريّ، ولكنّه كان يأتي ضمن قصائد المدح، والهجاء، والشكوى، وقد تنوع شعر الفخر على قلته، بين فخرٍ بالنّفس، وافتخار بالشّعر والشّاعريّة، وهناك أيضا الفخر بالقوم.

وأمّا في مجال الافتخار بالشّعر والأدب، وأبدأ به لأننا نجد الشّاعر قد أكثر منه، وقد فاق فخره بشعره الفخر بالنّفس، ويمكن القول إنّ الفخر بالشّعر يسود الكثير من قصائد المدح، فهاهوذا يفخر بمنطقه وشعره، فله منطق كالسّيف مضاءً، وحدةً، إذا استله يعجز عن ردّه ومجابهته كل سيف وحدّ، ولشعره طلاوة كالعقود، كلُّ بيت في القصيدة يظهر أجمل من الأخر. وذلك إذ يقول:

ولي مَنطِقٌ إمّا سللتُ غِراره ... يَعُدُ ناكِصًا عن حدِّه كلّ ذي حدّ

سأدفعُ في صدر التّواني براحتي ... وألطمُ خدَّي هزله بيدي جِدّي

وأنظمُ شعراً كالعُقود طلاوةً ... يُرى كلُّ بيتٍ منه واسطة العِقد

ويفخر الشاعر بأنَّ مدحته ذاتُ ألفاظٍ قويةٍ، صادرة عن عالم مفوَّهٍ، بعيدة عن الضعف والرَّكاكة، ويصور أشعاره بالحصان العتيق، بينما أشعار الآخرين دواب هزيلة. فقال:

خذ مدحة من عالمٍ مُفَوَّهٍ ... ألفاظُهُ حائدةٌ عن الرَّكك

أشعارُهُ قائلةٌ في دهرِهِ ... هل يستوي الحُصنُ العتاقُ والرَّمَك

ويصور فتيان قصيدته بأنّها طيبة النَّشر، تحاكي ذكر الأمير إذا افتخر بنسبه، ولو سمعها الشاعر السّرّي الرفاء، لما قال شعرا لجودة شعر فتيان وبلاغة.

فهاكها طيبة النَّشرِ حكَت ... ذكراك في النَّادي إذا الفخر نَسَب

لو طَرَقَت سَمعَ السَّرِيِّ لم يَقُل ... "عَرِّج على ذاكَ الكثيب من كَثَب

وبعبارة جميلة يفتخر فتيان بشعره، ويرى أنّ العيبَ الوحيد في هذا الشّعر أنّه يشبه الورد، ويفسر عدم إقبال البعض على تذوق شعره لأنّهم كالجعل (الخنفساء) ،وهي الحشرة التي تتأذى من الورد، فقوافي فتيان تروق السّامعين، تخلو من العيب والخطأ، أنشأها ناصعة كعقود الدّر:

وكم قوافٍ تَرُوقُ السّامِعين معانيها بلا خطأ فيها ولا خَطَلِ
نظمتُها كعُقُودِ الدُّرِ ناصعةً يتُحِلُّ مُنشِدَها من رَبقَةِ العَطَلِ
وعيبُ شِعري أنّ الوردَ يُشبِهُهُ وأنَّ جُلَّ بني ذا الدَّهر كالجُعلِ

وليس لأحدٍ من أرباب القريض مكانٌ أمام الشّاغُوريّ، فيضع نفسه في الطليعة في سباق الأدباء، ويصعب عليهم اللحاق به:

ولو أنّ أربابَ القريضِ تسابقوا في مدحه لأتيتُ وحدي أولُ

ولم يكتف فتيان بتلك المفاخر، بل ذهب إلى تفضيل شعره على غيره،السابق واللاحق، ويبالغ في ذلك، فمن الملاحظ إنّه يفضل شعره على شعر الأفوه الأودي ليس هذا وحسب بل أنَّ شعرة يلحق الأفوه بالهلاكِ لعدم قدرته على مجاراته ومحاكاته، ويفخر فتيان بأنَّ قصيدته قد أثنت فحول الشّعراء، وأصحاب المعلقات مثل لبيد بن ربيعة، وعبيد بن الأبرص، ويصور هذه القصيدة بالمرأة بالعذراء الطائعة لزوجها، الكفيئة التي تهدى لأكفأ ملك حاز العلا بمهرها، ولأنَّ الممدوح قادر على ردّ العَداء عن عثمان بن عفان، وإحلال الوفاق بين معاوية بن أبي سفيان وعلي بن أبي طالب –كرم الله وجه–، ولأنَّهُ فاق الفرسان العرب مثل عامر وعنترة و عمرو بن معدي كرب، فمن حق الشاعر أن يجعل مدحته في هذا الملك فخر في الشّعر والأدب. وفي ذلك قال:

لو كان يوم الدّار غازٍ شاهِداً عُثمانَ ردَّ عنهُ كلَّ حَدِّ
ولم يكن جَرَى الذي قَبلُ جَرَى بين أبي السّبطَينِ وابنِ هِندِ
فمَن هناك عنترٌ وعامرٌ لديه في الإقدام وابن مَعدي
يا أيُّها المَلِكُ الذي يهتزُ للمدحِ اهتزاز السّيف ذي الفرندِ

خذ مدحــةً وافتــكَ من مُفــوَّهٍ	بالأفــوه الأودي جاءت تــُودي
ردَّت لبيــدا كالــبليد وانــثنــى	عنــها عُبيــد في ثيــابِ عبــدِ
لا يَكنــدُ الكنــدي فضلَ مِثلَــها	أعنى امرأ القيس بن حجر الكندي
أهديتُــها عَــذراَءَ غيــرَ فاركٍ	لكنَّــهــا مــسرورةً بالــقَــصدِ
كَفيئَـــةً تُهــدَى لأكفــى مَلِكٍ	حـــازَ العُلى بمَهرِهـــا والنَّقدِ

وللشّاعر نثرٌ أراد أن يفخر به، فيصف خطبةً له بأنَّها الدُّر، وفيها من الشّعر ما هو أبهى من عقود اللؤلؤ في أعناق الحسان، كأنّما قائلها قِس بن ســاعدة الأيــادي المشهور ببلاغته وخطابته، أو فيها من فضل سحبان بن وائل، المعروف بفصــاحته وبيانه، ونلاحظ في هذه القصيدة أنّ فتيان الشَّاغُوريّ قد اعترف بفضل من ســبقوه من أعلام الخطابة والفصاحة والبيان، بعكس ما نجده في الشّعر من محاولة للتفــرد بقول الشّعر دون منافس، وذلك إذ يقول:

لي خطبةٌ كالدُّرِ نثراً وفيها النّظمُ أبــهى من عُقودِ الحِسَان
كأنّما قُــسُ إيــادِ أتى   بها وفيها فضلُ سحبان بان

ولا شك أنّ الشّعراء كانوا ينظرون إلى أنّ التحلي بالفروسية قــد يحقــق لهــم المجد، ولا يتحقق هذا إلا باقتحام صروف الدّهر ونوائبه، وقد يكون الافتخار بالنّفس ردّ فعل لما ينزل بالشاعر من الأحداث. فمثلا عندما هجا أحد الشّعراء الأمير بــدر الدّين مودود، تصدى فتيان للردّ عليه، فأخذ يهجوه، ويفتخر بنفسه، حيــث يصــف همته وقد عانقت الشّهب، وإذا كان اللقب يضفي جمالا على صاحبه، فــان الشّــاعر يفتخر بأنّه هو الذي يُجَمِّلُ اللقب، كذلك افتخر بقربه مــن الملــك، ونيلــه العطايــا والرفاهية، فأصبح لا يرهب ولا يخاف النوائب، وفي ذلك يقول:

أنا الشِّهابُ شِهَابُ الدِّين لا كَذِبَا	لي هِمَّةٌ عانقت في أوجها الشُّهُبَا
من كان جَمَّلَهُ في دهرِهِ لقــبٌ	فأنّنــي أنــا ممن جَمــَّلَ اللّقبــا
لا درّ درّك إنّي في ذُرَى مَلِكٍ	مــُرَفَّهاً وادعــاً لا أرهبُ النُّوَبــا
والكلب إن ينبح البدر المنير فلن	يُضيره ويعانــي الــذل والــتعــبا

وقد يأتي افتخار الشّاعر بنفسه ممزوجاً بشكواه، ففي صبره على فـراق مـن يحب فخر له، وليس في النّاس من يحتمل ما احتمله الشّاعر إلا نبي الله أيّوب عليـه السّلام.

صبري على الوَجدِ صبرٌ ليس يَحمِلَهُ   في النـّاس إلا نَبـِي اللهِ أيّـُوبُ

وقد افتخر فتيان بطريقة طريفة بعقله وحكمته، حيث نفر منه الآخرون وقطعـوه فيصف نفسه بالقلم الذي إن قط فيُرى منه الحِكَم،والعلـم، والفائـدة، بينمـا يصـف الآخرين بالشّمع الذي لا يُرى منه إلا السنا:

إن قُطِطنَا لم يَكُن نَدَمُ   قد يُقَطُّ الشَّمعُ والقَلَمُ
فيُرى من قَطِّ ذاك سَنَاً   وتُرى من قَطِّ ذا حِكَمُ

ويضع فتيان نفسه –مفتخرا– في المقدمة، ويَسخَرُ ممن يدّعون الشّـعر لوجـوده فهو الملك وهم خلفه في العلم والأهمية كالجنود:

قد ادَّعَى الشّعر أقوامٌ وليس لَهُم   يوماً على ما ادَّعُوه فيه بُرهَانُ
تَفَرزَنُوا وتبيـدقنا وما بَرِحـُوا   بيادِقَا وأنا في الصّـَدرِ فِرزَانُ

وله من الفضل والمحاسن ما يستحق الفخر – برأيه – ولكن أهل دمشـق عمـوا عنه ونبذوه، فيحسّ نفسه غريباً في دمشق، وكأنَّه المصحف عند الباطنيّة، والباطِنِيّة فرقةٌ في الشِّيعة يعتمدون التأويل في تفسير القرآن:

أراني غريباً في دِمشقَ وأهلُهـا   بصيـرون بي لكن عَمُوا عن مَحاسِنِي
فيا ضَيعَتِي فيهم وفَضلي ظاهـرٌ   كأنـِّي لديهم مصحف عنـد باطِنـِي

ويمزج أيضا فتيان بين الفخر والشّكوى والحِكمَة في قصيدته اللاميّة، فيفخـر بأخلاقه، واتزانه واجتنابه ما يؤذي العقل، ويفتخر بشجاعته، ويشبه نفسـه بالأسـد وغيره بالذّباب، وهو على مجده فقد نكس حظه، ووفر حظ من هو سيء، هو القادر على أصماء اللئام بشجاعته، دون خوف أو وجل، ويشبه نفسه بالشّمس فـي علـو مكانته ، وما أجمل هذه الصُّورة، فهو يرى أنَّه إذا قدَّمَ الله الآخرين وأخره، فلا ضير

فله أسوة في انحطاط الشّمس عن زحل ، وهي الأكثر إشرقا وألقا والأكثر أهمية للحياة، كذلك يفتخر فتيان بقناعته وأنفته، ويضع نفسه مع الأحرار، ويقتدي بالرسول الكريم- عليه السلام-. وفي ذلك كله يقول:

في عُنفُوانِ الصِّبا ما كُنتُ بالغَزل ... فكيفَ أصبُو وسِنّي سنٌّ مُكتَهِلِ
كأنني بمَشيبي وهو مُشتَعِل ... بياضُهُ بسوادِ الفاحم الرَّجِلِ
لم أُمسِ في غَمراتِ العِشقِ منغمسا ... ولم تؤنفني العُذَّال بالعَذَلِ
وما ازدَهَانِي سَرابِ المَكرِ والحِيَلِ ... ولا دَهَانِي شَرابُ الكَرمِ بالخَبَلِ
والأسدُ تَهرُبُ من قَرصِ الذُّبابِ وما ... أغرَى خِسَاس الوَرَى بالسَّادةِ النُّبلِ
لأنزَعَنَ في قِسِي الذَّمِّ مُجتَهِداً ... فأُصمِيَنّ لئاماً بعد مُرتَحلي
إن قدَّم اللُّه أقواماً وأخرني ... فالشَّمس مُنحَطَّةٌ في الأوج عن زُحُلِ
أنفتُ مِن طَمَعٍ مُدنٍ إلى طبعٍ ... وعِفتُ لَبسَةَ ذُلِّ الحَرفِ والأملِ
حتى م يا دهرُ لا انفكُ ذا ظمأٍ ... ولا أراك بوردٍ ناقِعاً غُللي
قَلبتَ لي عامِداً ظهرَ المِجنَّ ولم ... تَعطِف عليَّ ولم تَنفَكَ ذا مَيلِ
وما برحتَ على الأحرارِ مُجترئا ... لي أسوة في ذراري خاتم الرُّسلِ

ويظهر في هذه الأبيات أنَّ الفخر جاء ردّة فعل لما نزل بالشَّاعر من الأحداث وتقصير حظه، وتقوّل النَّاس عليه وحسده.فأتت الأبيات فيها الفخر والحكمة والذم جميعا.

وأما افتخار الشَّاعر بقومه فقليل جدا، فلا نجد سوى أمثلة محدودة في ذلك، وقد افتخر بهم في إحدى المقطوعات الشّعريّة، مصورّا قوتهم وصلابتهم، فهو بين قوم لا يرهبون الموت، ولا يخافون نار الحرب، وهم فرسان مقاتلون، سيوفهم نيران في أكف بحور من الندى والعطاء، وذلك إذ يقول:

أنت أذللتني وكنتُ عزيزاً ... في حِمى من مَحَلَّة الشَّاغُورِ
بين قومٍ لا يَرهَبُونَ من المو ... تِ ونار الهَيجَاء ذاتُ سعيرِ
يغمدون السِّيوفَ في قممِ الاعـ ... داء حتى تَجوزَ حدَّ الصّدورِ

فالسُّيوف النيران، فاعجب لنيرا ن تُرى من أكفّهم في بُحورِ

ويتعرض فتيان للسِّعاية والوشاية، فيمتزج عنده الفخر بالشّكوى، ويعيب عليه الآخرون أنّهُ من بانياس، فيفتخر بانتمائه لها، ويرى أنَّهم لن يتمكنوا من إخفاء حسبه، وإنّه لو دعا لأتاه من الرّجال أسودا ضراغمة، تمشي إلى الحرب مشية الختل والمرواغة، كالحجارة المشتعلة، يتصفون بالشّجاعة، إن يركبوا للحرب يترجل الفرسان صاغرين جثثا، ويصفهم بالسَّيل المنحدر من ذورة الجبل في إقدامهم واندفاعهم للقتال، فالنّصر عادة لهم، محمود بلاؤهم، هم أهل الجفان ،يرهبهم القاصي والدّاني، ويحتمي الشّاعر بهم ويصوّر مكانته بين قومه، فإذا رضي رضوا وان سخط سخطوا وكشروا عن الأنياب، قوم شجعان صحاح ليس فيهم من غش ولا بهرج، و فيهم يقول:

لو دَعَوتُ للبتني ضرا غمة تدأى إلى جاحم بالحرب مشتعلِ
كلٌّ من القومِ إن يركب إلى رهج يوما ترجّل رأس الفارس البطلِ
قومٌ إذا حَمَلوا في الرَّوعِ خِلتَهم الأ تيّ منحدراً من ذروة الجَبلِ
مُعَوَدو النَّصر محمودٌ بلاؤهم والخيلُ تعثرُ بالأشلاء والقُلُلِ
أهلُ الجفانِ إذا هبَّت شآميةٌ يَمتَارُها النَّاس من حافٍ ومُنتَعِلِ
إن أرضَ يرضوا وإن أسخط فكلّهم كاللّيث يُكَشّر عن أنيابه العُصُلِ
إن عابني أنني من بانياس فكم عيشٍ نَعِمتُ به في ظِلّها الخَضِلِ

الرِّثاء :

شَهِدَ القرن السّادس الهجريّ أنواعاً من المراثي، فقد رثى الشّعراء رموز الجهاد، وأبطال الحروب الصّليبيَّة، والعظماء من المعاصرين والأقارب والأصدقاء ويأخذ الشّاعر في قصيدة الرِّثاء بتعداد مناقب المرثي، ووصف حاله بعد فقده، ووقع المصيبة على الآخرين، وقد ينعكس هذا التغيّر على مظاهر الطّبيعة، وتقاس درجة الوجد في نفس الشّاعر بمقدار العلاقة التي كانت تربطه بالمرثي، ومكانته عنده.

وعند دراسة قصيدة الرِّثاء عند فتيان الشَّاغوُريّ، فان هذه القصائد لا تتعدى بضعة قصائد، أمّا الّذين رثاهم فهم: الملوك، المغيث بن العادل، المظفّر تقي الدّين عمر، غيّاث الدّين غازي، والأمير سعد بن محسن، والقاضي كمال الدّين الشّهرزوري، وابن عساكر، وكمال الدّين مودود بن الشّاغوُريّ، وهي لا تختلف كثيراً عن المراثي في هذا العصر ، حيث نجد أنّ التّفلسف حول الإنسان ومصيره والحياة والموت كان ضعيفاً، والشّائع هو التّعزية أو التأبين، التّعزية بالرجال المشهورين، والتأبين لهم، سواء أكانوا حكاماً، أم وزراءاً، أم قضاةً، أم رجالَ علم أم غير ذلك، فكان الشّاعر يرى أنّ من استحق المدح فقد استحق الرِّثاء، هذا ولم يهتد الشّاعر يومئذ إلى التجريد فيرثي الشّهيد، سواء أكان معروف الشخص أم، غير معروف، أو يرثي مجموعة من الأشخاص دون أن يعرف أسماءهم، لأنّهم ماتوا من أجل قضية كبرى. ولم نجد لدى فتيان أي نوع من مراثي المدن الإسلامية التي سقطت في أيدي الصليبيين.

وقد تحدثت في السابق عن أبطال الجهاد، وهنا لا بد من استكمال الصّورة بعد موتهم، وأكثرها كما قلت، يعتمد التعزية وهي نوع من المشاركة الاجتماعية ترتفع حرارة الحزن أو تنخفض فيها تبعا لعوامل نفسيّة وفنيّة مختلفة.

وقد عَزَّى فتيان الشَّاغوُريّ ملوك بني أيّوب بمن يموت من أقاربهم، فقال قصيدة يواسي فيها السّلطان صلاح الدّين بموت ابن أخيه الملك المظفر تقي الدّين عمر. افتتحها بأبيات يظهر فيها عظم الفقد، وجسامة الأمر، يقول:

أتى نَعْيُ مَلْكٍ أظلَمَ الشَّمسُ والقمــرْ ... لــه ووَهَى عِقْد الكواكبِ فأنْتَثَرْ
وأبدى بشرقِ الأرضِ والغْربِ رَجْفَةً ... تَطَأطأ فيها كلّ ما طالَ واشمْخَرّ

ويظهر التّبدّل والتّغيّر على الظواهر الكونيّة والطّبيعيّة، فلموت المظفر ظلمت الشّمس والقمر، وانتثرت الكواكب، وأصابت الأرض رجفة، فأنهدَّ كلّ عالٍ، واهتز كلّ صامد، وقد أضفى الشّاعر على هذه المظاهر، صفات الأحياء؛ لتحزن، و تلتاع لموت المظفّر، وقد عرفنا دور الملك المظفّر في الدفاع عن الإسلام، وصد الغزو الصّليبيّ، لذلك يتذكر الشّاعر مواقف البطل، وما آلت إليه الأمور بعده، من تمادي

الصّليبين وتقاعس القادة عن الجهاد، وقد يُظلَمُ بعض القادة المجاهدين في هذا الوصف والحكم من الشّاعر، لكنُه أراد أن يظهر دور المرثي في تحرير المدن الإسلاميّة.

وعُطِّلَتْ البيضُ الصِّفاحُ وأُهْمِلتْ مُتونُ العَوالي في الكفاح من الأُطُر
وفُكَّ صليبُ الشِّركِ من قَيْدِ أسرهِ وزُلزِلَ عرشُ المُلكِ من بعدما استقرْ

وقد طغى تعداد مناقب المرثي على بروز العاطفة الحزينة لدى الشّاعر في هذه القصيدة.ويرثي فتيان الملك الظّاهر غيّاث الدّين غازي بن الملك النّاصر، حيث يستذكر الشّاعر أمجاد البطل السّابقة، فهو المجاهد، وملاذ الملوك، ترجو العفاة عطاءه، و أرباب الصوارم جوده، وهو من أجلّ الملوك.

تَرَجـَّلَ عن شهبائه الظّاهر الغازي وكان بها البازي المطل على النازي
تَرَجَّـلَ عنها غيـرَ لاوٍ علـى أخٍ ولا وَلـَدٍ بـَرٍّ تَـرَحـَّلَ مجـتـازِ
وكانت ملوكُ الأرضِ في ظِلِّ فَضْلِه وقد كان ظـلاً وارفـا ليس باللازي
وكانَ جزيـلاً للعُفـاةِ عطـاؤُهُ يَظُنُّـونَ جَهـلاً أنَّه هـازلٌ هـازي
لقد سـُلَّ من عِقـدِ الملـوكِ أَجلُّهم وواسِطَـةُ التِّقْصـار أشرفُ ممتـازِ
لَئِنْ كان خَلْـقُ الخَلْقِ من طين آدم فمن نُـورِ خَلْقِ الله خلقـُك يا غازي

ويودُّ فتيان الشّاغُوريّ لو أنَّ الحياة تتوقف عند هذا الحدّ، بعد وفاة الملك غيّاث الدّين، فلا حدث يحدث، ولا شئ مستحق بعده.

وأنّي لأستسقـي السّمـاءَ لقبـرهِ وفيه بحارٌ كُنَّ عَيْشـاً لأَجـْراز
فمن بعدِهِ لاشـُدَّ سـَرْجٌ لسابـحٍ ولا رِيعَ طِرْفٌ في الهِياج بمهمازِ
ولا أُبرِزَ الإبريـزُ يومـاً لمُعتَفٍ ولكن سنـاه مُخْتَـفٍ بعدَ إبـرازِ
ولا قِيدَت الخيلُ العتـاقُ شَـوَازبا ولا هُزّ رُمـْحٌ في أَنامـل هزّازِ
ولا شَبَّت الحربُ الأَجيجُ ضِرامَها تُدير الرَّحى دَوْرَ الحُروف بهوَّازِ
عليـه سـلامُ الله ما حُبّب الغِنـى وطابَ به جمـع الكُنـوز لكنّـازِ

وعندما توفي الملك المغيث بن العادل استغلّ فتيان بعض المظاهر الطّبيعيّة التي حدثت للتعبير عن هول المصيبة وعظم الصدمة، وجعل ذلك حزناً عليه،فقد....زلزلت الأرضون حزناً وتفجُّعاً عليه، وتبدّلت أطايبها بالخبائث، وكُوِّرت الشّمس أسفا له، فيحسّ الشّاعر بأفعى تنفث سمها في صدره:

وكلّ النّـاسِ من أسفٍ عليــه ... يُخالُ بصدره صِلٌّ نَفوث
مصابٌ زَلزَل الأرضينَ حُزنا ... بدُنيـانا فأطيَبُهـا خبيثُ
ورزءٌ كُـوِّرت شمسُ المعالي ... له أسفاً وأُبهِـجَ من يَعيِث

ويفزع الشّاعر إلى العِبَر والحِكَم، يقدّمها، مواسيا الملك العادل، فلن تمنع الموت القصور والبروج المشيَّدة إذا جاء أجله، ولا يطمع الإنسان بالبقاء فأبو البشر آدم أودى قبلنا:

فلا عَدَدٌ ولا عـدَدٌ توقـيّ ... بها المَلِك المُغيـثُ المُستَغيثُ
ولم تُغْنِ البـُروجَ مُشيَّداتٍ ... عَشِيـَّةَ حُمَّ للأجـلِ الجُدوثُ
أبو بكر رجا عمراً إمامـا ... تَسيـرُ وراءه منه البُعـوثُ
فحالت دون مُنيته المنايـا ... وأرْخى جَيْشَها السيَّر الحَثيثُ
أَتطمعُ في البقاء وهل بقاءٌ ... وآدمُ قبـلَنـا أودى وشيـثُ
فلا يركن إلى الدُّنيا لبيـبٌ ... فَعِقدُ عهودِهـا واهٍ رثيـثُ

ورثى فتيان الشّاغُوريّ القضاة ورجال العلم، مثل القاضي كمال الدّين بن الشّهرزوري وابن عساكر، وتعد القصيدتان ضمن قصائد المدح، أو إنَّها أقرب إلى المدح منها إلى الرّثاء؛ لولا استخدامه صيغة الماضي (كان) في تعداده لمناقب الشّخصين، فقـد كان حظ القصيدتين من العاطفة قليلا، فقال في رثاء القاضي كمـال الدّين بـن الشهـرزوري:

عَدِمَ الإسلامُ مَعـْدومَ المِثال ... وَهَوَت مِن أَوجها شمسُ المَعالي
يا لَه رُزاءً لقـد حـلَّ حُباً ... قَبْلَهُ ليِثـتْ على شـمِّ الجِبـال
فالشّعورُ السُّودُ كالأيامِ بِيضا ... والوُجوه البيضُ سوداً كالليالـي

وتكاد هذه الصورة تتكرر في جميع مراثي فتيان، وهي صورة تَحَوّلِ الأمور وتبدّلها بشكلّ واضح بعد موته، فالشّمس والقمر والشّهب تظلم وتتكدر، والأسود يصبح أبيض، والأبيض يصبح أسود.

ويمضي فتيان في ذكر صفات ومآثر القاضي، فهو كهف لأهل العلم، وبحر في الجود، وحبر في العلم، وإن مات فذكره باق، ويتذكر الشّاعر هذه المناقب متلوعاً ومتفجعاً على القاضي، حيث يقول:

مات من كانَ لأهلِ العلمِ كَهَفا   وثِمــالا مُحْسِنـــا أيُّ ثِمــال

مات من خَلَّف أخلاف النّدىَ   شَــولاً من بعد دَرٍّ واحتفال

كنتَ بحرَ الجود إنْ حَلَّ سُؤالٌ   كنتَ حَبرَ العلمِ في كلّ سُؤال

فلئن مات كمـــال الــدّين من   بعد سلطـــانٍ وعــزّ متوالي

فلَقَد خلَّف ذكراً طابَ كالمِسكِ   تُهدي عرفــه ريــحُ الشَّمــال

ويظهر التّفلسف حول الحياة والموت، ولكن بشكلّ خافت، حيث يعلن الشّاعر إيمانه بالقدر المحتوم، وإنَّ الموت أمر لا بدَّ منه، لا يمكن الفرار منه أو مواجهته بكلّ جيوش الأرض وأموالها.

ويقول في ذلك:

أيُّها الشّامِــتُ بالموتِ أنتظر   فالرَّدى كاسُ مديرٍ ذي انتقال

ليس ينجو من سطاه من سطا   بجيــوشٍ تملأُ الأرضَ ومالِ

ثم يعزي الشّاعر القاضي ضياء الدّين بن الشّهرزوري بموت أبيه، ويفزع إلى العزاء بالسَّابقين، فيضرب لضياء الدّين الأمثال من الأقوام الذين بادوا بعد قوة ومنعة، ومال مثل طسم وجديس، وحتى أنبياء الله –عليهم السلام- لم يسلموا من ورود هذا المورد، فالكلّ صائر إلى هذا المآل ، ويدعو فتيان بالصبر لضياء الدّين والاعتبار من الأقوام السابقة، فقال:

ياضياء الدّين صبراً كلّ حَيٍّ   لفنـــاء غيــرَ ربــيّ وزَوالِ

أينَ طسمٌ وجَديسٌ والأولـــى   عَمَروا الدُّنيـــا بأمــوالٍ وآلِ

والنبــيّــون ومــن تابَعَهُــم   كلّهــم آلَ إلى هــذا المــآلِ

كُنْ كما كان كمالُ الدّين في   صبره عند المُلمَّــات الثّقــالِ

ثابــتٌ في الخير والشّر معاً   لذوي الطَّيش لدى الحالين قالي

ويعرِّج الشّاعر على مدح آل الشّهرزوري، فهم سادة الدّنيا لا مثل لهم ، فيهم الخطيب والأديب والفقيه:

يا ضيــاء الدّين انتــم سادةً   عندهم ما زالَ سِعرُ الشّعر غالي
منهم كــلّ خطِيــبٍ مصقعٍ   وفقيــهٍ مِــدْرَهٍ عنــد الجـِدالِ

وقد رثى فتيان ابن عساكر في قصيدة صوّر فيها خسارة العلم والعلماء بموته، ثم عكف الشّاعر على تعداد مآثر ابن عساكر وفضله في نشر العلم والدّين، وكيف ساءت الأحوال بعده وتبدّلت، ثم يعزي بني عساكر فيه، ، ويشاركهم حزنهم وفقدهم ابن عساكر .حيث يقول:

أيُّ رُكنٍ وَهَى من العُلمــاءِ   أيُّ نجــمٍ هَــوَى من العليــاءِ
إنَّ رزءَ الإسلامِ بالحــافظ   العالِمِ أمسى من أعظم الأرزاءِ
أقْفرت بعدهُ ربوعُ الأحاديثِ   وأمــوْتَ مَعَــالــمُ الأنَــبــاءِ
كان حبراً يُقري مسامِعَنا من   أســوَدِ الحِبــرِ أبيــضَ الآلاءِ
كان بحراً من عامَ فيه حباهُ   بالآلــي الأنيــقــة الآلــــاءِ
كان من أعلمِ الأنام بأسماء   رجــالِ الحــديــث والعــلماءِ
كان في دينه قويــا قويمــا   ثابتا فــي الضــرّاء والســرّاءِ
كان عَلاّمــةً ونسّابــةً لــم   يَخْــفَ عنه شيء من الأشيــاءِ
لكــم يابنــي عساكر بيــتٌ   سامــقٌ في ذرى العــلى والعلاءِ
فتعزوا عنـــه بصبــرٍ وان كـــان مضـــى باصطبـــارنـــا والعـــزاء

وتكاد القصيدة التي قالها فتيان في رثاء الأمير أسعد الدولة أبي الجود معن بن محسن، أقرب هذه المراثي إلى فن الرّثاء من حيث بروز عاطفة الحزن والألم لموت الأميرمعن، وإن كانت هذه العاطفة لم تصل إلى عاطفة الشّعراء المعروفين بمراثيهم، ولكنها أكثر وضوحا بين مراثي فتيان الشّاغُوريّ. حيث يقول:

بكت مَعَنا العلياءُ إذْ فقــدتْ مَعنــاَ   ولم يَبْقَ لفظٌ للقوافــي ولا مَعْنــى

وغارتْ نجومُ المكرمـــاتِ وكُوِّرت هنالِك شمسُ المجدِ كاسفةً حــُزنا
رعتْ بَعْدَهُ في الحي فُصْلانُ ذُورهِ وزال هدير المُقرم الصارع القرنا
وآضت له الأيام سوداً كأنَّهـــا سُرىً أصبَح التَّأويب فيها سُرىً وهْنا

ويظهر أثر هذا الفقد في المظاهر الطّبيعيّة و الظواهر الكونية، فقد غارت النجوم وكُوِّرت شمس المجد، واندثر كلّ كبير وعظيم، فأصبحت بعده الأيام سوداء.

وبعد وفاة الأمير أسعد الدولة وتبدل الحال، يعدد فتيان أفضاله وخصاله، ثم يستمطر ما في صدره من حزن ولوعة، فقد كره زيارة دارٍ خالية من ذكر الأمير ويتمنى فتيان أنه أصيب بالصّمم والعمى حتى لا يسمع ولا يرى نعي الأمير أسعد الدولة، وأصبح في حرق ونار لا يطفئها بحر من الدموع والبكاء،و قليلٌ البكاء وشق الجيوب بفجيعة من لا مثيلِ له ولا نظير :

وأنّى وقد ذُقَــنَا مــرارة فقــدهِ نَزور دياراً ما نُحبُّ لها مَغْنى
يمينا لقد بَــزَّ الزَّمـــانُ حجولَـــهُ وغرَّته من بعده والـــيدَ اليُمنى
وددتُ بأنْ لمَ يخلُقِ الله لـــي وقد نعاه لي النَّاعون عينا ولا أُذنا
فكم جرحوا قلبا وكم حرّقوا حشا بنَعيِهِم مَعنَاً وكم أقرحوا جَــفنــا
قليل لنا شــقُّ الجيــوبِ تأسفـــا وإسْبالُ دمعٍ بعضه يحمل السُّفنا

ويناصب الشّاعر العداء للأقدار، فيشعر بأنّه المقصود بخطف الأمير منه، فقد أصبح قلبه مرتعاً للهموم بوفاة أسعد الدولة، لكنها حقيقة الموت التي لا جدال فيهاولا مفر منها.

إذا كانتِ الأقدارُ خَصْمي فأين مَن يَرُدُّ إذا استَصرَختُ أنيابَها الحُجْنا
أفـــي كلّ يــومِ للخطوبِ إغارَةٌ عليّ بمن لا يسأمُ الضَّرب والطَّعنَا
أظــنُّ فــؤادي للهمــوم قرارةً فقد عَمَّ منه سَيْلُهـــا السَّهل والحَزْنا
وقد مـــات سعد الدولة بن محسن فأنّى أرى في النــاس مِثْلاً له أنَّى
عزيــزٌ علينـــا يا أبـــا الجود أننا حيِيَنـــا وقد غالَتْك أيدي الرَّدى مِنَّا

ولو رَدَّ عنه الموت بأس لأزهَقَت شفارُ المواضـــي أنفسا والقنا اللُّدنا
ولكنّـــه المـــوتُ الذي لا يُرَدُّ إن أرادَ مغـــارا في الأنـــام ولا يثنـــى

الغزل :

جاء الغزل في بلاد الشّام – في القرن السّادس الهجريّ – فترة الحروب الصّليبيّة، مصوّراً لعاطفة الحبّ الإنسانيّة الخالدة، الذي طالما تغنى به الشّعراء مصورين حبّهم للمرأة، وهيامهم بها، وما كانوا يشعرون به من سعادة إذا ما دنت منهم، وما يشعرون به من شقاء، وألم إذا ما بانت عنهم وابتعدت، أمّا حين كانت تُقبل عليهم، فكأنّها الشّراب الرّحيق الصّافي، أو الندى المفعم بالحياة، أو الرّوض الباعث للراحة والطمأنينة، والشّمس والقمر مصدر النّور والإشراق، وفي إعراضها عنهم، كأنّها تلقي عليهم شواظاً من نار تلدغ قلوبهم، ويصوّر الشّاعر كيف يتصل ذلك كله بقلبه ونفسه ومشاعره، كما يصور ما يجد في حبه من لذة أو الم، ومن نعيم أو جحيم.

وشاعرنا فتيان الشّاغُوريّ: أحد هؤلاء الشّعراء، وقد زخر ديوانه وفاض بالأشعار الغزلية الرائقة، وهي ذاتُ معانٍ منتقاة، وصورٍ معبرة، ونجد أن شعر الغزل عنده يمكن أن نسلكه في ثلاثة اتجاهات. أمّا الاتجاه الأول: المقدمات الغزلية التي كان الشّاعر يفتتح بها قصائد المدح، وهو لا يريد بها التعبير عن علاقة غرامية، ولا يتعدى كونه تقليدا شعريا، اتخذه الشّاعر لإيجاد الرابط والوشيج بينه وبين الممدوح، وغالبا ما كانت هذه المقدمات تتلاءم ومكانة الممدوح، ونسبه، وقربه أو بعده من الشّاعر، وقد أسلفت وفصّلت في الحديث عن هذه المقدمات ضمن دراستي لشعر المدح، و لا ضير إن أوردت بعض النماذج، وعرضت لها بالتحليل في هذا المقام.

وقد افتتح قصيدته – التي مدح بها الملك الأشرف شاه أرمن– بالتغزل بامرأة عربية تسكن نجدا، ويحن إليها وقد هجرت وبانت، فيذكر أيامه بالقرب منها، وقد تبدّلت الحال بالظلام بعد الإشراق، والسخط بعد الرّضى، ويبثّ الشّاعر أشواقه في

هذه الأبيات، متمنيا عودة تلك الأيام والليالي، فيُحمّل سلامه إلى سلمى المقيمة في نجد ،لعلها تحن وتبدي له مايتمناه وذلك إذ يقول:

انثَنى يُثنِي على نُعمَى النّعامَى حينَ حيّتهُ بأنفــاس الخــُزامى
وتنادى يا صـــبا نجــدٍ متى زرت سلمى أقرها عنى السلاما
ليت أيام الحــمى دامت لــنا أيُّ عيشٍ ســر ذا وجدٍ فداما
بيــنما أيامنــاُ مــشرقـــــة بالرّضى بُدِّلنَ بالّسخطِ ظَلاما
فكأنّ الهجرَ قد أضحى حلالا وكأنّ الوصل قد أمسى حَرَامًا

ولعل دلالة هذا الغزل تظهر بشكل واضح حينما نستكمل باقي الأبيات لنجد أنّ علاقة الحب هذه تعبر عن علاقة الشّاعر بالممدوح، أو علاقة دمشق بشكل عام به،فما يحس به العاشق من عذاب، وألم إذا ما فارقته محبوبته، كذلك حال الشّاعر أو دمشق في حال فارقها الملك الأشرف: فقال:

حبذا جلّق إذ كان بــها م الملك الأشرف من قبلُ أقاما
كانت الجنّةُ لما حسنت بســناه مستــقراً ومــقامـا
فهي مُذ ودّعها باكيـــةٌ تشتكي شوقاً وتوقاً وغرامــاً

وتتكرر هذه الصورة في معظم قصائد المدح، ويراوح الشّاعر فيها بين التغزل بالمرأة العربيّة والتركيّة، كذلك نجده يفتتحها بالتغزل بالغلام.وقد افتتح قصيدته في مدح الأمير فخر الدين جهاركس، بمقدمة يصف فيها امرأة أوقعته في هواها، وهذه الحورية التي أسرته تقابل روح الشّاعر وتزيد، ولا يجدها الشّاعر امرأة عادية، فقد حباها الله باللآلي تخرج من فيها إذا نطقت، وقوامها غصن لين ناعم، وليس هذا بجمال البشر إلا أن تكون ابنة للشمس، والقمر، فنافست سيدنا يوسف –عليه السّلام– في حسنه، ويحاول الشّاعر وصف محبوبته بأرق الصفات وأجملها، وهذا ليس إلا لأن جهاركس معدوم النظير. فقال:

أحوريةُ الحيّ رُوحِي فداك أما لأسيرِ الهــوَى مــن فكــاكِ
لقد كنتُ قبل هواكِ العزيزَ فأوقعنى في هوانـــي هـــواكِ

تبارك من باللآلي حباك وأودعهن لدى النّطقِ فاكِ
قوامُك غُصنٌ بحقف النقا متى اهتز لم يبق لي من حراك
ونهداك في الصدر مذ أُقعدا أقاما قيامة حبّ يراك
هل الّشمس أمكِ وقت الضُحى أم البدرُ في التمّ حاكى أباك
هنيئاً مَرئياً لعودِ السّواكِ بمسكٍ وراح بمجرى لُماك
أجدك إنَّك لا تفتئين تقولين يوسف حُسناً فتاك

وإذا كان الشّاعر قد قصد في المثال الأول من غزله شرح حاله بعد فراق ممدوحه، وفي المثال الثاني إظهار أنّ ممدوحه معدوم النظير، يستحق أن يكون فداء له الروح، فإننا نجد الشّاعر أيضا يبدأ قصيدته في مدح القاضي ضياء الدين الشهرزوري، بمقدمة غزليّة يشكو فيها الفراق، وما فعلت به الأيام، وما لاقاه من الواشين في حبّه، حتى افسدوا عليه هذا الحبّ، ولكنه صابرُ على الرغم من قسوة الحبيب وظلمه..ومن ذلك قوله:

لئن نأت بعد قربٍ منكم الدَّارُ فلي إليكم صبابـاتٌ وتِذكَارُ
أحبابنا لعبت أيدي الفِراق بنا حتى كأنَّا قِداحٌ وهي أيسارُ
أيام يستخبر الواشون عن خبري ولي على كتمي الأسرارَ إصرارُ
إنَّ الهوى جائرٌ في الحُكم ليس له في الجارِ لا في سواه يؤخذ الجارُ

وجاءت هذه المقدمة لكي يصل الشّاعر إلى أنّ عدل القاضي الشّهرزوري عمّ على الرّغم من سعي الواشين، فلم يترك الحكم للهوى، وإنما كانت وقفته إلى جانب الحق. وذلك إذ يقول:

لأجلِ ذلك يَنهَى النفسَ عنهُ ضيا ء الدِّين إنّ هَوَى أهلِ النُّهى عارُ
قاضٍ إذا اختلف الخَصمَانُ كان له في نصرةِ الحقّ إيراد وإصدارُ

وأمَّا الاتجاه الثاني في غزل الشَّاغُوريّ، فقد كان في (المرأة)، فنجد في ديوانه قصائد ومقطوعات شعريّة تتضمن الحديث عن هوى الشّاعر وعشقه، وشكواه من البعد والفراق، وهو الطابع الغالب على قصيدته الغزليّة، بحيث لا تكاد تخلو قصيدة

من الشكوى والتوسل، والاستعطاف، وإذا بالشّاعر قد حرم رؤية محبوبته، أو حتى من الإشارة، أو اللّمحة من بعيد، ولكن الأمل في اللقاء يظل يحدوه مهما تجرع الألم واحتمل من ألوان العذاب، ويبدىء ويعيد في تصوير معاناته، لعل صاحبته تعطف عليه، وتعيد ما كان بينهما من وصال.

وعلى الرّغم من أننّا لا نتوقع أن يكون للشّاغُوريّ علاقة، أو قصة غرامية، إلا أنّه يمكن للقارئ أن يلحظ شيئا من هذا القبيل، ليشعر بصدق عاطفة الشّاعر ويتفاعل مع النص، وكأنّه يعيشها معه، وخاصة في لحظات الشكوى، والحنين إلى ديار من يهوى، هذا ولم يخص فتيان بغزله فتاة معينة، وإنما تعددت الأسماء، واختلفت الأماكن والديار، فقد تغزل بعدد من النساء اللواتي عُرف التغزل بهن في الشّعر العربي في العصر الجاهلي وما بعده، وقد اعتاد الشعراء على ذلك، مثل (هند، ليلى، سلمى، أسماء)، وهنا أكثر من موضع ودار ألهبت حنين فتيان الشّاغُوريّ مثل: (نجد، زرود، سلع، قلبين، حاجر..).

ويصور فتيان ما اعتراه بسبب هواه من شقاء، ووجد، ونحل جسمه، فيبحث عن منقذ له، وهو طريح الفراش، يرى أن قبيح الغرام عنده جميل، في حين يرفض العزاء بمن يحب، ويبدو الشّاعر رقيقا في غزله، مبالغا في تصوير نفسه، بحيث أصبح عدما لا جسد له ولا روح، يستغيث القوم؛ ليبكوه ويندبوه:

لي غُبُوقٌ من الهوى وصَبُوحُ ... وبقلبي يغدو الهوى ويَروحُ
من رآني مُلقىً بظهرِ فِراشي ... قالَ هذا هو اللّقى المَطرُوحُ
يا لقومي ماذا من الوَجدِ ألقَى ... فاندبوني وابكوا عليَّ ونُوحُوا
لي روحٌ بغيرِ جِسمٍ وجـــسمٌ ... يقسمُ العائدونَ ما فيـــه رُوحُ
مَن مُجيري من الحبيب الذي ... فيه أعترانِي الشّقاءُ والتّبريحُ
فقبيحُ الغرامِ عندي جـــمـــيلٌ ... وجميـــلُ العـــزاءِ عندي قبيحُ

ويصور فتيان أساه في حبه، وكيف يفتت الأحشاء والفؤاد، منزل الحبيب، فلا يقبل بنزيل غيره، وإذا كان الوداع، فلوعة الشّاعر لوعة تستعر بين جوانحه، ويكون بدنه قرارة للأسقام، فيتهالك ويفقد الصبر والجلد،وبينما هو يذرف الدموع مدراراً

مرسلة كأنّها العقود الثمينة، التي كانت بالأمس هدية المحبوبة، بينماهو كذلك، يتذكر الأحاديث القديمة، والأيام الخوالي، وهي أغلى ما عاش وسمع، وإنّه ليذوب حسرةً وأسىً، والأمل باقٍ، لم يفقده، لعل الأيام تُسعفه باجتماعه بصاحبته:

يا ساكناً في فُؤادي وهو يَحرقهُ ... وليس قَلبي براضٍ غيرَهُ سَكَنَـا
يا قاتلي عامداً لو قيل: هل أحدٌ ... يُحبُ قاتلهُ عَـمدا؟ لقـلتُ أنـا
وداعُكم أودعَ الأسقامَ في بَدَني ... مذ حَثَّ حاديكُم يومَ النّـوى البُدنا
انتم خَلَعتُم علينا من صُدُوركم ... كمّا نزعنا ثيابَ الصّبر ثوبَ ضنى
أودعتم الّسمع قِدماً من حديثكم ... عـقودَ درّ علـت لما غـلت ثمنا
خُذُوا دموعي الّتي من مُقلَتي انتثرت ... فهي العـقودُ الّتي أودعتم الأذنا
ولسـتُ أيسُ من لُـطفِ الإله بأن ... يقضي بعودِ ليالي الوَصل يَجمعُنا

ويقدم فتيان قصته أثناء رحيل صاحبته عن الحي، وقد أطّر القصيدة باللهفة والظمأ واللوعة الملتهبة، التي لا سبيل إلى إطفائها، فعجز عن الكلام والبوح بما في صدره، لتفضحه دموعه، ويجري حوارا بينه وبين صاحبته، فيستنكر سؤالها عن حاله:

تَبُوحُ دُموعي واللسانُ صموتُ ... ويَحيى غَرامي والعزاءُ يموتُ
وقائلة لي كيف بِتّ فقلتُ مَن ... تفارقهُ الأحبابُ كيـف يَبِيتُ
رأيتُ الهَوى بي قاذفاً قعرَ هوةِ الهـوان بهـا أهـويت منذ هـويت

ويقوم فتيان بالتضرع والاستعطاف، وصاحبته تضع الصعاب أمام بقائها في الحي، وإن هي بقت فإنها ستبقى معرضة عنه، فيقبل هو بالقليل، ويتمنى العمى إن رأت عينه أجمل من هذه المرأة. وذلك إذ يقول:

فقالت أترضـى أن أُقـيم وأنّني ... أصدُّ متى ألقَاكَ.قلت رضيتُ
فقالت وما قُـربُ الدّيـار بنافعٍ ... إذا أنا بالإعراضِ عنك غُريتُ
فقلتُ بلى للقُرب خير من النوى ... لأنّي إذا شَطَّ المَـزارُ نُسيـتُ
وقالت عزيزٌ يا حبيبي عليّ أن ... تُراعَ ولكن عن رِضاكَ نُهيـتُ

وأكثر ما يكون الحوار بين الشّاعر وصاحبته – على قلته- توسلاً منه وتمنعاً منها، كذلك نلاحظ بساطة القصة الغرامية عند الشّاعر واقتصارها على وصف ما دار بينهما في ليلة واحدة، فيحن في إحدى قصائده، إلى أيام قضاها في الرقمتين ويصف ليلة له بالعذيب وحاجر ففيهما ، قصرت تلك الأيام إلا أنّها طويلة عند الشّاعر، ثم يصف الشّاعر فتاته التي نال عطفها بمدامعه المنهلة، ويتطرق الشّاعر إلى ما جرى بينهما من أمور العشاق، من ضمٍ وتقبيل، ويجري عتاب بين الحبيبين، فكلاهما يضع اللوم على الآخر في البعد والهجر، ولا يعجز فتيان عن وصفها بأدق الصفات وأرقّها، ويقول في ذلك:

أيامُنا بالرّقمــتين تــولت فعليّ أنواع الهــموم تولـــتِ
كم ليلةٍ بالعذيب وحاجــرٍ قصرت لــقد كثرت لدي وقلّتِ
وغريرةٍ رقَّت قساوةُ قلبها فَرَثَت لغيض مدامعي المنــهلةِ
فكأنَّها إذا فارقــت أترابها في الحُسن واسطة الفرند انسلت
فَضَمَمتُها شوقاً فكم من نُهلةٍ لي من ثنـــايا العِــــذاب وعَلَّـــة
فَتَبَسَّمت عن أقحوانٍ ناضرٍ فـــي روضةٍ بالحــزن ليلاً طَلّتِ
قالت مَللتَ مَحَبتي ورجعتَ عن عهد الصِّبى وأنا التـــي ما ملت
فأجبتُها مُتَعجِباً أنت الــتي رمت المُحِبَ بدائــها وانســلــّت

ويعيد فتيان نغمات العشّاق الجاهليين، وأحاديثهم، ومغامراتهم، فعقيلات بني عذرة، وخوف المحبوبة من أبناء العمومة، واستحالة اللقاء بالإضافة للوزن والقافية،والألفاظ، كل هذا يجعلنا وكأننا نقرأ قصيدة لأحد الشعراء الجاهليين، وهذه المحبوبة التي تعيش لوعة الحبّ تتمنع على الشّاعر، وترفض البقاء بالقرب منه ولقاءه، خوفا من أبناء عمِّها، ويصف فتيان هؤلاء الرجال على لسان صاحبته، بأنّهم رجال حرب، رماحهم مشرعة، وخيلهم تصهل استعداداً لغارة، فكلهم شوق إلى قتال، وإذا ما نودي باسم هذه المرأة، يغضب لها الشّمُ العرانين، وجدّت في السير(أسدٌ

تملأ السهل والجبل)، وهذه الصورة الضخمة والعظيمة لهؤلاء الرجال، إشارة من الشّاعر إلى شدّة المعاناة التي يعيشها بعيداً عن فتاته، واستحالة اللقاء. ويقول:

قالت أعزب ويكَ لا تطمع فكم طمــعٍ من عاشقٍ أردَى قتيلا
فعقيــلاتُ بــني (عُذرَة) كــم سلَبَت بالحُسنِ والدّلِ العُقُولا
ولعمري إن قلــبي منك فــي لوعةٍ ألــقت به الداء الدَّخيلا
وغير أنَّ الخوفَ من غيــري بني العــمِّ قد ألــزمني عنك الذُّهولا
ما تَرى السُّمر العــوالي شُرَّعا وعِتــاقُ الخيلِ يُعلنّ الصّهَــيلا
والمواضي يَتَلَمَّظنَّ ســمَامــا والعَــــوالي يتأطّــرن ذُبولا
والدّروعُ السَّــابريات أفاضت غُدراً تــبغي على الخيل مسيلا
وبــني العــمّ مشيحيــن إلى الحربِ يدعــون رعــيــلا فــرعــيلا
ومتى ما يدع باسمي مستعيرٌ أغضبَ الشّمّ العــرانــين الفحولا
وأشمَعَلّت بالقــنا أســد وغىً تملأ الحــزن خيــولا والسهولا

ونرى كيف جعل فتيان بتشبيهه قوة السيوف بأيدي هؤلاء القوم وكأنّها أفاعٍ، أو وحوش، تتلمظ، متلهفة للانقضاض على فريستها، وواضح مدى تأثر الشّاعر لفراق صاحبته في الأبيات التالية، وكيف يجعل من الشوق وزناً لها، ومن الدموع التي يذرفها قافية، وكيف كانت مواقف الوداع تلك، فالموت أكيدٌ في نظر الشّاعر، إذا ما دعا داعي التفرق والنَّوى، وليست أصواتُ الحداة إلا مكاوٍ تكوى قلب الشّاعر.

ولمّا دعى داعي النوى بــفراقنا كأنّي إلى شُربِ الحِمام دُعيتُ
وقد سارت الأقمارُ فوق هوادجٍ نعــمتُ بها يوم النَّوى وشَقيتُ
وساروا وأصواتُ الحداة كأنهّــا مــكاوٍ علــى قلبي بها كُويتُ
هم خَلَّفوني لا محــالة ميتــاً ومن دونِ وجدي من يُحب يموتُ

ويمكن تفسير العمق الغزليّ عند الشَّاغُوريّ،والحبيبة الممنعة، فحاجة الشّاعر إلى العيش الكريم الذي طالما افتقده بسبب نسيان الأمراء وذوي الأمر له ولحاجته فدائماً في غزله يكون موقف الوداع ولحظات الفراق، وتدخل الواشين، أو أبناء العمّ

للحيلولة دون لقائه بصاحبته، وها هوذا الشّاعر يتذلل للمحبوبة، فيجعلها شيئاً مقدساً لا تؤخذ فيه لائمة ولا عيبا ولا حراماً، فهو يقبّل نعلها إكراماً لها بدل خديها، ويودُّ لو يكون خده موطأً لأقدامها صوناً لها، وحفاظا عليها من الأرض التي تمشي عليها،وهذا أقصى درجات التذلل. وفي هذا يقول:

جاء الحبيبُ فما أقبلتُ منه عـــلى مواضعَ اللَّثم إكراماً وتنزـــيها
لكن سجدت على آثار أخـــمصـــه أُقبّل النعل إكــراماً لـــا فيـــها
وددتُ لو كان مَسعى أخمصيه على خدَّيَّ صونا لنعليه وترفيهـــــا

وتتكرر المعاني التي تضفي على محبوبة الشّاعر وما يتعلق بها: الجلال والقدسيّة، فيجعل أطلالها محرابه الذي يتعبد به، ويحسد فتيان المسواك على تقلبه في فمها ما بين درٍّ وعناب. وذلك إذ يقول:

لو كنت أُنصفُ أطلالا مررتُ بها جعلتها حيثما يممـــتُ محرابـــي
والنفـــسُ عاـــنيةٌ في حبِّ غاـــنيةٍ تسطو بطرفٍ غريرٍ ساحرٍ سابي
إنّي لأحـــســـد مـــسواكاً تقـــلبه ما بيـــن درٍّ وبلـــّورٍ وعـــــنابِ

وقد حرص فتيان على إظهار المرأة التي تغزّل بها بصورة تختلف عن غيرها، فهي ليست كأيّ امرأة، فالله جل شأنه، زيّن وجهها بالجمال، حتى كأنّها روضة، ألم يشبه خدّها بالورد، وثغرها بالأقحوان، ونور وجهها يُخجِل الشمس. وفي وصفها يقول:

فـــتبسمـــت عن أقـــحوانٍ ناضـــرٍ في روضةٍ بالحزن ليلاً طُلتِ
ثم استـــــمرت في غيـــابٍ خـــلته درّاً تســـاقط من عـــقود حُلتِ
بيضاءُ يُخّجل وجهها شمس الضحى حسناً إذا هي في السماء تجلَّت

ويشبه فتيان تلك النساء بحور الجنة في جمالهن، وبالدرّ إذا ما ركبن الهوادج، وقد شبه النياق والمطايا بالسفن والآل بالبحر، والخدود بالمحار لحظة وداع المحبوبة، وقد أَلِف الشعراء على تقديم المحبوبة بابهى صورها لحظات

الوداع،بعكس ما يكون هو فيه من حزن، وبكاء، وضعف في جسمه، وقد جردت هؤلاء النساء سيوفاً من لحاظهن، وإذا ماتبسّمن في الظلام، كشفنّ النور والإشراق حيث قال:

أنا الذي رأى بعينه على ... النياق في الحدوج حور الجنة
والآل بحرٌ والمطايا سُفنٌ ... وهــنّ درٌّ فــي مــحــارهنة
جردت الظباء من أجفانها ... بيــضَ الظُّبا تقــلتــنا بــهنه
إذا ابتسمن في الدّجى فعمن ... بالمسك العُلا وانجابت الدّجنّة

وكان للبيئة الشّامية تأثير واضح في شعر الغزل، سواء أكان ذلك في أساليبه، أم في معانية، ومن مظاهر هذا التأثر: اصطناع ألفاظ الحرب في التغني بالجمال ووصف المشاعر،ومما لا شك فيه أنّ هذه الصّور قديمة في الشعر، إلا أنّ الشّعراء الشّامين في القرن السّادس أكثروا من ذلك بصورة تسترعي النظر ، وعرضوه عرضاً طريفاً ، وكأنّهم يستوحون بيئتهم، وهي بيئة لم تعرف السلم إلا لماما(الرقب، 1993،238).

وقد جعل فتيان من كلام محبوبته حلاوة تضاهي نشوة النصر في الحروب وذلك إذ يقول:

فــدار ما بــيننــا عتابٌ ... كالخصبِ وافى على جدوبِ
وباتَ يقــري سمعي كلاما ... أحلى من النّصر في الحروب

كما يقارن الشّاعر بين أصماء عيون النساء الفرنجيات لقلبه، وبين فتك سيوف المسلمين بحملة الصليب في معركة حطين. فقال:

ومُحبّات تَشَرّينَ دُمَــيً ... كم دمٍ أجرينَهُ من عاشقين
حين يَشدُدنَ الزنانيرَ بها ... ثم يَحلُلنَ اصطبار النّاسكين
بعيونٍ فَعَــلَت ما فَعَلَت ... يوم حِطين سيوفُ المُسلمِين

وكثيرا ما يتكيء الشّاعر على ألفاظ الحرب حين يصوّر ما يثيره الجمال في نفسه من تباريح وأشواق:

إنّي قُتُلتُ و قاتِلي مــن لــم يَــشُم سيفاً سوى الطّرف الكحيل الأحور
ومن العجائب إن يُرى ليثُ الشّرَى في الغــيل مقتــولا بلحظ الجؤذُر
تحمي بأســهم مقــلتيها ثغــرها فالثّــغر ليــس يَرُومُه من عَسكَرِ

ويصور فتيان هذه المرأة الفاتنة كأنّها تقود معركةً، رماحها قدها، والسيف فيها العيون، وبه غلة ليس لها شفاء إلا ريق هذه الفاتنة من بين ثناياها كالأقحوان.

أما كفانــي طَرفٌ مــنك نَبــَال متى رَنَــا فهو فــتّاكٌ فقتّالُ
أنت الذي سَلَّ من جَفنيهِ صارمَهُ ولحظَهُ سهمُهُ والقــدُّ عسّالُ
بي غــلّةٌ وشفائــي برد ريقتــهِ من أقحوان الثّنايا فهو سلسالُ

ونجد استعارة فتيان للمظاهر الطبيعيّة في ابتكار صوره، فهناك صفة من الأقحوان، والنرجس، وغصن البان، وأخرى من الظباء والغزلان، وصورة أخرى من الشمس والبدر، كذلك صُورٌ من البيئة كالسّيف والرّمح والدّرع......

وقد راوح الشّاعر في غزله بين التغزل بالمرأة العربيّة، والمرأة التركيّة، وإن كان في بعض الأحيان يجري مفاضلةً بينهما ، فيجعل المرأة التركيّة هي الأولى بحبه وغزله، والسّبب في ذلك ملابسة النّساء من غير العرب للحياة العامة، وأمّا المقياس الجمالي الذي يعتمده الشّاعر عند الحديث عن المرأة، فنجد أنّ لا فرق بين ما يختاره لوصف المرأة العربيّة، أو التركيّة، فصورة المرأة (مرتجة الأرداف، لينة الأعطاف، قدّها كالرّمح، خصرها أهيف، نقية الثغر)، إلا أنّها إذا كانت تركيّة، فقد اكتسبت في العينين مقياسا جديدا وهو ضيقها، بينما كان يصف المرأة العربيّة باتساع العيون(العيون النجلاء) ويُجملُ فتيان هذه الصفات في قصيدة واحدة وذلك إذ يقول:

دَع الحِمَى وليالي الضَالِ والعــلَمِ وعدّ عن ذِكــرِ أيــامٍ على إضَــمِ
ولا تَقُل حبــذا نجــدٍ وساكــنــه ولا تُعرِّج على سَلــمَى بذي سَلــمِ
قدكَ اتّئب ما بناتُ العُربِ إن زَهَت بالحُسنِ مثل بنات التّركِ والعَــجَمِ

من كلِّ مرتــجَّةِ الأردافِ ليــنـــةِ   الأعطاف ممدوحةِ الأخلاقِ والشِّيَمِ
تُريكَ من وجـــهها والفرع حاسرةً   قناعَها، الشّمسَ في داجٍ من الظُلَمِ
تهز من قَدِّها في الحــقف رمحُ قنا   كم لي بطعناته فـــي القلبِ مـــن ألَمِ
هِيــفُ الخُصُـــورِ نقــياتُ الثُّغُورِ   يُطَرِّفنَ الأصابـــع بالعـــنّاب والعنَمِ
إن العيون التي ضاقت محاجـرُها   أمضى من النُجــل في قتلي وسَفكِ دَمِـــي

وأمّا الاتجاه الثالث في هذا الغرض (شعر الغزل) عند فتيان الشَّاغُوريّ، فكان غزله في الغلمان، أو التغزل بالمذكر بدل المؤنث، وقد شاع القول في هذا الغرض في بلاد الشَّام في القرن السّادس الهجري، وهناك من يعزو السبب إلى شذوذ جنسي لدى الشّعراء، أو إنّها أسباب سياسيّة، وبواعث نفسيّة، وقد يكون السّبب هو محاولة للانتقام من الأتراك والمماليك الذين سيطروا على البلاد، لذلك كان معظم الشّعر قد قيل في الأتراك في حين يرى آخرون أن هذه القصائد الغزليّة في المذكر كانت تقال تقليداً، أو تظرفاً، ولا يمكن اعتبارها مثلا من باب السّوء والشّر.

وبالنسبة لفتيان الشَّاغُوريّ، فلا أرى أن غزله بالمذكر كان من باب التظرف أو التقليد، أو حتى السوء والشر، وإنما أجده شعرا غزليا كما لو أنه قيل في امرأة فيخرج من أعماق الشّاعر ممزوجا بتعابير الفرح والزهو إن هو حظي بمقابلة هذا الغلام، كذلك فإنه يبثُّ في هذه الأشعار لواعج الألم واللألتياع إن أعرض عنه وصدّه،ولعل لانتشار الرّقيق من الأتراك في الشَّام من جهة، ومهنة التعليم التي عمل بها فتيان من جهة ثانية أثر في شيوع هذا الغزل عنده، حيث أتاحت مهنة تعليم الصبيان للشَّاغُوريّ الاحتكاك بهم عن قرب، والإمعان في مواطن الجمال عندهم، وقد تعدى فتيان ذلك إلى أن جعل قول الشّعر في الغلمان أولى من الإناث. حيث قال:

إلى الله نشكو من جَوىً بقلوبنا   يَنفثُ مَرِيضَاتِ الجُفونِ صِحَاحِ
ولم نرَ تُركيّـــا سِوَاكَ مبارِزَاً   يـــُجَدِّلُ أبطـــالا بغـــير سِلاحِ
فؤادي بسُمرِ التّركِ لأشكَ هائمٌ   فدَعني من بيضٍ كبَيضِ أداحي

ولم يكن الغزل بالمذكر عند فتيان الشَّاغُوريّ أمرا هينا، أو عابراً، فقد أخذ منه هذا الموضوع جهداً كافياً لأن يخرج بهذا الكم من القصائد والمقطوعات، ونجد

عدداً كبيراً من الأسماء من الغلمان الذين تغزل بهم فتيان مثل (إبراهيم،هيثم، الطّونبا، عبد الرحيم، أبو طالب، وغير ذلك)، وقد قام فتيان بوضع مقياس للجمال عند الصبيان، وما هي الصّفات التي يحبذ أن تتوافر فيمن يحبه ويهواه منهم، ومن هذه الصفات: أن يكون مهضوم الحشا (أي ممشوق القوام)، أخمص البطن، لم يبلغ بعد، ولم يتعدّ سنّ المراهقة، وأن يكون قد نبت الشَّعر على خدّيه، وان يكون حالياً وليس عاطلاً.ويقول في هذه الصفات المرغوبة لديه:

أنا لا أهوَى من الصّبيانِ إلا كلَّ مَهضُومِ الحشَا دونَ البُلوغ
كلّما رُمتُ جَنَــى وجنــتَيهِ حَجَبَتني عَقرَبُ الصّدغِ اللّـدوغ
فإذا رَاهَــقَ أُزهِقـتُ سَلُوّاً وجــفَاني كلّ شيطــان نــزوغِ
ما ترى الخِنصرَ لما صَغُرت عن بنات الكَفّ خُصَّت بالمصوغ

وقد تكررت صورة الغلام الذي نبت الشعــر حــول صدغيه، كــذلك صورة النظرات المصيبة كالسّهام، وقــدّه الممشوق، كأنّــهُ الرّمــح والسّيف، وفــي هــذا افتخــار لهمــا، وللغلام قدسيّة الصّنم المعبود عند الجاهليين، فلولا اتّقــاء الله لضلّوا به:

قوَامُكَ ثمَّ لحظُــكَ يــا غلام كأنّهُما المُثَقّفُ والحُسامُ
وللبيضِ المَواضِي والعــَوالي بذا التّشبيه تِيهٌ وابتِسَامُ
وأنّى للسّيوفِ فِعَالُ هذه اللّحَا ظِ وللقــنا هذا القــوام
هو الصّنم الّذي يبــدو فلولا اتّقاء الله ضَلّ به الأنامُ
فَضَمّ عقارب الأصداغِ منــه إلى حَنَش الذّؤابةِ لا يُرَامُ

ولقد خصّ فتيان الغلمان من الأتراك بغزله على الأغلب، وتحدث عن صفاتهم من ضيق العيون وغيرها.فيقول:

إليكــم بالعيــون النّجــلِ عنّي ففي الحدق الصّغار نَمَى الغَرَامُ
عيونُ التُّرك أنفذُ في الوَغَى مِن سِهــامهــم إذا ارتفع القــتــامُ

ويمضي الشّاعر في رسم لوحات جميلة، مسبوكة بأعمق المعاني، ومصاغة بأعذب الألفاظ وأرقّها، وما أجمل ما صور به غلامه الملقب (نجم)، فهو كالبدر المنير، والليل في شعره، وما الخمر الطيب إلا نتاج ريقه، والمسك رائحته، وقد أهدى فتيان لهذا الغلام هذه اللوحة الجملية، لعله يحن عليه ويخفف عذابه، فقد أصبح صعب المنال، هجره نار تكوي وتحرق، وبُعده أداة قتل في يديه تغضب نبي الله محمد –عليه السلام–، فيه يقوم:

يا نَجمُ كم أدنو إليك وتُبعِدُ ... حتى كأنّك في السّماء الفرقدُ
تكوي بنارِ الهَجرِ قلبي عَامِداً ... فإلى م قلبي صَابرٌ يتجلدُ
ما في الشّريعة قَتْلُ صبٍّ مُغرمٍ ... تالله ما يرضي بذلك محمدُ
أجفانُكَ المَرضَى بها أمرَضتَني ... عِدني وعُدني مَلَّ مني العُوَدُ
في القلبِ منكَ صَبَابةٌ وكآبةٌ ... كلتاهُمَا النَّار التي لا تَخمدُ
مالي إذا ما كنتَ عني غائباً ... إلا الدّمُوعُ على غرامي مُسعِدُ
ما بالُ قلبك لا يَلِين وأنت ذو ... ليـنٍ تكادُ به تُحَلُّ وتُفقَدُ
ذو العشقِ يُعميهِ الهَوَى ويُصِمُّهُ ... فيصير فيه العبدُ وهو السّيدُ

والمتأمل هذه اللوحة، يكاد يعيش ألم الشّاعر، ويحزن لحزنه، وكأن بالشّاعر يعيش حباً وغراماًمع فتاة لا يطاق فراقها، وفي هذه الأبيات من ألوان البديع كالجناس والطباق والتورية ما يزيدها تألقاً وإقناعاً للقارئ لها.

ويمكن القول إنّ القصيدة الغزليّة عند فتيان الشّاغُوريّ، خرجت بهذا الشّكل، بعد أن غاص الشّاعر في هذا الموضوع، فجاء بأصدافٍ، ومحارٍ جمّلت أشعاره وديوانه بشكل عام، في معانيه، وألفاظه، وصوره، وأساليبه، ومن جهة أخرى لا يوجد ما يدلّ على أنّ الشّاعر قد عاش حياةً غراميّة ألهبت فيه العاطفة للخروج بهذا الكمّ من قصائد الغزل، إذ إنه تغزل بالعديد من النّساء، كذلك برع فتيان في غزل الغلمان، وكأنه غزل أنثوي، وبقي القول إنّ الشّاعر قد ركّز في غزله على وصف المفاتن الحسيّة، تاركا ما تتصف به المرأة من صفات معنوية كالحبّ، والنّسب، والدّين، والأخلاق.

الإخوانيات :

كثرت الأشعار الإخوانية في شعر فتيان الشَّاغُوريّ، بشكل يسترعي النّظروكانت هذه الأشعار بين الشَّاعر وأصدقائه، من العلماء والأدباء ورجال الدّولة وجاءت معرضا للعتاب، أو الحنين ، أو الشكوى ، كذلك شملت موضوعات أخرى مثل المؤاساة، والتهنئة بالعيد، أو الإبلال من مرض، أو بمولود جديد، أو بعام جديد أو شهر رمضان، وكانت أيضا في التفكه والتندر، ....وغير ذلك.

وكان للرئيس الأجلّ عماد الدِّين رسلان بن علي، الحظ الأوفر من مراسلات فتيان، وقد بعث له بقصيدة، وهو (رسلان) في الدّيار المصريّة، شكا فيها البعد والفراق، والتمس منه الاجتماع والوصل، فعرض في القصيدة ما يختلج نفسه من المشاعر الصّادقة، الرقيقة تجاه عماد الدِّين رسلان، فلا يشفي غليله غير الوصل وإن لم يكن فبأقل شيء وهو التراسل والمكاتبة، وعدم تركه في عذاب وقطيعة وذلك إذ يقول:

ردوا من جفون العينِ فَيضَ حيا السّحبِ ودونكم فاستوقدوا النّارَ من قلبي
حَنيُتم ضلوعي بالفراقِ على الجَوَى وغادرتُم قَلبي جَنيباً مع الرَكبِ
وبي غلةٌ لو تعلمون إليكم كغُلةِ ضمآنٍ إلى البارد العَذبِ
فإن كنتم بالوصلِ عني بَخلتُم فجُودوا بكتبٍ لا أقلَ من الكُتُبِ
أطلتُم عذابي بالقطيعة عامدا فباللهِ لِمَ عاقبتموني بلا ذَنبِ
ظَلمتُم مُحِبَّاً ما يحبُ سواكم وليس له ذنب إليكم سوى الحبِّ

وكان العتاب موضوعا لبعض القصائد الإخوانية عند فتيان الشَّاغُوريّ، ومن ذلك قصيدته التي بعث بها إلى ضياء الدِّين الدَّولعيّ، وفيها يعاتبه على تقديمه الآخرين ونسيانه الشَّاعر وهو الخليق بالتقديم، وليس هؤلاء القوم إلا صبيانا عند الشَّاغُوريّ، ويبدو أنّ الأتراك كانوا ذا حظ أوفر من العرب عند الدَّولعيّ، فقال:

لعمر ضياء الدِّين إنّي لمُظهِرٌ لهُ كُلَّمَا قد كنت أُخفي وأُظهرُ
تُقدّم أقواماً علينا وإنّنا لأخلق بالتقديم منهم وأجدرُ
وترفع صبيانا علينا كأنّهم مشايخ علم في النّدى تصدروا

وتــكسر منــا أنفســاً عــربيّة بسالتها ليست على الضّيم تصبرُ

وينفث فتيان ما في صدره الجريح جراء فعل الدَّولعيّ به، ويغضب بعض الشيء لتحتد نفسه، وترتفع حدّة كلامه ولهجته، فيقول للدولعي: إنّنا لسنا كالبقر في الدَّولعيّة نفعل كل شيء بمشيئتك، ولكن قدر الشَّاعر وقومه أجل وأرفع عند غيره من الولاة والقضاة، ولم يكن الدَّولعيّ يبدي سرورا إذا ما دخل عليه فتيان، فرد السّلام عليه بوجه مقطب، وصوت لا يسمع، ولكن الودّ هو من قاد الشَّاعر للدولعي وليس فتيان من يتغير ودّه وإخلاصه، ولكن الأمر قد بلغ مبلغا عظيما، فيعتذر الشَّاعر من الدَّولعيّ، ويقرر الإزماع والرحيل ويدعو الدَّولعيّ للتمهل وعدم التكبر والتعجرف، فلا حاله في الملك بدائم بمشيئة الله:

أمن بقــرٍ بــالدَّولعيّــة خِــلتَنَــا فتوردهــا أنَّــى تشــاءُ وتُصدِرُ
ولــو أنَّنــي يممتُ غيركَ لــم يكن لــديه مُقامــي هكذا حين أحضرُ
ولا كــان يلقــاني بوجــهٍ مُقَطِّــبٍ يردُ ســلامي خفيــةً حين أجهرُ
ولكــن فرط الــودِّ نحُوك قــائــدي ولســتُ أمــرأً عــن ودّ ه يتغيرُ
وقــد قلت والمصدور لا شك نافثٌ فعذرا خلاك الــذم والحُرُّ يعذرُ
لئــن دامَ هــذا منــك إنِّي لظاعن وكم مثلها فارقتها وهي تصفــرُ
رويــدك كــم هــذا التعجرف كلّه سيذهب عنك الحــال والله أكبرُ

وقد بعث فتيان قصائده في المناسبات المختلفة، كالتهنئة بالإبلال من المرض أو تهنئة بعام جديد، أو شهر رمضان، وقد كان الشيخ تاج الدِّين الكندي قد أبّل من مرض أصابه، فبعث إليه فتيان بقصيدة عبر فيها عن جزعه وحزنه الشديد لما أصاب الكندي، كما وصف ابتهاجه وسروره بشفائه، منوها بأخلاقه وفضائله . وذلك إذ يقول:

جزعتُ ولم يكن جَلَدي صبوراً وعــن خَلَــــدي أبى إلا نُفُورا
وخِفتُ وقــد وقاني الله من أن أرى يومــاً عَبوساً قَمطَريــرا
عشيَّة قيل تــاجُ الدِّين مضنى نَحيفــاً يــا لــه يَفنَاً كبيــرا
فوافاني البــشيرُ ببرئــه مِــن شَكِيتــهِ فقبَّــلــتُ البشــيــرا

وقلــتُ ونالنــي جَــذلٌ عظيمٌ مقــالًا لــم يكن مِينــاً وزورا
إذا الكنــديُ تــاجُ الدِّينِ زيــدٌ أُبلَّ ولم يَبلُ حزتُ الســرورا
وصار ببرئــه زمنــي ربيعــاً مريعــاً متأقــا نــورا ونورا

وقد بعث فتيان بتهانيه بالمناسبات الاجتماعيّة الأخرى من خلال القصائد، فقد رفع إلى الأمير بدر الدِّين مودود أبياتا، هنأه فيها بحلول سنة (585هـ)، معربا عن سروره بهذه المناسبة. وذلك إذ يقول:

كسوتَ بدر الدِّين من حُسنِكَ الدَّستوتَ حسناً والدّواوينا
هنئت رغماً لأنوف العــدى بعــام خمسٍ وثمانينا

ويهنأ الملك الأمجد بحلول شهر رمضان، فقال:

هنيئاً له شهر الصّيام ففعله به متجر عند الإله ربيح

ويبعث بقصيدة أخرى للوزير صفي الدِّين بن علي، هنأه فيها بالعيد السعيد، وقد أثنى عليه ومدحه. فقال:

نحن فــي دولةٍ بعــدلك ردّت بسناها للشّيبِ سِنَّ الشَّبابِ
فإرقَ فوق العليا ودم ما علا تبر الحميا في الكأس درُّ الحباب
وتهنــأ بكــلِّ عيــد سعيــدٍ جامــع للحــبِّ والأحباب

ويقدم فتيان للملك أبي المظفر عيسى بن أبي بكر التهاني بالمُلك والنَّصر على الأعداء، كذلك قدومه من الحجّ، ويتحسر على تخلفه عن مرافقته، ويشكو إليه البعد، وفي ذلك يقول:

وبحجِّــه حــاز الكمــالَ بأسرِهِ فلَــهُ جــديدُ سعادةٍ وقد يمُ
لــو ساعــد المملــوكَ سعــدٌ سار في كنف الرِّكاب وإنّه لكريمُ
لكنَّــهُ لمــّا تــأخــر فــاتــــهُ منــه نعيــم واحتوته جحيمُ
لــم ينقع الظّمأ الّذي بفــؤاده حــجُّ المقــام بــل الأوام مقيــمُ
أنا إذ بعدتُ كصاحب الحوت الّذي نــادى الإلــه وانــه لكظيم

وقد بعث الرئيس عماد الدِّين رسلان إلى فتيان بكتاب يخبره فيه عن إقلاعه عن شرب الخمر وتوبته، فيرد عليه فتيان بمجموعة من الأبيات يثني فيها على ما فعل ويرى أنَّهُ قد أفلح وجاء خيراً ويداعبه ،ويقول إنّ الخوف من إغراء المغنين لك وعودتك لمجالس الشّراب والغناء واللهو. وذلك إذ يقول:

ذكرتَ لي يا سيِّدي توبةً   قدَّمَّتهـــا والتَّـــائِبُ المُفلِـــحُ
وأنتَ فيمـــا قلتَهُ صادقٌ   إن لم يكن أفسدَكَ المُصلِحُ

وجاءت بعض القصائد الإخوانية كبطاقات الدّعوة، حيث أرسل فتيان بقصائده إلى الأصدقاء يدعوهم فيها لزيارة دمشق، ويغريهم ويستقدمهم من خلال الاستطراد في وصف الطَّبيعة الدِّمشقيّة من رياضٍ وأنهارٍ ومجالس، وهاهوذا يستدعي أحد الأصدقاء للتمتع بجمال دمشق ومشاركته لذّة العيش. فقال:

بـــادِر إلينا فإنَّ الرَّاحَ مُمكنةٌ   والكأسُ دائرةٌ والشَّملُ مُجتمِعٌ
ويومنا طيّبٌ صافي الأديم وما   فيه هواءٌ ولا في رأسِهِ قزع
والزّهرُ يلعبُ معتلُّ النّسيمِ بـــه   والبُمُّ منخفضٌ والزّير مرتفع
والطّيرُ ترقص ُفي الأغصان من طربٍ تكـــاد منه علـــى هاماتنا تقعُ

ويدعو الرئيس عماد الدِّين للتمتع بجمال الطَّبيعة ومبادرة الفرصة، وسط الدَّوح والورِقُ ترقص ورائحة الورد كالمسك تعبق، والماء الصافي العذب جاري، وفي ذلك يقول:

فبادر بنا يـــا أخـــي فرصةً   فلذة ذا الدّهـــر تُستفـــرصُ
لننظر دوحـــاً وورقاً علـــى   ذوائب أغصانـــهـــا ترقصُ
ووِرداً هو المسك في نشره   إذ فـــــاح لكنـــّهُ أرخـــصُ
يريك خدود الغواني غـــدت   بأظفار عُشاقهـــا تُقـــرصُ
وماءً صفَا وحَـــلا طعمُـــهُ   ورَقَّ وزاد فمـــا يَنقـــــُصُ
فقم لنرى حسن صنـــع الإلهِ   فما زلتَ في مثل ذا تحرصُ

وليس للشَّاعرصبرٌ على الخمر فيوجه كتاباً إلى صديق له يدعوه فيها للقدوم، ولن يقبل له عذراً. فيقول:

فأتنا يا أبـــا المَحاسنِ إنَّا كنجومٍ وأنتَ للشُّـــربِ بـــدرُ
وأتِنا بالمُـــدَامِ إنّا أُنـــاسٌ مالنا عن شُربِ المُدَامةِ صَبرُ
وتَفضَّل كمـــا عُهِـــدتَ ودع عنك اعتذاراً فليس يقبـــلُ عُـــذرُ
وإذا ما تأخّرُ الخَمرُ عنا كان للشِّعر فيـــك نهيٌ وأمـــرُ

ومثلما شكا فتيان فقره في قصائد المدح والشّكوى، كذلك كان الفقر من موضوعات القصائد الإخوانية، فنجده يكتب إلى شرف الدِّين الحلي يشكو فقره وسوء حظه، فيرجي الوصل والعطاء فيصف ما هو فيه من العوز والعجف ويرى في زيارته لشرف الدّين خيرا له وفرجا لضائقته. . فيقول:

أتحسبون غَـــربَ أجفانـــــي جَف بعد النّوى لا وضريـــــحٍ بالنَّجَف
أكـــفكـــفُ الـــدّمع بخـــدِّيَّ أسىً فيمـــلأ الكفَّيـــن كـــلمـــّا وكَـــف
لـــــو أستطيـــع زورةً زرتُكـــــم حتـــى أُرى ذا سِمَنٍ بعـــد العَـــجَف
بَشَّرنـــي النَّـــاسُ بألـــفِ درهـــمٍ إن لـــم تصل واصلني كـــلُّ أسَف
وإنّ لـــي تَصَـــوُّنـــاً طـــائـــرُهُ لـــم يَـــدنُ من دنـــاءةٍ ولا أســـفّ
إن حصَّ ريشي زارقُ النعـــّاب في الوكر فمَن قَـــصَّ يجـــودُ بالعَلَـــف

ويتّسع الشِّعر الإخواني عند فتيان الشَّاغُوريّ ليشمل الفكاهة والتندر، من خلال الصّورة السّاخرة، والهزليةّ التي قدمها في شعره، ومن أمثلة ذلك أنَّهُ بعث إلى ملك النُّحاة بقصيدة هجاه فيها وسخر منه، وقد بدت في ظاهرها مدحاً وليس هجاءً، وقد عضَّ قط يد ملك النَّحاة، فقال فتيان أبياتاً حاور فيها القطّ ويعتب عليه أن عضّ يد الشيخ العالم والجواد والكريم، فكان ردّ القطّ وبصورة طريفة تظهر فيها السّخرية يصف ملك النّحاة بصفات لا تليق به، فيجعل من القطّ نداً لملك النّحاة، وفي ذلك يقول:

عَتبتُ علـــى قطٍّ مَـــلِكِ النُّحاة وقــلتُ أتيتَ بغيـــرِ الصَواب

عضضتَ يـــداً خُلقت للنَّـــدى وبثِّ العلومِ وضَربِ الـــرّقاب

فاعرَضَ عنـــي وقـــال اتّئب أليس القِطَاطُ أعادي الكِـــلاب

وقد انقطع فتيان عنه أياماً، فكتب إليه ملك النّحاة يبعث إليه بالتحية، ويعد أن ما صدر عن فتيان مدحاً ليس إلا، ويقبل الاعتذار منه، ومن ذلك قوله:

يـــا خليلـــي نلتمـــا النعمـــاء وتسنمتمـــا العُـــلا والعـَــلاء

ألمما بالشَّاغُورِ بـــالمسجد المعمــــ ور واستمطـــرا به الأنواء

وامنحا صاحبي الّذي فيه مِن كُـــلِّ وقتٍ تحيـــةً وثَنـَــاء

ثـــم قـــولا لـــه اعتبرنا الّذي فِهتَ به مادحـــاً فكان سمـــاء

وقبلنـــا فيـــه اعتذارك عمّـــا قالـــه الحاســـدون عنك افتراء

الفصل الثالث

الدراسة الفنية :

أولا : بناء القصيدة

يرى النّقاد أنّ القصيدة العربيّة ذات بناء يتكون من مقومات عديدة تؤدي بها إلى بناء يتم فيه تكامل المعاني الشّعريّة المتبلورة في حقائق لغويّة، فالعالم الّذي تتألف فيه القصيدة عالم متجانس تتلاقى أفكاره وتتعاقب في حركة مطردة،(بكار، 1979،26)، وقد ميّز النّقاد بين ثلاثة أجزاء لبناء القصيدة العربيّة، هي المطلع والتخلص ثم الخاتمة .

ومنهم من يرى أنّ مبدأ كلام الشّاعر يجب أن يكون دالا على مقصده، ويفتتح بما هو عمد في غرضه ،وهكذا المبادئ " دالة على غرض الكلام " كما يقول وهي الطّليعة الدّالة على ما بعدها المتنزلة من القصيدة منزل الوجه والغرة .(العسكري، 1981،287).

وقد اهتمّ النّقاد بمطلع القصيدة فوجهوا أنظار الشّعراء إلى أن يبذلوا جهدهم للإجادة فيه، فالمطلع الجميل يكون داعية إلى الاستماع لما يجئ بعده من كلام ويكون له أثر كبير في نفس السّامع.(العسكري، 1981،287).

ويجب أن يكون المطلع دالا على المعنى المقصود من ذلك الكلام، إن كان فتحا ففتحاً وإن كان هناءً فهناءً ...(ابن الاثير، 1962،3:96)، ويشترط النّقاد في المطلع أن يكون عذب اللفظ سهل السبك ، صحيح المعاني، وأنّ عيب الشّاعر فيه ما يفحش لفظه.(مصطفى،1984،166).

وقد سار الشّاعر فتيان الشّاغوريّ على أسس ومعايير النّقاد في قصائده ، ولا سيما قصائد المدح ، فجاءت هذه القصائد في ثلاثة أجزاء ، يبدأ بالاستهلال الحسن ثم يتخلص إلى غرضه، وبعدها يختتم قصيدته فيجتهد، وهو بذلك يحقق شرط النّقاد الّذي يؤدي إلى " استعطاف أسماع الحضور واستمالتهم إلى الإصغاء" (الجرجاني،1966،48).

ومن أمثلة المطالع الحسنة عند فتيان، قصيدته الّتي يمدح فيها الملك شرف الدّين عيسى بن أبي بكر بن أيوب، ومطلعها :

كفى حزنا أنّي عن الحيِّ سآلُ وقد أقفَرت منكم رُبوعٌ وأطلالُ

ويتميز هذا المطلع بلطافة المعنى، وجمال الصّياغة، ورقّة الموسيقا، فأدى بذلك دورا ذا أثر عميق في النّفس، فمنذ البداية يضعنا الشّاعرفي جو انفعالي حزين يمتلئ من الصدق والحرارة ، ويفيض باللوعة والحسرة، ثم يمضي الشّاعر في النّسيب الرّقيق، في تناسب جميل،وترابط محكم، فيقول :

وكانت بها الآجالُ تَحتضرُ غيرةً فصارَت بِها في الحَيّ تَحضُرُ آجالُ
أسَرُّوا النَّوى لو لا غَرابيبٌ وُقَّعٌ ألا إنّما الغـرِبَانُ للسِّرِ غـرِبَالُ

وينتقل الشّاعر إلى وصف رحيل المحبوبة دون أن يقطع كلامه فيصفها وقد بدت غداة رحليها بأبهى حالها وحليها، وكأنّ بالجمال يسير ويرحل رفيقا لها وهؤلاء النّسوة كالبدور إشراقا وهنّ اللؤلؤ المضيء والنفيس، ويصف الهوادج بالأصداف والرواحل كالسّفن في بحر من الآل ، فيرسم فتيان هذه الصُّوَرة المشرقة لمعشوقته ينتقيها من عالم مظلم وهو وسط المحيط ، ثم يأتي بصوّرة أخرى تحمل الضدّين فهذه المحبوبة ظبية في الرّشاقة والخفّة وجمال اللحاظ ، ولكنها تحمل خلف هذا كلّه الهلاك لمن رآها وعشقها وما هذه الصُّوَرة إلا انعكاسات لحالة الشّاعر الخائف من فراق ممدوحة وبعده عنه ، فيقول :

لقد سار إذا ساروا الجَمالُ بأسره تَخِبُّ به تحت الهوادج أجمالُ
سفرن بدوراً وانتَقَبنَ أهلَّةً ومِسنَ غُصُونَ البان والبان ميّالُ
فَهنَّ بأصداف الهَوَادِجِ لؤلؤٌ سفائنهُنَّ النُّوقُ والأبحُرُ الآلُ
فكم ظبيَّةٍ ألحاظُها في اصطيادها الأسودَ نِشَاطٌ وهي في الخِدرِ مِكسَالُ

وبعد هذا الوصف يتخلص الشّاعر إلى المدح من غير تكلّف ؛ ليمتزج بما قبله من النّسيب، وما بعده من المدح دون انفصال، وهذا ما يراه النّقاد من أنّه سبب ارتياح الممدوح، (القيرواني،1981،1:217) وذلك إذ يقول :

سُعَادٌ وسُعدى جَادَتَا لي من اللُمي بــما أبغــيهِ لقــد سَــعدَ الفــَالُ
كما أسعَدَ الرَّحمنُ جِلَّقَ إذ غدَت تُرى وهي دارٌ " للمُعَظَّمِ " مِحلالُ

ثم يستطرد الشَّاعر في المدح في تناسق جميل مع الحرص على انتظام المعــاني في الأبيات، أمَّا خاتمة القصيدة، فيري النَّقاد " أن لا يُقطع الكلام على لفظ كريه، أو معنى منفِّر للنَّفس، وأن يكون الختام مناسبا للغرض الَّذي سيقت لــه القصــيدة، وأن يتضمّن معنى تاما يؤذن بالنهاية(مصــطفى،1984،180)، والخاتمة آخر مــا يبقــى فــي الأسماع(القيرواني1981،217). فقد أخذ الشَّاعر يتدرج نحو الخاتمــة تــدرجا طبيعيــا، فوضع القارىء في حالة التَّيقن بقرب النهاية، فبدأ ذلك بقوله:

هنيئاً له الحَولُ البشير حُوؤلُهُ بمُلكٍ مُقيمٍ لم تُحَوِّلْهُ أحوالُ

وهو يخص الممدوح بالهناء، ويذكر مساعيه فــي فعــل الخيــر تجــاه العــافين والمعسرين ، إلى أن يصل ما يستحق الممدوح مقابل كلّ هذا، فيجعل الختام دعاء له بالمُلك ودوامه ، فيقول :

فلا زالَ ذا مُلكٍ تُمَدُّ ظِلالَهُ عليه وبالنَّعمَاءِ تَقصُرُ أسجَالُ

وقد يلج الشَّاعر إلى الموضوع مباشرة دون أن يظهر تقسيم في قصيدته، وذلــك عندما تكون القصيدة ذات موضوع واحد ينسحب عليها كلّها اتجاه واحد، وغالبا مــا يكون ذلك في قصائد الغزل والجهاد والرِّثاء والإخوانيات، ومثال ذلك قصيدته الَّتــي قالها أثر صدِّ العدو الصَّليبيّ على الطُّور، ومطلعها:

هنيئاً لقد أُوتِيتَ سُؤلكَ يا موسى بجدٍّ وحَدٍّ كلمةُ الدّهر ما يُوسى

والقصيدة تعظم الانتصار الَّذي أحرزه المسلمون بقيادة الملك الأشــرف موســى ويسري فيها شعور الانتشاء بالنَّصر، والاستهزاء بالأعداء، وقد راوح الشَّاعر فــي حديثه بين الحديث عن الجماعة الإسلامية وبين الحديث عن البطــل الفــرد(الملــك الأشرف)،وقد بنى فتيان قصيدته على المقابلة بــين عنصــرين متضــادين، همــا:

المسلمون المنتصرون، والصليبيون المنهزمون، لذا فإنّنا نكاد نجد في كلّ بيت من أبياتها نوعين من الصُّوَر، الأول يمثّل التّفوق والآخر يمثّل الضّعف، فيقول :

وجَيـشٍ لـُهامٍ حَلَّقَ الطّـيرُ فـوقَهُ ستُضـحِي لكم أحشاؤهُنَّ نَواويسَا
ورَمـي سِـهامٍ عـن قِسـيٍّ بنَضمها تُغادرُ من رامتهُ في التُّربِ مَرمُوسَا
كأنَّ كُمَاةِ التـُّركِ عـند نـزالـهم ملائـكةٌ بالشُّهبِ تَرمـي الأباليسا
وقد جَالت الأكرادُ بالسُّـمرِ والظُّبى تصيدُ الملوكَ الصِّيدَ والأُسدَ الشُّوسا
إذ العـربُ الشـُّمُ الأنوف تَمَرَّوُا بـه كـان كلّ بالمُثـقَّفِ دِعِّيسا
وليس لموسى من عَصَاً غيرُصارمٍ تـُكِبُّ على الأذقان ضَرباتِهِ الرُّوسا
فـما جنـدُهُ إلا أسـودٌ خـفِـيَّة تَخِذنَ لها سـمر القـنَا اللُّدن عرِّيسا

وقد مدح فتيان الملك الأمجد بهرام شاه في قصيدة تغزل فيها في ثلاثة وعشرين بيتا، ثم تخلّص إلى المدح في ثلاثة أبيات، و جاء المدح في خمسة وثلاثين بيتا، ومطلعها:

ضُرِبت لزينب بالغُوير خيامُ فعلى الغُوَيرِ وساكنيه سلامُ

ويتغزل فتيان بامرأة بدوية، فيذكر الغوير، وحاجرا ونجدا والعذيب ويقرن بهذه المنازل العربيَّة الأثلاث والرّند والضال، وأفاحيص القطا وأدحي النّعام، وهذا الجو الَّذي ينشره الشَّاعر في فاتحة قصيدته استنزال للأمجد كي يصغي بكلّ سمعه ويمنح الشَّاعر المرأة البدوية كلّ صفات الجمال والقوة، مستعيرا أدوات الحرب والسَّلام فهي صنو بعلبك كما أراد الشَّاعر أن يقول خلال أبياته، فقد منحها الأمجد القوة والمنعة لتقف في وجه أعدائها، وقد برع الشّاعر في التخلص إلى المدح فيرى مَن حوله كالأنعام في السِّلم والنَّعام في الحرب، ويعلن فقدان القوم الشرفاء الَّذين يسمون الأعاريب؛ لأنَّهُ يتمثّل الحبَّ والغزل بمفهومه العربيّ .

ذهبَ الأعاريبُ الَّذين لديهم يُحمَى الذِّمارُ ولا يَضِيعُ ذِمَامُ

ولذلك فوجهته إلى الملك الأمجد بهرام لعله يعوضه ما فاته من حظوظ، ويجعل الشَّاعر من ممدوحه إنسانا يختلف عن غيره من الملوك وذلك فيما نشره في القصيدة

من جوٍ عربي بغزله بزينب البدويّة، وارتقائه فوق ملوك فارس، ويتحدث أيضا عن أدوات القتال الّتي يجابه بها الأمجد أعداءه، ولعل في هذه التداخلات بين الجمال العربيّ في المقدمة الغزليّة وهذه الأوصاف دلالة على تمتع الأمجد بقوة الدولة وهي محميّة بين أناس يغارون عليها ويدافعون عنها. ويختم الشّاعر قصيدته بالدّعاء للأمجد وأبنائه.

وما قيل عن قصيدة الجهاد ينطبق على قصيدة الرّثاء والغزل والوصف وهي أكثر مما يرتبط بالنوع الثاني من القصائد ذات البناء الواحد، ففي رثائه للقاضي كمال الدّين بن الشّهرزوري يلج في مرثيته دون أيّ تقديم، وتقع هذه المرثية في ستة وخمسين بيتا، كلّها في رثاء القاضي، وبيان وقع المصيبة في النّفوس وصفات المرثي ومناقبه. فيقول فيها:

عَدِمَ الإسلامُ معدومَ المثالِ وهَوَت من أوجِها شَمسُ المَعَالي

ومنها:

كم يدٍ بيضاءَ قد أسدَيتَهَا بيمينٍ ذاتِ يُمنٍ وشِمالِ

كنتَ بحرَ الجُودِ إن حَلَّ سُؤالٌ كنتَ حَبرَ العلمِ في كلّ سُؤالِ

وقد كَثُرَت القصائد الطِّوال في ديوان فتيان، وجاء معظمها في المدح والحماسة وتطويل القصائد في مواقف التهويل والتفخيم محمودٌ كما يرى بعض النُّقاد القدماء(الجاحظ،1969،93)، وبلغت أطول قصائد فتيان مائة وعشرة أبيات، وقد قالها في مدح الملك توران شاه بن أيّوب، ومطلعها:

دَعَا مُهجَةِ الصَّبِّ لا تَردَعَاهَا فقد لَبَّت الوَجدَ لمَّا دَعَاهَا

وقد جاء الغزل ووصف الرِّياض في ثمانية وثلاثين بيتاً، ثم يخرج الشّاعر إلى المدح في باقي القصيدة، وعلى الرّغم من طول القصيدة إلا أنّ الشّاعر استطاع أن يسير فيها دون أن يكون احتاج إلى تكرارٍ يُضعفُ المعاني ويستهلك الألفاظ .

ومن قصائده الطوال أيضا لاميَّته، الَّتي افتخر فيها وشكا الزَّمان وأهله، حيث بلغت القصيدة مائة بيت وبيت واحد، وتُعَدُ هذه القصيدة من أجمل ما قاله فتيان ومطلعها:

في عُنفُوانِ الصِّبا ما كُنتُ بالغَزَلِ فكيفَ أصبُو وسِنِّي سِنُّ مُكتَهِلِ

وغير ذلك من قصائده الطّوال والجياد الَّتي تميزت بها أشعاره، وديوانه يشتمل عليها: كالَّتي قالها في فتح بيت المقدس، ومدح صلاح الدّين.

كذلك كَثُرت المقطوعات الشِّعريّة بصوَّرة واضحة، لا سيّما في قصائد الشّكوى، وقصائد الهجاء والنّقد الاجتماعي ، وقد اتّخذت هذه المقطوعات صوَّرتين رئيسيتين، الأولى أن تكون المقطوعة في بيتين لا يمكن الفصل بينهما، ويعبران عن معنى تام لا يقبل التطوير ويتمثل ذلك في قوله:

لئن عُزَّ أقوامٌ وكانُوا أذلَّةً وصَارَ لهم من بَعدِ فَقرِهم مَالُ
فما ذاكَ بِدعَاً في دمشقَ لأنَّها تَمَلَّكَهَا فـي سَالِفِ الدَّهرِ زَبَّالُ

والصُّوَرة الثانية أن تكون المقطوعة في ثلاثة أبيات، أو أكثر تتطور حتى تبلغ نهاية مرسومة لا تتجاوزها لتمام المعنى بها، كما في الأبيات الَّتي يلوم فيها الملك الأمجد على اهتمامه بالسَّامريّ. وفي ذلك يقول:

الملكُ الأمجدُ الَّذي شَهِدَت لهُ مُلوكُ الزَّمانِ بالفَضلِ
أصبحَ فـي السَّامِريّ مُعتَقِداً ما اعتقدَ السَّامِريّ في العِجلِ
والسَّامريّون كالبَرامِكِ مِن قَبلُ فأينَ الرَّشيدُ للقَتلِ

وتمتاز مقطوعات الهجاء بالإيجاز والتّكثيف مما يمنحها حِدَّة لاذعة كما في قوله:

باللهِ يا نَصرُ تُب فَمَا قَتَلَ الحَجَّاجُ ما قد قَتَلتَ يا رَجُل
طِبُّكَ مِن طاعَةِ الحِمَامِ لَهُ يَقتُلُ مَن لا دَنَا له أجلُ

وتستعين بعض المقطوعات الشِّعريّة بالسُّخرية القائمة على المفاجأة، أو تتخذ شكلّ دعابة يحرص الشَّاعر على إنهائها بطريقة فكاهيّة.

ثانياً : الصُّوَرة الشِّعريّة

يعد النَّقاد الصُّوَرة الشِّعريّة أساس الشِّعر وروحه، وهو قائم عليها، فهي جزء من مبنى القصيدة ووسيلة الشَّاعر لتجسيد إحساسه وتعبيره عن حالة نفسيّة معيّنة يعاني منها إزاء موقف معيّن من مواقفه من الحياة،(عباس،1987،192) ويرى الجاحظ أنَّ الشِّعر ضرّبٌ من النّسيج، وجِنسٌ من التّصوير.(الجاحظ،1969،132).

وقد أدَّت الصُّوَرة الشِّعريّة دوراً هاما في نقل أفكار الشَّاعر وأحاسيسه بشكلٍ مؤثر، فبها يحيى النّص الشِّعريّ، وتجلب انتباه القارئ، وتنبع أهميتها من طريقتها الخاصّة في تقديم المعنى وتأثيرها في المتلقي(عصفور،1973،123).

وقد اهتمّ فتيان الشَّاغُوريّ بشكلٍ جلي بالصُّوَرة الشِّعريّة معتمداً على الأسلوب التّصويري في ترجمة ما يدور في مخيلته، سواء كان ذلك بالأساليب البيانيّة المعروفة أم بالأسلوب الوصفيّ الَّذي يعتمد على الإيماءات في رسم المشاهد الَّتي يريدها الشَّاعر.

وقد كثرت الصُّوَر التّقليديّة في شعر فتيان، كأن يصف المرأة بالبدر أو الظبي كما يقرن شعرها بالليل وقدّها الرّمح ، وريقها بالخمر، ويشبه الممدوح بالأسد والسّحاب والنّدى ... وغير ذلك من الصُّوَر. ولم يقف فتيان عند هذه الصُّوَر، بل جرّد صوَّره وأتى بالصُّوَر الجديدة والطّريفة، وتوليد المعاني المبتكرة، والَّتي قد لا تكون قد درجت في أشعار السّابقين .

ويعتمد فتيان بشكلٍ كبير في تصويره على التّشخيص والتّجسيم، وضروب علم البيان مثل التّشبيه والاستعارة، فالشَّاعر في تشخيصه للجماد، أو الظواهر الطّبيعيّة يخلع عليها الحياة .

وتنوعت مصادر الصُّوَرة الشِّعريّة الَّتي تعتمد على التّشبيه والاستعارة، فمنها ما هو مستمدّ من الطّبيعة وعناصرها، وأخرى مستوحاة من الأجواء الحربيّة والمعارك في ذلك العصر، وهنالك صور مصدرها عالم المرأة، كما كانت الحياة الدّينيّة مصدرا من مصادر الصُّوَرة عند فتيان .

ومن الأمثلة الّتي لجأ فيها فتيان للتّشخيص والتّجسيد في صوره قولــه مصــوِّراً السّيف بإنسانٍ يتوعد الفرنجة، ويدعوهم للنزال، ويستوحي فتيان هذه الصُّوَرة ليسخر من العدو، وينتقص من قدرهم، ثم ليستحث المسلمين ويستنهض هممهم، وفي ذلــك يقول:

قُل للفرنج الُأولى في عــُقر دَارِهــِم غُزُوا فَجَاسَت خِلال الدَّارِ غَاراتُ
عُودوا إلى حِمصَ فالسَّيفُ الَّذي زَهَقَت به نُفُوسُــكم يدعُــو بأن تَاتــوا

ويخلع فتيان صفات آدميّة على الليل والرّبيع والمطر، ويتفنن من وصف الليــل حينما يجرد منه إنسانا زنجيّا منهزماً أمام نِدّه الصّبح وقد صوَّره جندي رومي،يســل سيفه ويغير على الزّنجيّ، ويقدم لنا فتيان قصة طريفة حول أحداث هذه المعركة بين اللّيل والصّبح، ثم يصوِّر السّيف بفتاه، وحدّه شفاه، فتصيح وتعلن أن الزّنجيّ قد قتل وقد أعتلى الصّبح جواد السّحر فمكّن السّيف في مقتل اللّيل، ويجعل فتيان من هــذه الصُّوَرة لوحة يرسمها بكلّماته. وذلك إذ يقول:

والصّبح رُوميــّه أغــارّ على زِنجِيّ ليلٍ والسَّيفُ مسلولُ
على ظُبي السَّيفِ حُمرَةٌ شَهِدَت يا صَاحِ إنّ الزّنجيّ مَقتُولُ
أدرَكــَهُ وهــو راكــِبٌ سَحَراً طــرِفاً له غــُرَّةٌ وتَحجِيلُ
فَمَــكَّنَ الســَّيفَ من مفارقِــهِ فهو قتيلٌ لم يُــبكَ مَطلــولُ

وتكرر صوَّرة اللّيل الهارب من الصّبح، كما يهرب الزّنجيّ مــن الرّومــيّ بهــذه الصُّوَرة الطّريفة في أشعار فتيان ، فيقول:

والدُّجَى هاربٌ كما يهربُ الزِّنجُ مِن الرُّومِ إذ تخــاف الفَــجرَا

ويعود الصبح بعد هذه المعركة المظفّرة بالنّصر مفتخراً كالبطل، وهذه المشاعر الإنسانيّة يخلعها الشّاعر على مظاهر الكون لتبدي لنا الصُّوَرة معنــى طريفــاً فــي أسلوب رائق ، فيقول:

ونَودِ اللّيل مُندَفِعَاً هَزِيماً وعَودُ الصُّبحِ كالبَطلِ المُشِيحِ

ويُنطِقُ فتيانُ الوردَ، فيظهر بصوَّرة شخص لاهي يدعو النّاس لمبـــادرة اللّـــذات والحرص على استثمار الوقت في اللّهو والشُّرب، وفي ذلك يقول:

وَرَدَ الوَرْدُ سافِراً عن خدودِهِ أَقبَلَت للتَّقبيل بعـــدَ الصُّدُودِ
وقائلاً والمَـــقَالُ يُفـــهمُ عنه بلســـانِ التَّسبـــيحِ والتَّمجيدِ
بادِروا لَـــذَّةِ الـــزَّمانِ فما فا ت مِن العَيشِ ليس بالمَردُودِ

ونزوع فتيان إلى اللّهو يجعله يؤنسن الطّبيعة الخضراء، فالرّوض والرّبيـــع لـــه عينان كالنّرجس، ثَمِلٌ يعاقر الخمرة، وتبدو الأشجار كالعرائس الراقصة والمطربـــة على أهازيج الحمائم، ويستمر فتيان في لهوه مع ندمائه الجدد، فاراً من واقع البشريّة الّذي يشعره بالغربة والألم، وفي ذلك يقول:

رَوضُ الـــرَّبيعِ مُفَوَّفٌ ومُدَبَّجٌ هل كان في صنعاءَ قِدَماً يُنسَجُ
أشجـــارُهُ كعرائسٍ تَختَالُ بين غلائـــلٍ مـــن نـــَورِه وتَـــبرجُ
والـــوُرقُ في العِيدانِ كالقِينَاتِ بالعِيدانِ تَرمِـــلُ بالبُمومِ وتهزجُ
ومُهَفهِفٌ غَرَسَ الجَمَالَ بوجهِهَ روضـــاً ففيهِ عـــيونَنَا تتـــفَرَّجُ
عيناهُ نرجستان أُضعِفـــتَا وفي فيهِ المُـــدَامُ بـــماءِ مُزنٍ تُمزَجُ
والخَـــدُّ وَردٌ مُضعـــفٌ لكـــنّهُ بالآسِ من نَبتِ العِـــذار مُسَيَّجُ

وهذا اللجوء للطّبيعة هروباً من الواقع المؤلم الّذي تحدثت عنه، دفـــع الشّـــاعر ليبدع في استخراج الصُّوَرة الطّريفة والرّائقة، فقد جسّد الطّير في صوَّرة راهب يتلو في صومعته طقوسه بصوت شجي مؤثر، فيقول:

والطَّيرُ كالرُّهبَانِ في صوا مِعَ الأغصانِ يُشجِي صَوتُها الخَلِيَا

ومن المصادر الأخرى الّتي ارتأى فتيان أن يستوقفها لينتقي منها ألفاظه ومعانيه البيئة الحربيّة وأجواء المعركة، فقد اتكأ عليها بصورة تسترعي الانتبـــاه، فجـــاءت معانيه وألفاظه متلائمة مع بعضها البعض لتشكلّ صورة يعبر خلالها عـــن موقـــف

يمر به، فنراه يصوِّر الجمال الأنثوي الَّذي تتمتع به تلك النّساء، وما يفعل بالشَّـــاعر بمعركةٍ يظهر فيها قتيلا وعيون هؤلاء النُّسوة في قتله ليست إلا ســـيوف المســـلمين الَّتي فتكت بالفرنجة يوم معركة حطين، وذلك إذ يقول:

ومُحبَّات تَشَرَّينَ دُمـــيً كـــم دَمٍ أجرَينَهُ مِن عَاشِقِين
وحينَ يَشدُدن الزَّنَانـــيرَ ثُمَّ يُحللنَ اصطبارَ النَّاسِكين
بعيونٍ فَعَلَت ما فَعَـــلَت يومَ حِطين سيوفُ المُسلمِين

وتتكرر صورة الأثر الَّذي تتركه لحاظ المعشوق في قلب الشَّاعر من قتل وعذاب وهلاك، هذه الصُّوَرة الَّتي تقترن بأدوات القتال (كالسيف والـــرمح والقســـي ....) فيقول:

يا رُبَّ بِيضٍ سَلَلْن البيضَ من حَدقٍ سودٍ ومِسنَ بأعطاف القنا الذُّبَلِ

وقوله يتغزل بغلام فيصف حاجبه بالقوس ولحاظه بالسهام:

حاجبُهُ يُغنيه عن قوسِهِ ولحظُهُ السَّهم فما يحجُبُ
وقدُّهُ أطعنُ مِن رمحِهِ ولحظُهُ مِن سيفِهِ أضرَبُ

وإذا كانت اللِّحاظ سهامٌ وسيوف، والحواجب قِسيٌّ، والقدود رمـــاح، فـــإن هـــذا المعشوق مؤلف من أدوات الحرب والقتال، ولذلك فإن المتعة الَّتي يجدها الشَّاعرفي كلام معشوقه،وفرحته به أحلى من النّصر في الحرب والظّفر بالأعداء، وفيها يقول:

قَبَّلـــتُهُ قُبـــلَةً تُضـــاهي تَـــجَاوِز الله عـــن ذُنـــوبـــي
وباتَ يُقرِي سَمعِي كلاماً أحلى مِن النَّصر في الحروبِ

وليس لفظ القاضي محي الدّين بن الزّكي إلا سهاماً ماضية في صدر من يحاربه ويناضله:

بل لفظُ مُحي الدّينِ أمضى أسهُماً في صدر من ناضَلَهُ إذا استَدَلّ

ويتأمل فتيان تدفق أحد الأنهار في دمشق، فيخيل إليه أنَّهُ خُيولٌ مغيرة، فيقول:

أمواجُهُ كالخيولِ غائرةً بهازمٍ كاسرٍ ومكسورِ

ويستمد الشّاعر بعض صوَرِه من الحياة الاجتماعيّة، فنراه يشبه نفسه بالمصحف عند الباطني، لِمَا رآه من إهمال أهل دمشق له، وهي صورة منتزعة من الحياة المذهبيّة في ذلك العصر، وذلك إذ يقول:

أراني غريباً في دمشقَ وأهلُهَا بصيرون بي لكن عموا عن محاسني
فيا ضيعَتي فيهم وفَضلِي ظاهرٌ كأنّي لديهم مُصحَفٌ عند باطني

ولعل الجمال التّركي الفتان قد استوقف فتيان ليستعيد بعض صوَرِه من حياة سيدنا يوسف وجماله، وقد كثرت الأبيات الّتي تتضمن هذه الصُّوَرة، فيشبه غلمانه لجمالهم بسيدنا يوسف، وهو سيدنا يعقوب عليه السّلام في صبره على الوجد والفراق، وفي ذلك يقول:

يا شِبهَ يُوسفَ في الحُسنِ أما ترثي لمن دونَهُ في الحُزنِ يعقوبُ
صبري على الوَجدِ صبرٌ ليس يَحملُهُ في النّاس إلا نبي اللهِ أيُّوبُ

ويصوِّر القاضي محي بن الزّكيّ لِمَا له من شأن ومكانة بين العلماء وكأنّه ملّةُ الإسلام الّتي فضلها الله من بين الملل.

فأنتَ بينَ العُلمَاءِ كلّهم كَمِلّةِ الإسلام حُسنَاً في الملل

ويستعير فتيان صوَرة الصّولحان – وهي العصا الّتي تضرب بها الكرة في لعبة معروفة في المجمع الشّاميّ في القرن السّادس – فيشبه صدغ الغلام الّذي يتغزل به والخال في خده كرة طائرة فيقول:

فصدغُهُ صَولجانٌ خَالُهُ كرةٌ والخَالُ حَبَّةُ قلبي لا أخلِّيهِ

كذلك يستمد صورة جمال الغلام من الأوقاف فنراه وقف عليه فقال:

وَقَفَ الحُسنُ عليه فغدا جامعَ الحُسنِ له أحسنَ وَقفِ

وتتأثر الصُّوَرة الشِّعريّة عند فتيان الشّاغُوريّ بما كان يعانيه من فقر وحرمان وعوز، فقد تذمر كثيرا، ولهذا كثرت الصُّوَر الشِّعريّة المستمدة من الأطعمة

والشّراب والحياة المنزليّة حتى نجده يقرن جمال المحبوبة والمتعة الّتي يجدها فيه بمتعة الطّعام والحلوى إذا ما تكلّم أو غنى ... وفي ذلك يقول:

أيسوغُ عذلٌ في قضيبٍ مائسٍ فوقَ الكثيبِ ببدر تمٍّ أبلَجِ
فخطابُهُ وغناؤهُ وجوابُهُ أشهى إلى قلبي من اللوزينج

ويشبه أشعاره الّتي أهداها إلى ابن القلانسي بالتّمر والرّطب في حلاوتها وفائدتها فيقول:

ها أنا كالمُهدِي إلى بغدادَ مِن دمشقَ إذ أُنشدُ تَمراً أو رَطب

وحين يصف الشّاعر المدام فإنه يصوِّرها باللؤلؤ الّذي يعلوه فضّة ذائبة، لتصبح ذهبا عند مزجها باللؤلؤ ، وهذه صناعة عرفها أهل الشّام ، وفي ذلك يقول:

أطيَبُ شيءٍ في الزّمانِ مَشرَبا مُدامةٌ في الكأسِ تجلو حَبَبَا
كاللؤلؤ المَنظُومِ يعلو فضّةً ذائبةً بالمزج صارت ذَهَبَا

وتقترب من هذه الصُّوَرة حينما يصف دار الأمير عز الدّين أسامة، الّتي بناها ففيها الحيطان كالذّهب السّبيك، والماءُ كاللُّجين، وفي ذلك يقول:

حِيطَانُها الذّهبُ السّبيكُ وماؤها ذَوبُ اللُّجينِ لمن أرادَ ورودا

وحينما يذمُّ فتيان الكبر ويحمد التواضع فإنه يختار لذلك صورة من الحياة المنزليّة، وهي انتقاء الدّقيق الصّالح وما فيه فائدة بوساطة المناخل، فيرى أنّ خير الدّقيق ما ينزل من المناخل، وأمّا النّخالة والشّوائب فهي الّتي تصعد، وهذا حال المتكبر، وفي ذلك يقول:

الكِبَرُ تَبغَضُهُ الكِرامُ وكلُّ مَن يُبدي تواضعَهُ يُحَبُّ ويُحمَدُ
خيرُ الدّقيقِ من المناخِلِ نازلٌ وأخسُّهُ – وهي النِّخالةُ – تَصعَدُ

ومن حياة الفلاح يستمد فتيان صوره، فهو يسخر من الفرنجة ويجعلهم حصادا للجيش الإسلامي، وساقهم إلى ذلك بذرهم الغدر، فما جنوا إلا حتفهم وحصدهم فيقول:

حُصِدُوا وكان الغدرُ بذرَهم فقد دُرسُوا به وذروا بأوخم بيدرِ

وكانت المرأة أحد المصادر الَّتي وردها فتيان الشَّاغُوريّ واستقى منها صوره، فراح يقدم المدن والقلاع في صوَّرة امرأة متمنعة وتظهر هذه الصُّوَرة في حديثه عن معركة حطين وفتح بيت المقدس، فقد تمنَّعت هذه القلعة على صلاح الدّين ووقف الفرنجة يدافعون عنها بشدة لكن صلاح الدّين أنكحها قسرا، وقد زوجها الإسلام بعد أن طلقها من الكفر، ولم يرض لها زوجا غيره، وفي ذلك يقول:

وكم قلعةٍ أنكَحتَهَا السِّلمَ عاصماً وطلَّقتَ منها بعد عصمتِهَا الكُفرَا
فغَنَّى بها الإسلامُ رافعَ صوتِهِ يُغرِد والأعداء تَنظُرها شَزرا
وما أنكحونا طائعين فتاتَهُم ولكن نكحناها بأسيافنا قسرا

وتظهر قصائد الشَّاعر وأبياته عرائس أبكارا عذارى تُكِنُّ الحبّ والمودة لزوجها مطيعة غير فارك، وقد تجمَّلت بأصناف الحلي والدّيباج، فقال:

خُذ مِدحَةً وافتك من مُفَوَّهٍ بالأفوَه الأودي جاءت تُودي
أهديتُها عذراءَ غيرَ فارِكٍ لكنّهَا مسرورة بالقَصدِ
كَفيئةً تُهدَى لأكفي مَلِكٍ حازَ العُلى بمهرِهَا والنَّقدِ

ويصوِّر فتيان مدينة دمشق تحت حكم فخر الدّين بامرأة قد زوَّجَهَا الأمنَ، يقسم الأمنُ وتقسم دمشقُ على الوفاء والإخلاص، وفي ذلك يقول:

بعدلِ فخر الدّين قرَّ أهلُهَا عيناً وزادَ اللّهُ في أرزاقِها
زوَّجَهَا الأمنَ وناهيك به بعلاً فَطِيبَ العيشِ من صِدَاقِهَا
فأقسَمَت لا نَشَزَت عنه وقد أقسَمَ لا مال إلى طَلاقِها

ويعبِّر فتيان عن مدى علاقة الوداد والمحبة بينه وبين ممدوحه فيجعل محاسن الممدوح تخطب وداده فيجيبها إلى ذلك:

خَطَبتَ محاسِنُكم ودادي رغبةً فأجابها قبلَ النِّكاحِ سِفَاحُ

وقد أكثر أيضا من هذه الصُّور المستوحاة من المرأة، فتظهر الأشجار عرائس ليلة زفافها، والمدام عروس بكر، أو عجوز شمطاء،وقد اتكأ فتيان على الطَّبيعة – بمختلف عناصرها من حيوان ونبات، وجماد وفضاء – في صوَّرة، وجاءت هذه الصُّوَر تقليدية إلى حدٍّ كبير، فقد ظلَّ الشِّعراء يشبِّهون المرأة بالشَّمس والظبي والبدر، ويقرنون شعرها بالليل، وقدّها بالرّمح وأسنانها البرد،وريقها الخمر، كما يشبِّهون الممدوح بالأسد والسَّحاب والنَّدى والبدر ولا يعني هذا أن الشَّاعر يكرر صوَّر السَّابقين دون جدَّة فيها، فقد استفرغ كثيرا من طاقته الفنيّة فأتى بالتشبيهات، والاستعارات الجديدة واستخراج الصُّوَر الطريفة، وتوليد المعاني المبتكرة ولا يهم أن كان قد سبق إلى ذلك وإنَّما المهم طريقة العرض والبراعة في إخراج الصُّوَر إخراجا فيه إبداع .فنراه يخاطب صلاح الدّين وقد رأى القائدُ الحرب روضا والدُّروع غدرانا، الرّماح والسّيوف كالزُّهور فلم يكن يستصعب الحرب أو يتقاعس عن الجهاد، وذلك إذ يقول:

ترى الحربَ روضاً والدُّروعُ بها أضىً وسمرَ القنا دوحاً وخرصانها زهراً

ويؤلف فتيان صورة من مجموعة عناصر، فيصوِّر فتاته بالمها في جمال عيونها وفعلها به، وهي الشَّمس والشَّفق نورها، وذلك إذ يقول:

هناك كلّ فتاة كالمها متى رَنَت رَمَت أُسداً من قبلُ أن تَثبَا
بيضاءُ كالشَّمسِ قُلنَا نورُهَا شَفَقٌ فأَشبَهَت فَضَّةً قد أُشرِبَت ذَهَبَا

ويقدِّم لنا فتيان صورة جميلة للمُدام إذا ما خالطها الماء في الكأس فيظهر الكأس كالسَّماء، والمدام كالشَّمس، والماء كالشَّهب، وبطريقةٍ جميلة يستجمع فتيان كلّ هذه العناصر، بضخامتها وعظمتها في كأس صغيرة، فيستوعبها الكأس كما استوعبها القالب الشِّعريّ عنده، فيقول:

شمسُ المُدامِ إذا ما خَالطَها بالمزجِ زَانَت سَماءَ الكأسِ بالشُّهبِ

ويتغلغل أحساس الفجيعة بموت الملك المظفّر، فيصوِّر فتيان ثقل الرزء واهتزاز العواطف بأفاعٍ تنفث سمّها في الصُّدور، وذلك إذ يقول:

إلى الملكِ المهيمنِ نستغيثُ لئن ذاقَ الرَّدى الملكُ المغيثُ
وكلّ النَّاس من أسفٍ عليهِ يخالُ بصدرِهِ صلٌّ نَفُوثُ

ويُحَوِّر فتيان في صوَّره بحيث يخرجها إخراجا جديدا فينقل لنا مشاهد من رحلة المحبوبة، ويصوِّر النساء بحور الجنة، والآل بحر والمطايا سفن، والنساء درّ والحدوج محار. وتجتمع هذه الصُّوَر في مشهد لطيف. وفيه يقول:

أنا الَّذي رأى بعينهِ على النّياقِ في الحدوجِ حُورَ الجَنَّة
والآلُ بحرٌ والمطايا سُفُنٌ وهنَّ درٌّ في محارهنَّ

ويقابل فتيان بين صورتين، الأولى صورة القائد المسلم والسَّيف في يمينه كالبرق اللامع يجري دماء، والغبار كالغمام والإسلام يضحك فرحا بهذا النصر، والثانية صوَّرة الشِّرك وقد هُزِمَ المشركون فتبكي عيونهم لما أصابهم وفي ذلك يقول:

والسّيف في يمناهُ برقٌ لامعٌ يجري دماءً والعَجَاجُ غمامُ
تبكي عيونُ الشِّركِ منه لفتكه بالمشركين ويضحكُ الإسلامُ

وقد اعتمد فتيان على حسن التعليل في توليد الصُّوَر والتماس العِلَّة الجديدة للظاهرة الَّتي يصفها، فما فضل الشَّيب في الشَّعر إلا كالرّونق في الدّوحة، وكذلك الشيب فإنّما يثمر العقل:

تعيرني بالشّيب هندٌ ولو درت بفضل مشيبي زال عن قلبِها الجهلُ
وما المرءُ إلا دوحةٌ ذاتُ رونقٍ إذا أزهرَت بالشَّيبِ فالثَّمرُ العَقلُ

وشاعت ظاهرة التّدوير في شعر فتيان بصوَّرة تسترعي النظر، وهي أن يلـــحّ الشَّاعر على تشبيه واحد، وأن يفصل القول فيه ليقرر معنى معينا على نحو ما قـــال يمدح شمس الدّين قايبا، حيث يقول:

ما اللّيث عـــن أشبـــاله محاميـــاً يثني الخميسَ ناكصاً إن وَثبا
غضبان من أسد الشّرى مزمجرا مجرمزا بادي النـــّيوب أغلبا

ويستغرق عرض هذه الصُّوَرة سبعة أبيات لينتهي الشَّاعر إلى مقارنتها بشجاعة الممدوح وجوده وسطوته في الحرب. فيقول:

يوما بأوفى منه في الحرب سُطا فمن يلاقـــه يلاق الحـــربا

وقوله يمدح العماد الأصفهاني:

أقسمتُ ما روضة مخضرة أنف باتت تسحُّ على أقطارها القطرُ
ذبـــابـــها هـــزِجٌ نوارهـــا أرج نبـــاتـــها بهـــج مستحسن عطرُ

ويمضي فتيان في هذه المقارنات حتى تستغرق الصُّوَرة ثمانية أبيات لينتهـــي إلـــى مقارنتها بخط العماد. فقال:

يوما بأحسن من خطّ العماد إذا أقلامه نشرت عن حِبرِها الحِبرُ

وقد اعتمد فتيان الشَّاغُوريّ على حواسه في بناء صوَّره اعتمـــاداً واضـــحاً فكانـــت الصُّوَر المرئية الَّتي تعتمد على البصر مثل اللون والهيئة وانفعالات الوجه والحركة بأنواعها من أكثر الصُّوَر دوراناً في شعره، كما نجد صوراً أخرى تتوسل بالســـمع وتصف الأصوات، وصوراً أخرى تتوسل باللّمس والشّمّ، وقد برزت الصُّورة مـــن خلال مشاعره وأحاسيسه في إطار من الجمال والإيحاء الفني، كما مزج بـــين هـــذه الصُّوَر وإخرجها في لوحات فنية متكاملة، وفي ذلك يقول:

هب نسيم بالطـــل ّ مبلـــولُ فيه نظامُ الرّياضِ محلولُ
مـــرَّ برَيحانـــهَـــا تَنفـــُسهُ بين البساتين وهو مطلولُ

ينتشر التبر واللجين معاً — بمرّه والياقوت واللؤلؤ
والدَّوحُ فيه الغصون مائلةٌ — فكلّه فاعل ومفعولُ
والنّرجسُ الغضُّ طرفُهُ غنجٌ — بصفرة الزّعفران مكحولُ
وقد تبدىَّ شخص البنفسج في — بُردِ يمانٍ والبُردُ مغسولُ
وفي أكُفٍّ المنثورِ منتظماً — من كلّ لون يروقُ معمولُ
والطّيرُ فوقَ الغصونِ صادحة — كأنَّها نِسوةٌ مثاكيلُ
والنَّبتُ منه على الثّرى نُشِرَت — من كلّ زهرٍ زاهٍ مناديلُ

ومزج فتيان بين اللون والطّيب والحركة واللحن في صورة حركية يصف فيها محبوبته وقت رحيلها، فكانت مسفرة عن وجه كالشمس، تَضَوَّع منها رائحة المسك والأقمار تسير في الهوادج، وقلب الشّاعر يكوى بأصوات الحداة، وذلك إذ يقول:

ومُسفِرةٍ كالشَّمسِ في رونقِ الضُحى — أرتني افترارَ الثّغرَ وهو شتيتُ
كأنّ بفيها قرقفاً بابليةً — تَضَوَّعَ منها المسك وهو فتيتُ
وقد سارت الأقمارُ فوق هوادجٍ — نعمتُ بها يوم النوّى وشَقِيتُ
وساروا وأصواتُ الحداةِ كأنَّها — مكاوٍ على قلبي بِهِنَّ كُوِيتُ

ويصف إحدى الحسان مستخدماً الصُّوَرة الحركية الّتي تتمثل في اهتزاز عطفها وارتجاج ردفيها، والصُّوَرة اللونية الّتي تتمثل في حمرة خديها، فيقول:

أعطافها مهزوزة — يحارُ منها البانُ
أردافها مرتجة — تحسدها الكثبان
وخدها أعاره — تفاحه لبنان

وغالباً ما توجد الصُّوَر الّتي تمثل الحركة القوية السّريعة، والأصوات الحادة في الشِّعر الّذي يصوِّر المعارك بين المسلمين والفرنجة، وقد اعتمد فتيان على طائفة من الأساليب الّتي ترسم هيئة جيش الأعداء في حشده المتماوج، واستعداداته الضخمة، وحماسته للقتال، الّتي تصوِّر جو المعركة الحافل بالصخب والضجيج

والحركة السريعة المباغتة والدماء النازفة والسيوف والقتل المفاجئ والغبار الكثيف المتطاير، وقد شكّلت هذه الصُّوَر الجزئية وحده متكاملة في صـــورَّة كلّيـــة حافلـــة بالحركة والحياة، وذلك إذ يقول:

جاشَت جيوشُ الشّرك يوم لقيتَهُم — يتذامرون على متون الضمَّـــرِ
وكأنـــَّهم بحـــرُ تـــدافـــعَ مـــوجُهُ — بظُبىً وزعفٍ مُحكَمٍ وسَنَـــوَّرِ
أوردتَ أطرافَ الرّماحِ صدورَهُم — فَوَلِغنَ في عَلَقِ النَّجيـــعِ الأحمرِ
فهناك لم يُرَ غيـــرُ نجـــمٍ مُقبـــلٍ — في إثْـــرِ عِفريتٍ رجيـــمٍ مُدبرِ
وَلّوا وعقبـــانُ المنـــونِ مُسِـــفَّةٌ — والخيلُ تعثر بالقـــناالمُتـــكَسِّرِ
لا ينظرون ســـوى حسامٍ مُشهَرٍ — ومن الـــدّماءِ كأنّـــه لم يشهـــرِ
رُفِعَت سماءٌ من سنابـــكِ خيلِهـــم — مُسَـــوَّدةً أرجـــاؤها من عِيثَـــرِ
فالقـــومُ نَهبٌ للسِّبـــاعِ تـــنوشُهم — مـــن كلّ ذي نابٍ وصاحبِ مِنسرِ

وفي سياق فوران الأحاسيس، ووصف الحروب، تفقد الأشياء لدى الشَّاعر معناها الحسيّ، فيغدو صليل السيوف شعراً ونثراً تطرب له الخيل فكأنّ صهيلها شدو، فتميد وترقص سروراً كأنّها ثملة، فيقول:

والبيضُ تنثرُ وهي غيرُ خواطبٍ — والسّمـــر ناظمـــةٌ وإن لم تَشعُرِ
والخيلُ مطربـــةٌ كأنّ صهيلـــها — شدو النحيلة في نسيبِ البحتري
نشوى تميدُ من الســـرورِ كأنَّها — صَبَحَت كؤوساً من شراب مُسكِرِ

ثالثا: اللغة والأسلوب

تحدث النَّقاد عن الصلة الوثيقة ذات الأهمية بين الأسلوب وأغراض الشِّعر، كما تحدثوا عن اختلاف أساليب التعبير عن هذه الأغراض، ورأى الجرجاني أن يقســم الألفاظ على رتب المعاني، وأن يميز كلّ غرض بلفظه الملائم لمعناه " ولا آمـــرك بإجراء أنواع الشِّعر كلّه مجرى واحداً ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه بـــل أرى

أن تقسِّم الألفاظ على رتب المعاني فلا يكون غزلك كافتخارك، ولا مديحك كوعيدك .. بل ترتب كلّا مرتبته وتوفيه حقه فتلطف إذا تغزلت وتفخم إذا افتخرت وتتصرف للمديح تصرف مواقعه ، فإن المدح بالشَّجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف، ووصف الحرب والسَّلاح ليس كوصف المجلس والمُدام فلكلّ واحد من الأمرين نهج هو أملك ، وطريق لا يشاركه الآخر فيه ..(الجرجاني،1966،24).

وينبغي على الشَّاعر إذا مدح ملكا أن يسلك طريق الإيضاح، والإشادة بذكره للممدوح، وأن يجعل معانيه جزلة وألفاظه نقية غير مبتذلة سوقية، كما ينبغي عليه إذا تغزل أن يكون نسيبه حلو الألفاظ رسلها، قريب المعاني سهلها، وأن يختار من الكلام ما كان ظاهر المعنى لين الإيثار.(القيرواني،1981،2،128).

ونجد هذا التباين في الأساليب الشِّعريّة عند فتيان، فعلى سبيل المثال نتناول أبياتاً قالها في مدح الملك المعظم عيسى بن أبي بكر، لندرك ذلك، وفي ذلك يقول:

ألا أيُّها الملكُ المعظَّمُ نِعمةٌ بجِلَّقَ حَلَّت فاستقامت بها الحالُ

ومنها:

وقورٌ مَهيبٌ في النُّفوسِ وخُلقُهُ به سلسبيلٌ للجليسِ وسلسالُ
إذا اشتَغَلَت شوسُ الملوكِ بلهوِها فليس له إلا المكارمُ أشغالُ
تَقَمَّصَ أثوابَ المعالي قَشيبةً وهل يستوي بُردٌ قَشيبٌ وأسمالُ
متى قابل العافونَ غُرَّةَ وجهِهِ تلقَّاهُمُ منه قَبُولٌ وإقبالُ
وكم مُعسرٍ وأفاهُ يرجو نوالَهُ فعاد مُرَجِّي جودِهِ وله مالُ

وكما نرى فإن هذه الأبيات تتسم بالسّهولة والوضوح، وجزالة الألفاظ، ومتانة التراكيب الَّتي تتناسب مع منزلة الممدوح، وقد أشاد الشَّاعر في هذه الأبيات بفضائل الممدوح، فذكر وقاره، وهيبته وخلقه، وطبعه العذب، فليس له شغل سوى المكارم ثم نجدته وكرمه، وهي فضائل تتفق مع أراء النَّقاد في هذا الباب، فقد رأوا أن أفضل ما مدح به القائد، الجود والشجاعة وما تفرع نحو التّخرق في الهيئات، والنجدة وسرعة البطش، وغير ذلك.(القيرواني،1981،2،135).

وبذلك يكون شاعرنا فتيان قد وُفِّقَ في اختيار الأسلوب المناسب لمدحته، ونتبين فرقا في الأسلوب إذا ما تناولنا أبياته التالية متغزلاً، وفيها يقول:

تُرى تَسمَحُ الأيامُ لي أن أراكم ... وأشكو غرامي منذ شَطَّت نَواكُم
وأعظمُ ما ألقاهُ أنّي لم أجد ... لقلبي سُلُوّاً عنكم بسواكم
فيا ليت أنّي لم أكُن بنتُ عنكم ... ويا ليت أنّي ما عرفتُ هَواكُم
وإنّي لأرضى أن أموتَ صَبابَةً ... إذا كان موتي في الهوى من رِضَاكُم
فإن تسمعوا يوماً بمن مات حَسرَةً ... وشوقاً إلى الأحباب إنّي لذَاكُم
أراكم بقلبي حيث كنتُم تَفَكُراً ... وإن لم تَكُن عيني بِرَغمِي تراكم

فهذه الأبيات بما فيها من ألفاظ ومعاني الغزل مثل (الغرام والبعد، واللقاء والهوى، والصبابة، والموت في الهوى، والشّوق إلى الأحباب، والعيون، والرّضى كلّ هذا وما اتّسمت به هذه الألفاظ من رقّة وعذوبة، وما احتوته الأبيات من معاني الشّوق والألم واللوعة، وما اتّسم أسلوبها من سهولة ومعانيها من وضوح، كلّ ذلك يظهر بشكلّ جلي الفرق بين أسلوبي الشّاعر في المدح والغزل، من حيث اختياره للألفاظ وبنائه الصُّوَر، وتعبيره عن المواقف.

وعندما يصف فتيان المعركة فإنَّ أبياته تتسم بالقوة والفخامة والجزالة، وهذا يتناسب وجو المعركة، فنجد في الأبيات الألفاظ والتراكيب القوية والمتينة ، مثل شوس الملوك، استنقذ البيت المقدس عنوة، ذليل أصغر، هول يوم المحشر، جيوش الشّرك، وذلك إذ يقول:

تُبنَي الممالِك بالوَشِيج الأسمرِ ... والبيضُ تلمعُ في العجاجِ الأكدرِ
وبكلّ أجردَ شيظمٍ يعدو إلى ... الهَيجَاءِ بمقتحمِ المهالك مُسعِرِ

ومنها:

لِمَ لَم تَدُن شوسُ الملوكِ له وقد ... ملكَ السّواحلَ في ثلاثةِ أشهرِ
واستنفذ البيتَ المقدسَ عنوَةً ... من كلّ ذي نَجَسٍ بكلّ مُطَّهَرِ
كم سابحٍ من خيلِهِ في رسغِهِ ... تاجٌ لملكٍ في التَّرابِ مُعَفَّرِ

كم ردَّ مــن ملكٍ عزيــزٍ أصغرٍ يُدعى بمملوكٍ ذليــلٍ أصغَرِ
وأريتَهُم لَمَّا التقى الجمعان بالبيتِ المُقَدَّسِ هولَ يــوم المَــحشَرِ
جاشت جيوشُ الشِّرك يوم لقيتَــهُم يتذامرون علَى مــتُونِ الضُّمَرِ
وكأنّــهم بحــرٌ تــدافــعَ مــوجُهُ بظبىً وزُغفٍ مُحكَــمٍ وسَنَوَّرِ
أوردتَ أطرافَ الرِّماحِ صدورهمُ فَولَغنَ في عَلَقِ النَّجيــعِ الأحمر

وعندما يقول فتيان في الرِّثاء فإنّ أسلوبه يتَّسم بالسُّهولة والوضوح، وألفاظــه بالرّقة والعذوبة، ونجد موسيقاه حزينة، فيختار لأبياتــه الأوزان الخفيفــة والقــوافي الحزينة لتتلاءم وموضوع القصيدة وهو الرّثاء، فيعبر الشَّاعر في أبيات الرّثاء عــن معاني الحزن والحسرة والألم، حتى ليجد القارئ نفسه في جــو انفعــالي، فيــؤمن بصدق عاطفة الشَّاعر وعظم مصابه وبلواه، ومن مراثيه، قوله في رثاء الأمير معن بن محسن:

بكت مَعَنَا العلــياءُ إذ فقدت مَعْنَا ولم يبقَ لفظٌ للقــوافي ولا مَعْنَى
وددتُ بأن لم يخــلقْ اللّه لي وقد نعاهُ لي النَّاعــون عيــناً ولا أذنا
فكم جَرحوا قلباً وكم حَرَّقُوا حَشَاً بنعيهم مَعْنَاً وكــم أقــرحوا جَفنَا
قليل لنا شــقُّ الجــيوبِ تأســفاً وأسبال دمــعٍ بعضُهُ يَحمِلُ السّفْنَا
أفي كلّ يــومٍ للخــطوبِ إغارةٌ عليّ بمن لا يسأم الضّرب والطّعنا
أظنّ فــؤادي للهــموم قــرارةً فقد عَــمَّ سيلها منــه السَّهل والحَزنا
قد مات سعد الدّولة بن مُحسنٍ فأنَّى أرى في النَّاس مِثلا لــه أنَّى

ومن السِّمات الأسلوبيّة في شعر فتيان: استخدام أسلوب السّخرية والتهكم، وذلك عند وصف الأعداء الصّليبيين، أو السّخرية ممن يهجوه الشَّاعر ، وذلك لازدرائهــم والانتقاض من شأنهم، ومن الأمثلة على ذلك قوله يصف الصّليبيين بعد فــتح بيــت المقدس على يد صلاح الدّين، وأسرهم وسبى نسائهم، ويصوِّر الذُّكور وقد تمنّوا أن يكونوا إناثا رهبة وخوفا من سيوف المسلمين كما يسخر منهم فيصفهم ببغاث الطّير وذلك إذ يقول:

يا أيُّها المَلك ُالَّذي عزماتُهُ   جَعَلَت بُزَاةَ المشركين بغاثا
لما سَبيتَ نساءهم وقتلتَهُم   ودَّ الذُّكورُ بأن تكون إناثـــا

كذلك قوله متهكما وقد تبدّل حال الأعداء فأتوا المعركة كالأسود، ولكنّهم انقلبـوا أمام المسلمين ثعالب ذليلة، فأصبحوا فرائس لأسود المسلمين وشجعانهم فيقول:

آضت أسودُهُم ثعالبَ ذلّة   فهُم فرائسَ كلّ ليثٍ قَسوَرِ

ويجعل فتيان الشّاعر ابن الخيمي معرضا لسخريته وتهكمة بصورةٍ طريفة فيصفه بالسَّمج الإنشاد، فلفظه غثٌّ وشعر فاتر، ثم يأتي الشّاعر بالتشبيه السّاخر والقاسـية من ابن الخيمي، ويقول في ذلك:

كلّما حادثني ابن الخيمي   قُلتُ هذا حَدَثٌ ليسَ حَديثا
سَمِجِ الإنشاد غَثٌّ لفظُهُ   فاترِ الشِّعرِ يُرى فيه خنيثا
فوهٌ كالمعدةِ ما مرَّ بها   طَيِّـبٌ إلا أحالـته خبـيثا
لا تُبَطرِمِ ويكَ إنّي عالِمٌ   بِكَ يـا قُردُ قديماً وحديـثا

ويغلب على أساليب الشِّعر الطَّابع الإنشائي من أمر ونهى واستفهام ونداء وغير ذلك، ولكلّ منها غرضٌ ومعنى يؤديه في سياقه، فقد استخدمت هذه الأسـاليب فـي الشِّعر الجهادي للدلالة على عظمة الفتح والفاتح، والتحريض على الجهاد واستنهاض الهمم، كذلك تستخدم هذه الأساليب في الشِّعر الجهادي للتقليل مـن شـأن الأعـداء والسَّخرية منهم، ومن أمثلة ذلك قوله مستفهما:

فمن الَّذي من جيشِهِم لم يَختَرِم   قَبْلا ومَن مِن جمعهم لم يؤسر
هل تُعجِزَن صورٌ مليكاً ناصراً   من أيـن يَسـرِ يُسَرُّ ويُنصَرُ

ومن الأمثلة على النفي والأمر قوله:

لا ينظرون سوى حسامٍ مُشهَرٍ   ومن الـدّماء كأنّهُ لم يُشـهَرِ

ما قوبلوا بجحافلٍ بل قُوتِلُــوا بملائك حضرت بأيمن محضر
ما سُور صورٍ عاصِمٌ منه وهل سُورُ المعاصِمِ عاصِمٌ لمُســوِّرِ
فأنهد لصورٍ فهي أحسن صورةٍ في هيكلّ الدّنيا بَدَت لمُصَــوِّرِ

ويستخدم فتيان أسلوب النفي في غرض آخر عندما يريد أن ينفي عن نفسه أمراً ويجعل منه إنسانا مظلوما؛ ليستعطف الآخرين، ويحظى بودهم، ولدى دراسة لغتــه نلاحظ اعتماد الشّاعر بشكلّ كبير على الأساليب الإنشائية في هذه القصــيدة الّتــي موضوعها الفخر والشكوى، ومن هذه الأمثلة قوله:

في عنفوان الصِّبا ما كُنتُ بالغَزَلِ فكيف أصبُو وسِنِّي سِنٌّ مُكتَهِلِ
لم أُمسِ في غَمراتِ العشقِ مُنغَمِساً ولــم تُؤنفــني العــذّالُ بالعَذَلِ
وما ازدَهاني سَرَابُ المَكرِ والحِيَل ولا دَهاني شَرابُ الكَرمِ بالخَبَلِ
وما ألــومُ حَسُــودِي في تَقــوّلِهِ زوراً عليَّ ولم أفعــَل ولــم أقلِ
ما يقدرون على إخفائهم حسبي وذاكَ اسيّرُ بين النــّاس من مَثَلِ

وواضح الاعتماد على أسلوب النفي في هذه الأبيات، وذلك بهــدف الاعتــزاز بالنفس، ونفى ما يشينها، ثم بيان تعرض الشّاعر للظلم والوشاية. وغير ذلــك مــن الأمثلة الكثيرة في هذه القصيدة.

وإضافة للأمر والنفي والاستفهام والنداء، استخدم فتيان أسلوب الدعاء وخاصــة في قصائد المدح، دعاء للممدوح بالحفظ والبقاء، وطول العمر، ودوام الملك، وحماية الدّين والمسلمين، ومن الأمثلة على ذلك قوله يدعو للملك الأمجد:

لا زال في فتحٍ ونصرٍ ما شَدَت قُمَريّةٌ أُصلا وما هَبَّت صَبَا

وأما الدُّعاء في قصائد الرِّثاء فيختلف، إذ يدعو الشّاعر للمتوفي ولقبره بالسُّــقيا والسّلام، فقال يدعو للملك غيّاث الدّين غازي:

عليهِ سلامُ اللهِ ما حُبِّبَ الغِنَى وطابَ به جَمعُ الكنوزِ لكنّازِ

ومن الظواهر الأسلوبيّة الأخرى: التكرار في المعاني والألفاظ سواء كان ذلك في نفس القصيدة، أم في قصائد مختلفة، ويلحظ الدارس أن بعض الألفاظ والمعاني قد تكررت في قصائد عديدة ويركز عليها الشّاعر لما تحققه من فكرة أرادها مثل تمكين الرابط بين الشّاعر ومن يمدحه أو من يتغزل به، وأذكر من هذه الألفاظ والمعاني: معقرب الصدغ، شبه يوسف في الحسن، يبتسم عن نورٍ من الأقحوان، ظبي من التّرك..، ويقول في ذلك:

عَجِبتُ ولكن لات حِينَ تَعَجُّبُ وهل عَجَبٌ بدرٌ يهنا بكَوكَبِ

كذلك يكرر لفظة سور ثلاث مرات و لفظة عاصم ثلاث مرات في بيت واحد، وقد يكون التكرار مما يضعف معنى البيت ويثقل لفظه، يقول فتيان:

ما سُورُ صُورٍ عاصِمٌ منه وهل سُورُ المعاصِمِ عاصِمٌ لمُسَوِّرِ

ومن السِّمات الأخرى أسلوب المبالغة، فالشّاعر يبالغ في وصف ممدوحه لينال الحظوة المرجوة، أو لأن الممدوح قائد مسلم عظيم كصلاح الدّين، وأن ما قام به من أمر يستحق التضخيم والتهويل، وقد يبالغ الشّاعر في وصفه لحبه من أجل استعطاف المحبوبة، كذلك يبالغ في وصف المحبوبة، أو في وصف جمال من يحب، فيشبهه بحسن سيدنا يوسف عليه السّلام، وإن مدح أديبا لا يرى نظيرا له من السّابقين واللاحقين، ومن أمثلة ذلك أنّهُ جعل ممدوحه صفي الدّين بن علي أحق الورى- بعد النبي- في أن تنزل به الآيات، فيقول:

لو أُنزِلَت آيةٌ بعد النبي إذن لأنزلت في صفي الدّين آياتُ

ويجعل خازن السّلطان صلاح الدّين كألفي حاتم، ومملوكه كألفي عنترة في البأس:

كم خَازِنٍ لك مثلُ ألفي حاتمٍ كرماً ومملوكٍ كألفي عنترِ

وغير ذلك من الأمثلة الّتي يجعل فيها الملك الأمجد قد خلق من النور الإلهـــي وليس كباقي البشر من الماء المهين، وهذا الملك المظفر فإنه يرد الجحفـــل وحـــده، وفي هذا حث للقائد على مواصلة الجهاد والقتال.

ويضاف إلى السِّمات الأسلوبية عند فتيان، استخدامه للألفـــاظ والمصـــطلحات الإسلاميّة، الّتي تعكس الأثر الدّيني، وهي مستمدة من القـــرآن الكـــريم، والحـــديث الشريف، أو من الواقع متمثلا بالفتح القدسي، فقد عدَّ الشّعراء هذه الحرب عقائديـــة، فراحوا يربطون بين هذه الفتوح والفتوح في العصر الإسلامي الأول، فجاءت الألفاظ مثل: الإسلام، الشّرك، دين الله، معشر الإســـلام، المعـــروف، المنكـــر، جنـــد الله، ملائكة.....، ومن أمثلتها قوله:

فلقد وأدتَ الشَّركَ يوم لقيتهم وغدوتَ للإسلامِ عين المُنشِرِ
ورددتَ دينَ اللهِ بعد قُطُوبِهِ بالمسجدِ الأقصى بوجهٍ مُسفِرِ
وأعدتَ ما أبداهُ قبلَكَ فاتِحاً عمروٌ فأنت شريكُهُ في المَتجَرِ

ونتيجة لدخول العنصر الفرنجي للبلاد الإسلاميّة، والتعـــايش بـــين المســـلمين والنّصارى، فقد استمد الشّاعر بعض ألفاظه من الدّيانة النّصرانيّة مثـــل النـــواقيس، الصلبان، القديس، الدّير الرهبان، القساوسة....، وفي ذلك يقول:

سقى اللُه ديراً فيهِ نادمت قِسّيسا فكان شريفاً ظاهرَ البِشرَ قدّيسا

وقال يصف الخمرة عند القسوس ورجال الدّين:

وردَ الـــوردُ فاسقني بِنتَ كَرمٍ باتَ يجلـــو عروسَهـــا الراوّوق
ما بدت للقُسوس في الكأسِ إلا قـــدسوها وصَـــلَّبَ الجـــاثلـــيق

ويصدر فتيان عن ثقافة لغوية واسعة، فنجد صداها في أشعاره، مـــن خـــلال الإشارات إلى بعض المسائل اللغوية، والقواعد النحوية، وفي البيت التالي إشارة إلى ترخيم المنادى، وحذف الحرف الأخير منه، حيث قال:

تَرخِيمُهُ ضدَّ ترخيمِ النِّداءِ ففي هاذاكَ نقصٌ وفي هذا زياداتُ

و يقارن بين صرف محبوبته له وعدم صرف النّحاة لاسمه فيقول:

صرفتَ (فتيان) عنك ظُلماً		ولــم تُجز صرفَــه النُّحــاةُ

ويشير في مدحه للفقيه ضياء الدّين إلى أحوال الفعل وأحكامه، مستفيدا من ذلك في مدح الفقيه وذم غيره، فيشير إلى حالات الفعل من رفع، ونصب وجزم،والاسم من البناء، والجر. ويقول:

لِمَ لَمْ يكن كضياء الدّين يرغَبُ فـي		حســنِ الثَّنَاءِ فهو مَرجُو ومأجورُ
لا زال مُرتَفِعاً بالفـعل ناصِـبَ مَن		عادي وشانئُـه للجـزَمِ مَجـــرورُ
والفتحُ وقفٌ علـيه والحســودُ على		وصـمٍ من الضّيمِ مَبنِيٌ فمكسورُ

ويستعير الشَّاعر أدوات الكتابة ليصف المعركة، حيث شبه المعركة بالكتاب، إعرابها ضرب السّيوف، والنّقط وقع السّهام، والخط بالسّمهري والحبر فيها بحر من الدّم، والتّراب دفترها......، وذلك إذ يقول:

أنشأتَ مَلحَمَةً تُمِـلُّ مقـاتِـلَ		الفرسانِ بالعـددِ الَّذي لم يُحصَرِ
إعرابُها ضَربُ الحُسَامِ ونُقطُها		وقعُ السِّـهامِ وخَطُّها بالسَّمهري
والحِبرُ بحرُ دمٍ تَغَطمَط مَوجُهُ		إذ ليس ثَمَّ سوى الثَّرى من دَفتَرِ

وتدل بعض أشعار فتيان على علمه ومعرفته بالفلك، فتجد في شعره ألفاظا من ذلك مثل أسماء النجوم والكواكب والأبراج، فيذكر الجوزاء والشِّعريين، والشّهب والنسرين، وبنات نعش.... فيقول:

ليــلةٌ صُلِّـيت بمنطقةِ الجو		زاءِ والشِّـعريين والجوز هرَّا
وهلالُ السّماءِ يشرقُ والشّ		هب تروقُ العيون نَظماً ونثرا
وتــبارى النَّسران سَبقَاً وقد		قدَّم سبقٌ نَســراً وأخــرَّ نَسرا
وتريــنا بــنات نعشٍ نساءً		في حدادِ سَفَرنَ شَفــعَاً ووترا
والثّـُريا كأنّــها كف خَودِ		خُتِّــمت ياقُــوتاً وتــبراً ودرَّا

ويمتاز الشّعر في القرن السّادس الهجريّ الّذي يمثّل حياة العامة بالسّهولة والوضوح، والاقتراب من اللغة المحكية، واستخدام الكلّمات العامية، والعبارات الجارحة، والإكثار من الألفاظ الأعجمية، واستخدام الصُّوَر والمعاني المستمدة من البيئة الاجتماعية، ومن ذلك قوله:

التّرك إن لبسوا يوماً ترائكهم على الدّروعِ وألقوا بالشّرابيش
ألفيتَ أسداً على الأعداءِ واثبةً إذ انحنوا في قرابيس الأكاديش
تَلقَى ملائكةً قد أرسلَت شُهباً على العفاريت من أفقِ التّراكيش

وتقترب لغة فتيان في بعض أشعاره من الكلام العاميّ الّذي دار على الألسنة آنذاك. مثل:

لستُ أبغي منكم زبيباً ولا دِبساً ولا ماله تعد البواطي

كذلك قوله:

ونقسِمُ لو أنَّا استطعنا زيارةً على الرُّوس منا والعيون لَزُرناكُم
ثقوا بوفاء العَهْدِ منَّا فإنَّنا على كلّ حالٍ يعلُم الله نرْعَاكُم

ويستخدم فتيان في هجائه بعض الألفاظ الجارحة، مثل:المزابل ، البغال، الزّبال، خراط، زوامل، الكلّب، جاموس... وقد كثرت الأسماء الأعجميّة في شعره، وذلك راجع إلى طبيعة العصر آنذاك، فقد تولى الأتراك حكم الدّولة الإسلاميّة، كما استمدّ بعض الألفاظ من حياة الفرنجة كأسمائهم، وألقابهم، ومن ذلك قوله يذكر الفسقار، وهي كلّمة رومية تعنى المكان الّذي يضع فيه الفسقة شراب الجنود الرُّومان:

فأعجبُ لجزّارٍ فعالُ جفونِهِ في النَّاس ضِعفُ فعالِه بالشاءِ
تستوقفُ الإبصار بالفُسقارِ صو رةَ وجههِ من رائحٍ أو جائيِ

وقال يصف الملك الأمجد وهو يضع القلنسوة على رأسه:

أحسنِ به في كلّما حالاته مُتَشَربِشاً مُتَتَوجاً مُتَعَصبِاً

ومن أسماء الأعلام الأعجميّة الّتي وردت في شعره (جهاركس،عوسجه، منكورس، مهرو...)،ومن المفردات الأخرى، الكلّمات:(الجوسق وتعني القصر وهي فارسية، والمُخَشلَب وتعني الخرز الأبيض وهي كلّمة نبطية...).

وجاءت بعض الألفاظ غريبة، فيصعب بعض الأحيان على الدارس الاهتداء إلى معنى المفردة، مثل (بكتمر، الشّلوحا)، ومن غريب لفظه قوله:

أمّا وكلّ نفوخِ شَجٍ بنرسٍ رضيخِ
مَجَّ اللُّغامَ بنسج العناكب المنضوخِ

وتستمر القصيدة على هذا المنوال إلى أخرها وهي ليست بالقليلة، فتلاحظ المفردات: النرس والرضيخ والمنضوخ....

وقد أورد فتيان أسماء القادة الفرنج أثناء وصفه للمعارك، ومنهم: (المركيس، الهنفري، الإبريز). فقال:

فمن بعدهِ لا شُدَّ سَرجٌ لسابحٍ ولا رِيعَ طِرفٌ في الهياجِ بمِهمازِ
ولا أُبرزَ الإبريزُ يوماً لمعتفٍ ولكن سناهُ مُختَفٍ بعد إبرازِ

وقوله:

سَقَتِ المماليكُ الكِرامُ ملوكَهَم كأساً بهِ سَقَتِ اللَّئيم الهَنْفَري

وكان إدخال الأسماء الأعجميّة وخاصة الممدوحين في الشِّعر يؤدي إلى التكلّف، فقد يُلزم الشّاعر نفسه أن يكون اسم الممدوح في ضرب أحد الأبيات وتكون القوافي متفقة وهذا الاسم، وهذا يفرض على القصيدة قيداً ثقيلاً ويجعل بناءها غير مستساغ، ومن أمثلة ذلك قوله في مدح الأمير زين الدّين قراجا:

وأهيفُ لحظهُ بالسِّحر ناجا فؤادي المُستَهام فَهَاجَا

ويرد اسم الممدوح في قوله:

غدا في حسنهِ مثلاً كما في المكارمِ والعُلا أضحىَ قَرَاجَا
ولم يتمط قط قرا جوادٍ بمثلك يا قراجا إذ تُهاجا

ويتغزل فتيان بغلام اسمه الطوبنا، فيجعل الاسم يتحكم في وزن القصيدة وقافيتها، فتضعف تراكيبها وبناؤها:

مـــا شدَّ ازرارَ القَبا أحسنُ مــن الـطْــونبـــا
أجفـــانُــهُ منهـــا يُسلُّ حَـــدَّ سيـــفٍ مــانَبــا

واهتمّ فتيان بذكر أسماء المدن والقلاع والأماكن، فقال فيها مادحاً، أو متغزلاً، أو واصفاً لها، كما فرضت طبيعة العصر عليه ذكر أسماء الأسلحة والأدوات الحربية، مثل السّيف ، الرّمح، الدّرع....

ومثلما وجدت الأساليب القوية، والعبارات الرّصينة، كذلك نجد عبارات وتراكيب ضعيفة، ومعان ركيكة، ومن أمثلة ذلك قوله:

وقفــتُ بالــدَّار أبكي ومـــا بهـــا مــــن عَــرِيبِ
سألتُ فيهـــا صَداهـــا ســــؤالَ صَــــبٍّ كَئِيـبِ
فقلــتُ: أيــنَ حبيبـــي فقـــالَ: أيـــنَ حـــبيبـــي

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من ضعف في التركيب و ركاكة في العبارات.

وقد ولع الشِّعراء في ذلك العصر بالفنون البديعية، من جناس، وطباق، وتقسيم، وغير ذلك من الفنون، ومثلما كان الجناس الَّذي يحركه رسم اللفظة، والطباق الَّذي يحركه معنى اللفظة، يضيفان إلى المعنى واللفظ جمالاً، وعمقاً في الصُّوَرة، وإيقاعاً في الموسيقا، كذلك ساهم الجناس في التكلّف، وضعف البناء، ومن مثال ذلك:

مَن مُنْقذِي مِنْ مُنقِذِي عِشْقَهُ بَحرٌ غرقت به مالي مُنُقذُ

ومن الجناس الحسن قوله:

عُودوا و عُودوا لِيُدَاوَى الَّذي بـــالهَجْـــر أمْـــرَضْتُم فأَرْمَضْتُمُ

ويطابق الشَّاعر بين البيض والسُّمر قائلا:

بها البيضُ والسُّمرُ لم تتخـــذ سِوَى البيضِ والسُّمر يوماً حِجابا
ففـــي سِلمِهِم يَعقرون العشارَ وفـــي حَــرْبِهم يضربون الرِّقَابا

والتقسيم من فنون البديع الَّتي عمد إليها الشَّاعر، وحسن التقسيم يسهم في الإيقاع داخل الأبيات، فيزيدها جمالا، وتطرب الأذن لدى سماعه. ومن التقسيم قوله:

شَمسُ ضحىً بدرُ دجىً ليثُ وغىً غيثُ جدىً سيفُ ردىً ماضي الشَبا

وقوله:

من ناظريه ومن دَمْعِي ومن نَفسي سَيفٌ وسيلٌ ونارٌ دونها النَّار

ونجد أنَّ فتيان التزم في بعض قصائده بفنٍ ما من الفنون، كأن يبني قصيدته على حروف المعجم أو أن ينظم أخرى يلتزم فيها بكلّمة معينة في نهاية كلّ بيت من أبياتها، أو يلتزم بحرف التاء في أول البيت ونهايته كذلك نظم قصيدة التزم فيها بتكرار حرف السين في كلّ كلّمة، وكلّ ذلك أدى إلى تفكك القصيدة، وضعفها.

ومن السِّمات الأسلوبية الواضحة في شعر فتيان: ظاهرة الاستدعاء: القرآني والشِّعري، فقد خالط التعبير القرآني أشعار فتيان حتى لا تكاد قصيدة من قصائده الطوال تخلو من استدعائه على نحو من الأنحاء، وساعده على ذلك أمرين، الأول عمله في التعليم وعقده حلقات العلم في المسجد الأموي، والثّاني طبيعة العصر الَّذي عاش فيه، وإذكاء الحروب الصَّليبيَّة الحسّ الإيماني في النّفوس، فأخذ الشِّعراء يستلهمون القرآن الكريم في أدبهم لغايات تحريضيّة وفنيّة في آنٍ واحد.

وقد أفاد الشَّاعر من آي الذكر الحكيم في استحضار ألفاظه وتراكيبه وصوره، وتدرج ذلك من استيحاء الكلّمة المفردة إلى تبني الجو القرآني في بعض القصائد، وهو في ذلك يُدخل بنية الآية القرآنية في شعره، ويدمجها في سياقه.

وقد استوحى فتيان بعض القصص القرآنية الدّالة للتعبير عن الفكرة الَّتي يريدها في عبارة موجزة، فعندما تأخر معسكر الأفضل عن دخول دمشق قال في ذلك بيتين مذكراً بقصة أهل الكهف الَّذين طال رقودهم ونومهم:

إن غَابت الشَّمسُ عنهم وهم لم يدخُلُوا في عَشِيَّةَ البَلدا

فاتلُ عليهم أنباءَ ما جاء في الكهفِ؛ ولن يُفْلِحوا إذن أَبَدَا

فالشّاعر يستحضر القصة القرآنية المتمثلة في قوله تعالى "فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا"، يختار الشّاعر قافيته مماثلة لفواصل الآيات، ليستوحي النّص القرآني بمعناه وبنائه.

ويستحضر الشّاعر بعض القصص والنصوص القرآنية إذا ما أراد أن يهيئ المتلقي إلى استقبال خطاب شعريّ يدخل في دائرة تقابليّة بين الحالة الانفعاليّة للشّاعر والمستوى القرآني في دلالته، ومن ذلك ما يكون في قصائد الرّثاء فالنّص القرآني الدّال على الأهوال العظيمة يوم القيامة، وفي استحالة النّجاة من الموت، أو كما يكون ذلك في وصف الشّاعر لأثر الخمرة وفعلها فيه من طرد الهموم، وجلب السرور، ويقابل ذلك بفعل جند الله (الطّير الأبابيل)، بالمشرك الّذي أراد هدم الكعبة، وذلك إذ يقول:

فَهاتِ كأسَ المُدام مُتْرَعَةً كأنَّها في الظَّلامِ قِنديلُ
حَبَابُها للهموم إنْ طَرَقَت مَنْ عَبَّ فيها طَيرٌ أبابيلُ
راميةً في هامِ الهموم سُطاً حجارةً أصلُهُنَّ سِجِّيلُ
فُهَنَّ صرعَى من المُدام وقَد شُبِّهنَ بالعَصْفِ وهو مأكولُ

فالشّاعر يستحضر في هذه الأبيات عدة آيات قرآنية ناشرة حضورها وغيابها في آن واحد، ملتفتا إلى الرّفد القرآني في سورة الفيل لفظاً ومقاطع ومعنى.

ويظهر هذا الاستدعاء بعلاقاته عندما يصوِّر عظمة فَقدِ الملك المغيث بن العادل، وأنَّ ذلك في مظاهر الطَّبيعة، ويستدعي لذلك الآيات القرآنية من مجموعة سور، الزّلزلة، التّكوير، النّساء. وبقوله في ذلك:

مصابٌ زَلْزَل الأرضينَ حُزناً بدنيانا فأطيَبُها خبيثُ
ورزءٌ كُوِّرَتْ شمسُ المعالي له أسفاً وأُبهج من يُعِيثُ
ولم تُغنِ البروجُ مُشَيَّداتٍ عشَّية صُمَّ للأجلِ الجُدوثُ

فقوله: (زلزل الأرضين) استيحاء من قوله تعالى " إذا زلزلت الأرض زلزالها" وقوله: (رزء كُوِّرت شمس العالي)، استيحاء لقوله تعالى: " إذا الشمس

كُوِّرت"،أمّا قول الشَّاعر (لم تغن البروج مشيّدات) فاستحياء لقوله تعالى: "أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة." ولعل قصة سيدنا موسى – عليه السَّلام– قد علقت في ذهن الشَّاعر حتى استحضرها في أكثر من قصيدة، وبكثافة عالية، فقد استغل فتيان كلّ الجزئيات في القصتين القرآنية (قصَّة سيدنا موسى) من معجزاته (العصا، اليد البيضاء، عيون الماء، تكلّيم الله له، الطُّور)، والقصَّة الأخرى قصّة الملك الأشرف موسى بصدّه للغزاة على الطُّور، ودفاعه عن دين الله، وقد وظّف الشَّاعر المعاني والألفاظ القرآنيّة لتخدم غرضه في قصيدة المدح، ومن الأمثلة على هذه القصائد:

وليس لموسى من عصاً غيرُ صارمٍ   كِبُّ على الأذقانِ ضرباتِه الرَّوسا
وثُعْبانُـهُ الـرُّمحُ الأصـمُّ لسانُـهُ   يُنْضنضْ فـي سُمِّ المنيَّـةِ مغْمُوسَا
على الطُّورِ ناجى الله موسى بنصرهِ   فالبطُّور ثَغرُ السِّلم أصبَحَ محروسا

ومن خلال هذا الاستدعاء فإن الشَّاعر يمنح الممدوح قدسية خاصّة ، وينشر في الأبيات جواً دينياً. وقد يضمِّن فتيان قصائده الآيات القرآنية بمعناها، أو لفظها بشكلٍ كلّي أو جزئي، والأمثلة على الاستدعاء القرآني كثيرة ولا يمكن تناول كافة المواضع، فمن هذه الأمثلة أيضاً قوله:

سَعَادَةُ تَبَّت يدا حاسدِهِ   بها كما تَبَّت يدا أبي لَهَب

وقد ضمَّن فتيان كلامه قوله تعالى: "تبت يدا أبي لهب"، كما ضمَّن الآية "ربنا إنِّي أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع"، قوله:

ما لكم ذَنْبٌ ولكن لِمَنَ   حَلَّ بوادٍ غير ذِي زَرْع

وأمَّا الاستدعاء الأدبي فقد جاء في صورَّتين: أولاهما التضمين والثانية المعارضة، و قد ضمّن فتيان قصائده بعض أشعار السّابقين، مستحضراً صدر البيت، أو عجزه، أو البيت كلّه، ويختار فتيان الأشعار الَّتي تتفق وقصيدته، سواء كان ذلك في مناسبتها بشكلّ مجمل، أو في المعاني الَّتي يريد الوقوف عندها على نحو آخر ومن الأمثلة على هذا التضمين. قوله:

لم ألقَ من أحدٍ إلا وأنشدني [ما بالُ عينك منها الماءُ يَنسَكِبُ]

فالشَّاعر يستحضر قول ذي الرّمة، عندما مدح عبد الملك بن مروان، ويُضَمِّنَهُ بيته:

ما بالُ عينكَ منها الماءُ يَنْسكِبُ   كأَنَّــهُ من كلّــيَ مَفْرِيّــةٍ سَرِبُ

ويصف أبو نواس الرَّاح بيد السَّاقي وكأنَّه كوكب مقبل فيقول:

إذا عُبَّ فيها شَارِبُ القومِ خِلْتَهُ   يُقبِــلُ فـــي داجٍ مــن الليل كَوكَبا

ويستعير فتيان هذه الصُّوَرة في بيته التالي:

كأنَّـــهُ والـــرَّاحُ فــــي كَفِّـــهِ   شمسُ الضُّحـــىَ قابَلَهـــا كَـــوْكَـــبُ

ويمدح فتيان الملك الأشرف بقصيدة منها:

يـــا لهـــا مـــن لَيْلَـــةٍ بتُّ بعينيـــــهِ   أُسَقـــــى وبـــكَفَيـــــهِ المُـــدامـــــا

وهنا يحضر في ذهنه صوت البحتري، دون أي تغيير جوهري على البيــت، وقد وصف البحتري هذه الليلة فقال:

ورُبَّتَ ليلـــةٍ قـــد بتُّ أُسقـــى   بعينهَـــا وكَفَّيهَـــا المُـــدامـــا

ونتم عملية الاستدعاء هذه بطريقة واعية من خلال دمجها في السّياق الشِّعري دون خلل فيه، فعندما يمدح فتيان الوزير صفي الدّين بن علي، يقربه مــن النّســب الهاشميّ بطريق غير مباشر يبثها في صوَّره، و لأجل ذلك يســتدعي عجــز بيــت الفرزدق الَّذي قاله في مدح زين العابدين علي بن الحسين، ويضمّنه بيتــه، وقــول الفرزدق هو:

هذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كلّهم   هذا التقِي النَقي الطَّاهِر العَلَمُ

وأما قول فتيان فهو:

دانت له علماءُ الدَّهر قاطبةٌ   فهو التَقي النَقيِ الطَّاهِر العَلَمُ

ويبحث فتيان عن الصُّوَرة الَّتي كسب بها الشَّاعر الحطيئة عطف الخليفة عمر بن الخطاب –رضي الله عنه – في شكواه الفقر، فسيتدعيها ويضمنها بيته لعله يكسب عطف ممدوحه. وأمّا بيت فتيان:

عندي أُطيفالٌ كأفراخِ القَطَا في مسكنٍ كالنَّافقاءِ سكَنْتُهُ

أصحو بلا ماءٍ ولا شجرٍ ولا برٍّ ولا خبزٍ لدىَّ أفتُّهُ

وقال الحطيئة:

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذي مرَخٍ حُمرُ الحواصلِ لا ماء ولا شجرُ

وقد حازت أشعار المتنبي على نصيب وافر من عناية فتيان وإطلاعه، وتمثله لها في كثير من مواقفه، فكانت رافداً له في صوَّره ومعانية وأفكاره، وقد يستدعي الشَّاعر ليؤكد معناه، وقد يأتي بالاستدعاء في موضوعٍ مغاير يحمل المعنى نفسه فقد قال فتيان متعزلاً:

فأنت قاضٍ وأنت خَصمٌ فأعدل كما تعدل القُضَاة

وهو بذلك يلتفت إلى قول المتنبي في مدح سيف الدّولة:

يا أعدلَ النَّاسِ الاَّ في معاملتي فيكَ الخِصَامُ وأنت الخَصمُ والحَكَمُ

كذلك قوله:

هم يَنشِدونَ لبَلواهُم وراحتهِ "واحرَّ قلباهُ ممن قلبهُ شَبِمُ"

فعجزُ البيت استدعاء لمطلع قصيدة المتنبي الَّتي قال فيها:

واحرَّ قَلبَاهُ ممن قَلبه شَبِمُ ومن بجسمي وحالي عندهُ سَقَمُ

ويمضي فتيان في قراءة القصيدة ذاتها ليستدعي قولاً آخر للمتنبي وهو:

أنا الَّذي نظرَ الأعمى إلى أدبيِ وأسمعَتْ كلّماتي من به صَمَمُ

وكثر الاستدعاء بهذه الصُّوَرة، فجاءت مطالع المعلقات في ثنايا أبيات فتيان في توافق وتناسق تام، لا يشعر بأي تكلّف أو غيره.

وأما الصُّوَرة الثانية للاستدعاء الأدبي فهي صوَّرة المعارضات، فراح فتيان ينسج بعض قصائده على منوال قصائد لشعراء سابقين، في الوزن والقافية والغرض، ومن هذه القصائد، قصيدته الَّتي مطلعها:

في عنفُوانِ الصِّبا ما كنتُ بالغَزَلِ فكيف أصبُو وسنِّي سُنَّ مُكْتَهِلِ

وقد عارض فيها لامية العجم للطغرائي. الَّتي مطلعها:

أصالةُ الرَّأي صانتني عن الخَطلِ وحِليَةُ الفَضل زانتني عن العَطَلِ

فكلا الشَّاعرين قال قصيدته في الغرض ذاته، وهو شكوى الدّهر والتّذمر من سوء الحظ، ونكد العيش، كما افتخر كلاهما بنفسه. وقد اتفقا منذ المطلع في القصيدتين على الاتّصاف بالعفة، والرزانة وحفظ النّفس، وجعل الفضل عندهما أولى، ولكن نجد في مقطع آخر أنّ الطغرائي يُقدم على التمتُّع بحبه، ولو دعاه ذلك إلى المخاطرة، فقال:

لا أكرهُ الطَّعنة النَّجلاء قد شُفِعت برشقةٍ من نِبالِ الأعينِ النُّجلِ
ولا أهابُ صِفاحِ البيضَ تُسعِدُني باللمعِ من صفحاتِ البيضِ في الكلّلِ
ولا أخِلّ بغزلانٍ أغازلها ولو دهتني أُسودُ الغِيلِ بالغَيَلِ

في حين أنّ فتيان يخالفه الرأي، فيؤثر طريق العفاف، فنجده يُفضّل في جمال المرأة ليظهر مدى عفته فيقول:

يا رُبَّ بيضٍ سَلَلنَ البيضَ من حَدَقٍ سودٍ ومِسنَ بأعطاف القنا الذُّبُلِ
هيفُ الخُصور نقيّاتِ الثُّغُورِ اثيثاتُ الشُّعُور هَجَرنَ الكُحل للكَحَلِ

ويُفَصِّل فتيان القول إلى أن يقول:

رددتُ عنهم يدي ردَّ العفاف بلا ضعفٍ عراني ولا خوفٍ ولا وجلِ

ويتفق الشَّاعران على أنَّ العز في النقل، وأنَّ طول الثِّواء يوجب الخمول، فقال الطغرائي:

إن العُلى حدثتني وهي صادقةٌ في ما تحدِّث أنَّ العزَّ في النّقلِ

لو أنَّ في شرف المعنى بلوغُ منىً   لم تبرح الشَّمس يوماً دارة الحَمَلِ

ويقول فتيان:

ليس ذنبي سِوىَ طول الثِّواءِ ومن   طالَ الثّواء عليــه ريْعَ بــالمَلَلِ
والعجزُ أوجبَ لي ذُلَّ الخمول ولو   أنِّي تنقَّلــت كان العزُّ فــي النقلِ
لا تحسبن أنّ نور الشَّمس يُوهنُــه   ما ألبسَ الجوُّ من غيمٍ ومن طَفَلِ

ولم يكن الطغرائي يؤثر أن يمتد به العمر ليرى سيادة الأوغاد، فالدَّهر يقدم من لا يستحق التقديم ويؤخر أهل الرأي، ولكن له أسوة في انحطاط الشّمس فــي الأوج عن زحل:

ما كنتُ أُوثرُ أن يمتــد بــي زمني   حتــى أرى دولــة الأوغاد والسَّفلِ
تقدمتنـــي أناسٌ كــــان شوطُهُــم   وراء خطــو ي إذ أمشي على مَهَلِ
هــذا جزاءُ أمــريءٍ أقرانه دَرَجُوا   مــــن قبلــهِ فتمنى فُسحة الأجــل
وإن علاني مَن دونـــي فلا عجبٌ   لي أسوةٌ بانحطاط الشَّمس عن زُحَلِ
فأصبر لها غيرُ مُحتالٍ ولا ضَجرٍ   في حادث الدّهر ما يُغني عن الحِيَلِ

ويتداخل صوت الشَّاعرين في أبيات فتيان ليتقارب النّصان لفظــاً ومعنـــى، إذ يقول فتيان:

إن قَــدَّمَ اللهُ أقوامــــاً وأخرنـــي   فالشَّمسُ مُنحَطةٌ في الأوجِ عن زُحلِ
هذا من الدَّهرِ مشهُورٌ ومــا برحتْ   أهــلُ المعالـــي ذُرابـــي ألسُنِ السفلِ
يا نفـــس صبراً على ما قد مُنيتُ به   فالحُرُّ يصبرُ عنــد الحــادثِ الجللِ
لا تأسفَنَّ علـــى ما لم تنلُه مـــن الدُّنيا   فــليــس يُنــالُ الــرِّزقُ بــالحِيَــلِ

وقد استدعى فتيان أبيات الطغرائي السّابقة بمعانيها وبعض ألفاظها "عن زحل، السفل، الحيل...".وفي موضع آخر يفتقد الطغرائي الصديق الَّــذي يمكــن أن يثــق به،ويدعو إلى الحذر في مصاحبة الآخرين، فإنمــا الرجــل مــن لا يعــوّل علــى أحد،ويعتمد على نفسه: فيقول:

أعــدى عــدوّك أدني من وَثِق به فحاذر النّاس واصحَبَهم على دَخَلِ
وإنّمــا رجُــلُ الــدُّنيا وواحــدُها مــن لا يعوّلُ في الدُّنيا على رَجُلِ

ويتبعه فتيان يحمل في أبياته الفكرة ذاتها، مدمجاً مرارة الطغرائي بما يقاسيه ويعانيه، فما الأنس إلا في الوحدة، وهجر الآخرين، فليس في النــاس مــن تصــفي الوداد له. ويقول:

والأُنسُ فــي وحدةِ الإنسان منفرداً عــن الأَخلاَّء فاهجرهُم ولا تُبلِ
ما في زمانِك من تُصفي الودادَ له مــن الأخِلاَّء إلا وهــو ذو دَخَلِ

ومن الأمثلة الأخرى على الاستدعاء بطريق المعارضة عند فتيان قصيدته الَّتي أوله:

تُبْ يا عَذُولي عن ملامي واتَّئب فليس قلبي عن غَرامي مُنقلِبْ

وقد استعاد فتيان في هذه القصيدة، قصيدة السّرّى الرّفّاء الَّتي مدح فيها الأمير أحمد بن نصر الحمداني، والَّتي أولها:

عُوجا على ذاك الكَثِيب من كثبْ فكم لنا فــي رَبْوتَيه مــن أَرَبْ

وعلى الرَّغم من الفارق الكبير في عدد الأبيات الَّذي يقارب النصف، فقد التقى كلا الشَّاعرين في موضوع القصيدة (المدح) ، فالسّرّي يمدح الأمير أحمد بن نصــر الحمداني، بينما يمدح فتيان المؤرخ الدمشقي ابن القلانسي، ولعل الفارق فــي عــدد الأبيات كان عن قصد، حيث يبدو أنّ فتيان أراد لهذه القصيدة أن تصل السّرّي لــو كان حياً، فالذّي ترتب على هذه الزّيادة،مزيد من المدح والصّفات والمبالغات ومــنح الممدوح كلّ يمكن من الصّفات الَّتي تربو على خصال الأمير الحمداني، ومــا يــدل على ما نذهب إليه هنا، ما ختم به فتيان قصيدته، معترضاً علــى مــا اســتهل بــه السّرّي، فقد قال فتيان في البيت الأخير:

لو طَرَقَتْ سَمعَ السّرّي لم يقلْ عَــرَّج على ذاكَ الكَثِبِ من كَثَبْ

ويجمع السـرّي فـي ممدوحـه، تفريـق النّشـب، وجمـع الحمـد، وحـل المعضلات،وهو الأغر الّذي ردّ الجود من بعد ما كان وعوداً كاذبة قبله فيقول:

وجـدِي به وجدُ الأميرِ أحمد بجمـع حمـدٍ وبتفـريـقِ نَشَبْ
أغرٌّ ردَّ الجـودَ وعداً صادقاً من بعد مـا كـان غروراً وكَذبْ

ويتبعه فتيان بقوله:

الآن أضحى الجودُ فينا عامراً مُشيَّـداً وكـان قِدمـاً قـد خربْ
ما زال مُغرَىً حيثُ كان مغرماً يجمعـه الحمْـدُ بتفـريـق النَّشَبْ

وينتخب فتيان ألفاظ السّرّي (يجمع الحمد، بتفريق النّشب) ويعيد صياغة فكـرة السّرّي مرة أخرى ويلصقها بممدوحه. ويصف السّرّي الحمداني بحزم رأيه، صاحب الحسب من بني حمدان، وقد ضيّق على حسّاده الفناء بما رحب. فقال:

يُريهِ أعلى الرأيِ حَزمٌ كـامنٌ فيـه كمُـونَ الموتِ في حَدّ القُضُبْ
حَسبُ بني حمدانَ مجداً أنّهـم أبنـاءُ محمـودِ السِّمـاح والـحسَبْ
كـم حاسدٍ رَحبِ الفناء ضيَّقتْ عليـه أسيـافُ الأميـر مـا رَحُبْ

ويستدعي فتيان هذه المعاني الّتي استحق الأمير الحمداني أن يمدح بها، ليمدح بها ابن القلانسي. فقال:

يكفيكَ إقرارُ الأنـامِ كلّهـم أنَّك خيـرَ ابنٍ أتى من خيرِ أبْ
آراؤه خلف عفاريت العـدى راجـمـةٌ ثاقبـةٌ مثـل الشُّهبْ
وسَّعَ للعفاة مـا ضاقَ وقـد ضاقَ على الحسّاد منه ما رحُبْ

وقد اعتمد السّرّي في إظهار عظمة الممدوح على التصوير والفنون البديعيـة وهذا يعكس إعجاب الشّاعر بممدوحه، ورؤيته الجمالية له، وقد استجاب فتيان لهـذه الرؤية تجاه ممدوحه فيعيد تشكيلها بحيث لا يظن ظانٌ أنّها متأخرة عن السّرّي.

ومن المصادر الّتي استدعى فتيان منها ألفاظه ومعانية: الأمثال فقد عمد إلى استيحاء المثل بكثرة، وذلك لتأكيد معنى ما، أو سوق الشّاهد على ما يقول. ومن ذلك قوله:

لا تَخشَ من سَيلِ الخُطوبِ أذى إذا جاورته والسّيلُ قد بلغَ الرُّبا

فقد استدعى الشّاعر المثل (بلغ السيل الرُّبا)،: وضمنه بيته كما استدعى المثل القائل (من أشبه أباه فما ظلم)، في قوله:

لك يا شبيه أبيه همته ومن يشبه أباه فإنّه لا يظلمُ

وتضيف هذه الأمثال للأبيات قوةً وإيحاء وجمالاً، والأمثلة كثيرة على هذه الاستداعاءات.

الخاتمة

وبعد، فهذه دراسة لحياة فتيان الشّاغُوريّ وشعره، وقد بيّنت هذه الدّراسة العوامل الرّئيسة الّتي وجّهت حياة هذا الشّاعر وشعره وأثّرت فيهما على المستويين العامّ والخاص،فقد تأثر الشّاعر على نحو واضح بأحداث عصره، وبالقضايا الكبرى الّتي كانت تهمّ مجتمعه، وقد عبّر عن تجربة الشُّعور الجمعي هذه من خلال شعر الجهاد والمدح الّذي صوّر الأمة وهي تواجه الفرنجة وتتصدى لهم،ومن خلال الشعر الّذي صوّر حياة الفقر الّتي كان يعاني منها عامّة النّاس والشّاعر نفسه.

وبيّنت الدراسة أنّ شعر فتيان اصطبغ إلى حدٍّ بعيد بمعالم البيئة الشّاميّة في عصره ، لا سيّما الحياة الشّعبيّة ، فقد صوّر القومَ في أسواقهم ومساجدهم ومدارسهم وحماماتهم ...

وعلى المستوى الخاص فقد قال فتيان في الأغراض التّقليديّة ، فصوّر شعره الغزليّ معاناته الشّخصيّة، وافتتانه بالجمال، وعبّر بلغة مبهمة عن أشواقه ومواجده الخاصّة. وعبّر في مراثيه عن إحساسه بالفقد للأصدقاء الّذين يفقدهم بمعانٍ بسيطة وأفكارٍ قريبة دون أن يستخرج من ذلك معاني تُصوّر موقفه من حقيقة الموت.

ويصوِّر شعر فتيان افتتانه بالطَّبيعة الدّمشقيّة على نحو كبير، وقد تمثّل ذلك في تفننه في وصفها، وارتياحه لها، وإكثاره من التّغني بها، حتى غدا شعره وفي

كثير من الأحيان نوعا من الهروب إلى هذه الطّبيعة، وبحثا عن السّكينة الطّمأنينة في آفاقها . لذلك كثرت أسماء الأماكن الشّاميّة في شعره على نحوٍ ملحوظ ، ويمكن أن نستقصي من هذا الشّعر كثيرا من هذه الأماكن الّتي لم ترد في معاجم البلدان.

ولعل تجارب فتيان الشّاغُوريّ وعمله في مجال التعليم أوحت إليه بكثير من معاني الحكمة والتأمّل في الحياة، غير أنّها حكمة غير راضية، يغلب عليها الطّابع الانتقادي للحياة والأحياء.

وبيّنت الدّراسة أنّ الشّاعر قد حافظ على الصُّور الأصيلة للشِّعر العربيّ سواء أكان ذلك في بناء القصيدة، أو في صورها، أو لغتها وأساليبها. إلا أنّهُ لا يمكن أن يُصدرُ حُكم واحد على مجمل شعره، فهو يأخذ بالاساليب الرّصينة الجزلة في موضوعات المدح والجهاد والفخر والرّثاء، ويجنح إلى الرّقة والسُّهولة في الوصف والغزل، ويقترب من اللّغة الشّعبيّة مع الحفاظ على فصاحة العبارة في النّقد الاجتماعي وتصويره المجتمع.

وقد كان لثقافة الشّاعر أثر كبير في التّشكيل الفني، تمثّل ذلك في ظاهرة الاستدعاء الدّيني والأدبي الّذي اتّخذ صوراً متعددة في شعره. وتفنن الشّاغُوريّ في بناء صوره، وقدّم تشكيلات فنيّة جميلة من هذه الصُّور معتمداً على التّشخيص التّجسيم والحركة والألوان، بحيث تبدو بعض قصائده موضعا فنيّاً أخّاذاً، لما فيها من حسن التّعبير والتّصوير.

وأخيرا فإنّ هذه الدّراسة مع غيرها من الدّراسات الّتي أجريت على أدب هذا العصر ، قد تدحض ما يُوصفُ به هذا الأدب من جمودٍ وضعف في المستوى الفنيَ

قائمة المراجع:

ابن الأثير،ضياء الدين، (1962):المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق، أحمد الحوفي وبدوي طبانه،مكتبه نهضة مصر،الطبعة الأولى.

ابن الأثير:(ضياء الدين أبو الفتح نصر الله المعروف بابن الأثير)(د.ت): رسائل ابن الأثير،تحقيق نوري القيسي، دار الكتب،جامعة الموصل.

ابن الأثير،عز الدّين،(1963): التاريخ الباهر في الدّولة الأتابكية،تحقيق، عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب الحديثة.

ابن الأثير،عز الدّين(1980): الكامل في التاريخ،دار الكتاب العربي،بيروت ، الطبعة الثانية.

الأصفهاني،العماد،(1987): البرق الشّاميّ، تحقيق، مصطفى الحياري،مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، الطّبعة الأولى.

الأصفهلني، العماد،(د.ت): الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمود صبح.

ابن أبي أصيبعة،(1965): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق،نزار رضا، دار مكتبه الحياة، بيروت.

أمروء القيس،(1959): ديوان أمريء القيس ، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر.

أيبك ،أبو بكر عبد الله بن أيبك،(1961): كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق، صلاح الدين المنجد، القاهرة.

البحتري، الوليد بن عبيد بن يحيى،(د.ت): ديوان البحتري، دار صادر.

بدران،عبد القادر، (1317هـ): منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق،

ابن بطوطة، (1981): رحله ابن بطوطة، تحقيق،علي الكتاني، مؤسسه الرّسالة، بيروت: الطبعة الثانية.

البغدادي، صفي الدّين،(1992): مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق، علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى.

البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى،(1987): فتوح البلدان، تحقيق، عبد الرحمن أنيس الطّبّاع، مؤسسة المعارف، بيروت.

البنداري، الفتح بن علي البنداري،(1979): سنا البرق الشّامي ، تحقيق فتحيه النّبراوي، مكتبه الخانجي، مصر.

ابن تغري بردي،جمال الدين أبو المحاسن يوسف،(1936):النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب،(1969): كتاب الحيوان تحقيق، عبد السّلام هارون، الطبعة الثالثه.

ابن جبير،أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير،(د.ت): رحله ابن جبير المعروفة باسم تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار،دار صادر.

الجرجاني، علي بن عبد العزيز الجرجاني،(1966): الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي،دار القلم، بيروت.

جعفر،قدامة بن جعفر(د.ت): نقد الشعر، عني بتصحيحه، بو نيباكر، مطبعة بريل، ليدن.

الجواليقي،(1966): المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم: أحمد شاكر.

الحسيني، صدر الدين أبي الحسن بن علي،(1984): أخبار الدّولة السّلجوقيّة، صححه، محمد إقبال، دار الأوقاف الجديدة ، بيروت، الطبعة الأولى .

الحطيئة،(1958): ديوان الحطيئة، شرح ابن السّكيت والسكري والسجستاني ، تحقيق ، نعمان أمين طه،مطبعة، مصطفى الحلبي،مصر الطبعة الأولى.

الحلبي،محمد راغب الحلبي،(1989): أعلام النبلاء في حلب الشّبهاء،دار القلم العربي،حلب،الطبعة الثانية.

الحموي ، أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف،(1981): التاريخ المنصوري، تحقيق، أبي العبد ودود، مطبعة الحجاز، دمشق.

الحموي،ياقوت،(1979): معجم البلدان، دار إحياء التراث، لبنان. وطبعة دار الكتاب العربي، بيروت.

الحموي،ياقوت،(د.ت): معجم الأدباء، دار المأمون، مصر، الطّبعة الأخيرة

الحنبلي: أبو اليمن القاضي مجير الدّين،(1973): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، دار الجيل، بيروت.

الحنبلي، أحمد بن إبراهيم الحنبلي،(1996): شفاء القلوب في مناقب بني أيّوب ، تحقيق، مديحه الشرقاوي،مكتبه الثقافة الدّينية.

الحنبلي،ابن عبد الحي بن العماد،(1979): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار المسيرة، بيروت.

الحنفي، محمد بن أحمد،(1982): بدائع الزّهور في وقائع الدهور ،تحقيق ، محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة، الطبعة الأولى.

خفاجي،محمد عبد المنعم،(د.ت): البناء الفني للقصيدة العربية،دار الطباعة المحمدية، القاهرة، الطّبعة الأولى.

ابن خلدون: عبد الرّحمن محمد بن خلدون،(1971): تاريخ ابن خلدون مؤسسه الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

ابن خلكان،شمس الدّين أحمد بن محمد بن خلكان،(د.ت): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، إحسان عباس،دار صادر،بيروت.

خليفة،حاجي،(1982): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ،دار الفكر.

سالم،محمود،(1965): المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطّبعة الاولى.

سبط ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن يحيى،(1992): المنتظم في تاريخ الأمم والملوك،تحقيق محمد عبد القادر عطا،دار الكتب العلمية،بيروت،الطبعة الأولى.

سبط بن الجوزي،أبو الفرج عبد الرحمن بن يحيى،(1951): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مجلس دائرة المعارف الإسلامية،الهند.

السّرّي الرفاء،(1996): ديوان السري الرفاء،تقديم وشرح،كرم البستاني، مراجعة شاهر جعفر، دار صادر،بيروت، الطبعة الأولى.

سعيد،أبو عبد الرّحمن عادل،(2001): فضائل الشّام، دار الكتب العلمية،بيروت، الطّبعة الأولى.

سليمان،خالد،(1997): إدارة بلاد الشّام في العصر الأيّوبيّ، رسالة ماجستير،الجامعة الأردنية صفحة:135.

السّيوطي،جلال الدّين عبد الرحمن،(1965): بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنّحاة، تحقيق، محمود أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى الحلبي الطبعة الأولى.

الشاغوري،فيتان أبو محمد فتيان بن علي الأسديّ،(1976): ديوان فتيان، تحقيق أحمد الجندي،مجمع اللغة العربيّة، دمشق.

الشّايب، أحمد، (1973): أصول النقد الأدبي،مكتبه النهضة المصرية ، الطبعة الثامنة.

ابن شداد،بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم،(1969): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية،مطبعة الآداب والمؤيد،مصر.

ابن شداد،عز الدين محمد بن علي،(1978):الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشّام والجزيرة، تحقيق، يحيى عياد ة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق.

خير،صفوح،(1969): مدينة دمشق دراسة في جغرافية المدن، وزارة الثقافة والإرشاد القومي .

الدينوري،ابن قتيبة،(1987): المعارف، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.

الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد،(1985): العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد السّعيد،دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى .

الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد،(1985): سير أعلام النبلاء، تحقيق بشار عواد معروف، يحيى هلال،مؤسسه الرّسالة، الطبعة الأولى.

الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد،(1997): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق،عبد السّلام تدمري، دار الكتاب العربي بيروت،الطبعة الأولى.

الذهبي، شمس الدّين محمد بن أحمد ،(1991):الإعلام بوفيات الأعلام،تحقيق، رياض عبد الحميد مراد،دار الفكر المعاصر،بيروت ،الطبعة الأولى.

ذو الرمة،غيلان بن عقبة،(1998): ديوان ذي الرمة،شرحه وضبط نصوصه وقدم له،عمر فاروق الطّبّاع،دار الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى.

رشيد،ناظم،(2002): المدائح النبوية في أدب القرنين السّادس والسّابع للهجرة، دار الشؤون الثقافية، بغداد، الطّبعة الأولى.

الرقب،شفيق محمد،(1993): الشّعر في بلاد الشّام في القرن السّادس الهجري، دار صفاء، عمان.

الرقب،شفيق،(1998): شعر الهجاء في بلاد الشّام زمن الحروب الصّليبيّة،مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد (55)، كانون الأول صفحة:137

شير،السيد ادي شير،(1980): معجم الألفاظ الفارسية المعربة، مكتبة لبنان، بيروت.

الصّفدي،صلاح الدين خليل بن أيبك،(1991): الوافي بالوفيات، باعتناء إحسان عباس،فرانز شتايز،الطبعة الثالثة.

ضيف،شوقي،(د.ت): تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، دار المعارف، مصر.

ابن طباطبا، محمد بن أحمد العلوي،(1982): عيار الشّعر، شرح وتحقيق، عباس عبد السّاتر، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى.

الطّغرّائي، إسماعيل بن الحسين بن علي،(1976): ديوان الطّغرّائي، تحقيق علي جواد الطاهر، ويحيى الجبوري، منشورات وزارة الإعلام، دار الحرية للطباعة.

عاشور، سعيد، (1978): الحركة الصّليبيّة،مكتبة الأنجلو مصرية الطبعة الثانية.

عاشور،سعيد،(1974): المجتمع الإسلامي عصر الحروب الصّليبيّة ضمن كتاب المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشّام من القرن السّادس إلى السّابع عشر،الجامعة الأردنية الدار المتحدة، الطبعة الأولى.

عباس، إحسان، (1998): تاريخ بلاد الشّام في عهد الأتابكة والأيّوبيين، الجامعة الأردنية، عمان.

عباس، إحسان، (1971): تاريخ النّقد الأدبي عند العرب،من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجريّ، دار الثقافة، بيروت،الطبعة الأولى.

عباس، إحسان،(1978): فن الشعر،دار الشروق، عمان،الطبعة الرابعة .

عبد المهدي عبد الجليل(1977): الحياة الأدبيّة في الشّام في القرن الخامس الهجريّ،مكتبة الأقصى، عمان، الطّبعة الأولى.

ابن العبريّ، أبو الفرج غريغوريوس،(1997): تاريخ مختصر الدول، تحقيق انطون صالحاني اليسوعيّ،دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن العديم، كمال الدين بن أبي جرادة،(1997): زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق، سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق،الطّبعة الأولى.

ابن العديم،كمال الدّين عمر بن أحمد بن أبي جرادة،(1998): بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق، سهيل زكّار، دمشق.

العرضي أبو الوفاء عمر،(1992): معادن الذّهب في الأعيان المُشرّفَة بهم حلب، تحقيق. عيسى أبو سليم، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، عمان.

العريني، السيد الباز،(د.ت): الشرق الأدنى في العصور الوسطى (الأيّوبيين)، دار النهضة العربيّة.

العسكري،أبو هلال الحسن بن عبد الله،(1981): الصناعتين، الكتابة والشعر،تحقيق، مفيد قمحة، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى.

عصفور،جابر أحمد، (1973): الصّورة الفنيّة في التراث النّقدي والبلاغي، دار المعارف.

علي،محمد كرد،(1952): غوطة دمشق،المجمع العلمي، دمشق، الطّبعة الثالثة.

علي،محمد كرد،(1983): خطط الشّام، مكتبة النّوري، دمشق، الطّبعة الثالثة.

العمري،ابن فضل الله،(1985): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (مصر والشّام والحجاز واليمن)، تحقيق ايمن سيد، المعهد العلمي الفرنسي.

ابن عنين، أبو المحاسن شرف الدين محمد بن عنين،(1994): ديوان ابن عنين، تحقيق خليل مردم بك، المجمع العلمي العربي، دمشق.

الغزولي،علاء الدّين البهائي،(2000): مطالع البدور في منازل السّرور،(مكتبة الثّقافة الدّينية، بور سعيد، طبعة.

الغزي، ابن سباط،(1993):تاريخ ابن سباط، تحقيق عمر عبد السلام تدمري،جروس برس، طرابلس، لبنان، الطّبعة الأولى.

الغزي،عثمان الطّبّاع،(د.ت): إتحاف الأعزة في تاريخ غزة، تحقيق عبد اللطيف زكي.

أبو الفداء، الملك المؤيد إسماعيل،(1996): المختصر في أخبار بني البشر، تحقيق محمود أيّوب، بيروت، الطّبعة الأولى.

ابن الفرات، ناصر الدّين محمد بن الفرات،(1971): تاريخ ابن الفرات تحقيق حسن محمد الشّمّاع، دار الطباعة الحديثة، بصرة.

الفرزدق،همام بن غالب،(1997): ديوان الفرزدق، شرحه وضبط نصوصه، عمر فاروق الطّبّاع،دار الأرقم، بيروت، الطّبعة الأولى.

ابن قاضي شهبة، بدر الدّين بن قاضي شهبة،(1971): الكواكب الدرية في السيرة النّوريّة، تحقيق محمود زايد،دار الكتاب الجديد، بيروت، الطّبعة الأولى.

القرطاجني،حازم،(1966): منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق، محمد الجيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس.

القلقشندي،(د.ت): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، الطّبعة الأميرية.

القيرواني،أبو على بن الحسين،(1981): العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، تحقيق،محمد محيّ الدّين عبد الحميد، دار الجيل،بيروت،الطبعة الخامسة.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر،(1993): البداية والنهاية، تحقيق مكتب تحقيق التراث، بيروت.

كحالة،عمر،(1993): معجم المؤلفين،مؤسسة الرسالة،بيروت، الطبعة الاولى.

المتنبي، أبو الطّيب أحمد بن الحسين،(1956): ديوان المتنبي، شرح أبي البقاء العكبري، طبعه وصححه، مصطفى السقا، إبراهيم الابياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، الطّبعة الثانية.

مصطفى،عبد المطلب،(1984): اتجاهات النقد خلال القرنين السّادس والسّابع الهجريين، دار الأندلس،الطّبعة الأولى.

أبو المعالي، محمد بن عبد الرحمن،(1990): ديوان الإسلام، تحقيق، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى.

المقدسي،أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل،(1997): الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية)، حققه وعلق عليه، ابراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة،بيروت، الطبعة الأولى .

لمقريزي، محمد بن علي،(1973): اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق محمد حلمي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

المقريزي،محمد بن علي،(1956): السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه، محمد مصطفى زيادة، مطبعة مكتبة التأليف، القاهرة، الطّبعة الثانية.

المنذري،(1981): التّكملة لوفيات النّقلة، تحقيق بشار عواد معروف،مؤسسة الرّسالة، بيروت، الطبعة الثانية.

ابن منظور، جمال الدّين محمد بن مكرم الأنصاري،(د.ت): لسان العرب،دار صادر، بيروت.

ابن منقذ، أسامه،(1965): الاعتبار، حرره، فليب حتي، مطبعه برنستون، الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الأولى.

الموصلي،ابن الشّعّار الموصلي،(1990): قلائد الجمان في شعراء هذا الزمان، يصدره فؤاد سزكين، معهد العلوم العربية والإسلامية، ألمانيا، مخطوط.

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد،(د.ت): مجمع الأمثال، تحقيق محمد محي الدين النّعيمي، عبد القادر بن محمد،(1948): الدّارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني،مطبعة التّرقي، دمشق.

النقاش، زكي،(1958): العلاقات الاجتماعيّة والثّقافيّة والاقتصاديّة بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصّليبيّة،دار الكتاب اللبناني.

أبو نواس،(1998): ديوان أبي نواس، شرحه وضبط نصوصه، عمر فاروق الطّبّاع، دار الأرقم، بيروت، الطّبعة الأولى.

النّويري، شهاب الدّين أحمد بن عبد الوهّاب،(د.ت): نهاية الأرب في فنون الأدب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

ابن واصل، جمال الدّين بن واصل،(1953): مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب، تحقيق، جمال الدّين الشّيال، القاهرة.

ابن الوردي، زين الدّين عمر بن الوردي،(1996): تتمة المختصر في أخبار بني البشر(تاريخ ابن الوردي)، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى.

يوسف،إرشيد،)(1988): سلاجقة الشّام والجزيرة، عمان.